
رواية
أحلام ممنوعة
نور عبد المجيد
صفحة كتب
facebook.com/the.boooks
مكتبة الدار العربية للكتاب

فضلاً

صفحة كتب

الرجاء شراء الكتاب من المكتبات
دعما للكاتب ولكي لا تضيع مجهوداته سدى!

مع تحيات فريق صفحة كتب
www.facebook.com/the.Boooks

نور عبد المجيد

أحلام ممنوعة

رواية

مكتبة الدار العربية للكتاب

عبد المجيد ، نور .
أحلام ممنوعة : رواية/ نور عبد المجيد . ـ ط2. ـ القاهرة :
مكتبة الدار العربية للكتاب ، 2012.
344 ص ؛ 21 سم
1 ـ القصص العربية.
أ ـ العنوان . 813
رقم الإيداع : 2299 / 2012

16 عبد الخالق ثروت ـ القاهرة .
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

الطبعة الأولى : صفر 1433 هـ ـ يناير 2012 م
الطبعة الثانية : جماد أول 1433 هـ ـ أبريل 2012 م

إهـــداء (1)

إلى مجموعة من الرجال في حياتي مع إعزازي وتقديري:

إلى "عصام الغازي" الذي أدين له بمولد كتابي الأول

إلى الأخ "أشرف بكر" الذي كان ومازال يؤازرني كثيرًا ..

إلى "خالد الحويطي" الذي يقسو في آرائه على ما أكتب .. لكني أعلم أنه يريد لي الأفضل..

إلى "شريف عيسى" وكأننا شقيقان منذ الأزل..

إلى "شريف أحمد" الذي يكفيني منه مولد أغلى رجلين وأغلى امرأة في حياتي..

إلى "حنين موصلي" التي ضمتني هي وعائلتها يوم كنت أنا وعائلتي بلا مأوى ، وكأنها وكأنهم ألف رجل..

ودائما إلى حبيبي الذي لم تر عيني قط رجلًافي حكمته وحنانه..

إلى والدي "عبد المجيد خطاب" رحمه الله وغفر له ..

إهـــــداء (2)

إلى رجل لا أعرفه ...

إلى رجل يحملني في قلب ذاكرته ،

ولا أسقط منه لحظة واحدة ..

إلى رجل يشهر اسمي سيفًا ،

ويحمل كلماتي أملًاونبوَّة ..

إلى رجل يعلمني أن سطورًا

ولحظات بالطهر والحنان

تصبح وحدها

عُمْر نور !!

و

حُلْم نور !!

ركضت نجية خارج بيتها بسرعة علّها تلحق بزوجها ، وهي تحمل ذاك الكيس الصغير الذي نسي أن يأخذه معه.

جن جابر ويزداد جنونه كل ليلة لينهض في الصباح من فراشه أكثر انكسارًا وذهولًا..كل الرجال حمقى .. لا هم لهم سوى الطعام والجنس.. بل الجنس عندهم أهم من الطعام.. هم يأكلون فقط ليمارسوا الجنس.. جن جابر عندما بدأ يشعر أنه لا يستطيع أن يكون رجلًا..

الرجل هو فقط من يقوى على ممارسة الجنس.. الرجل ليس أبدًا من يعمل ويكافح ويرعى البيت والأبناء.. هو رجل طالما كان قادرًا على مضاجعة زوجته ويوم يفشل يصبح مجنونًا .. ولكن رغم هذا هي تشفق عليه.. حاولت كثيرًا أن تهمس في أذنيه أن كل هذا لا يهم.. الحياة لم تنته لأن جابر مضى عليه أكثر من شهر يحاول ولم يستطع.

أخبرته وهي تبكي كل ليلة ألا داعي أبدًا لكل ما يفعله، البيت صغير.. البيت غرفتان صغيرتان وابناهما ما عادا صغيرين.. لماذا يصرخ ويبكي ويلعن الأرض بأكملها عندما يحاول ولا يستطيع؟! لماذا أصبح يقتطع معظم الجنيهات القليلة التي يكسبها ليشتري حبة زرقاء أو قطعة حشيش؟!

الرجل الحقيقي هو من يمنح كل ما يكسبه لأبنائه وإن كان هذا على حساب ملابسه وأدويته.. الرجل لا يترك أبدًا ابنته التي تبلغ من العمر خمسة عشر عامًا تخرج إلى المدرسة بحذاء ممزق ؛ ليشتري بالنقود كبسولة زرقاء أو "صاروخ" من العطار..

أصبحت هي وابناها لا يأكلون سوى الجبن وقطع الطماطم.. وداد تخرج بحذاء ممزق لا تملك حتى ثمن ترقيعه ، ومحمود تسقط الأقلام من حقيبته المدرسية الممزقة.. وجابر يصرخ وهو يرفض حتى أن يستمع لشكواها.. اليوم هو بحاجة إلى "يوميته" لشراء الكبسولة وبالأمس كان بحاجة لها لشراء دواء العطار الذي أخبره به أحد أصدقائه.. ليجوعوا وليخرجوا بملابس رثة قديمة ممزقة بل ليموتوا جميعًا إن اقتضى الأمر.. لا يعنيه سوى أن يسترد رجولته الضائعة..

وقفت نجية لحظة تلتقط أنفاسها وهي تحكم إغلاق طرحتها السوداء على رأسها ، باحثة بعينيها عن وجهه في كل الوجوه التي كانت تفترش الرصيف أسفل كوبري ناهيا ، انتظارًا لوصول المقاول مرزوق أو غيره ليأخذ منهم من يحتاجه اليوم.

رآها جابر قبل أن تراه ورأته ينتفض واقفًا ليتقدم نحوها بسرعة في غضب، حيث أسرعت بخطواتها نحوه ومدت يدها بالكيس الصغير في سكون.. كان ينظر في عينيها بغضب .. لكنه جذب الكيس الصغير من بين أصابعها دون كلمة .. دون حتى نظرة شكر واحدة جذبه ومضى بعيدًا إلى حيث أتى ..

لماذا ركضت كل هذه المسافة.. لقد أعدت له حبات الطماطم وقطع الجبن البيضاء وأرغفة الخبز اليومية وحده نسي أن يأخذها.. لماذا إذن ركضت كل هذه المسافة لتحملها إليه ؟!

نكست رأسها في حزن كبير وهي تعود من ذات الطريق الوعر على

أرض "صفط اللبن" إلى حارة "الرحمة" حيث تسكن.. لم تفعل ما فعلت حبًا ، لكنها فعلته إشفاقًا.. نجية تشفق على جابر.. إنه زوجها ووالد طفليها.. عائلتها.. تزوجته ، وهي في السادسة عشرة من عمرها..

جابر طيب لكنه مسكين أحمق.. لا يرى من الحياة شيئًا.. لا يرى فيها وداد التي كبرت وأصبحت في الشهادة الإعدادية تذبح نفسها بين الكتب علها تنجح.. لا يرى محمود الذي أصبح في السادسة عشرة من عمره ، ولا يستطيع الحصول على دبلوم التجارة الذي قيد فيه ومازال يتعثر.. لا يراه وهو يتلصص عليهم في المساء ، وينظر إليها بعينيه المستديرتين كل صباح في سخرية ، كأنه يخبرها أنه يعلم كل ما دار في الليلة الماضية.. لا يرى أنه ومنذ محنته هذه لم يسددوا إيجار بيتهم الصغير ، ولم يشتروا دجاجة واحدة.. لا يرى أن القروش القليلة التي تضعها "أم مرزوق" في جلبابها لا تكفي شيئًا سوى حبات الطماطم وقطع الجبن وبالكاد فاتورة الكهرباء..

لم يعد يرى شيئًا سوى أنه يجب أن يعود رجلًا.. هزت نجية رأسها في ألم ودمعة صغيرة تحرق طرف عينيها..

"ما عاد على الأرض رجال"..

رفعت ذراعها تمسح دمعتها بطرف جلبابها الأسود ، ثم رفعت رأسها كأنها تذكرت رجلًاواحدًا.. رجلًاحقيقيًا .. رجلًااسمه مرزوق الحلوجي!!

هل هناك رجال مثله.. أبدًا لا تصدق.. ربما لأنه رجل حقيقي ، فهو لم يتزوج حتى الآن.. الرجال الحقيقيون لا يتزوجون..

أخيرًا وصلت حارة "الرحمة" كانت سعيدة باسمها يوم سكنتها منذ سبعة عشر عاما بعد زواجها.. لكنها علمت أن حارة الرحمة ككل الحارات لا رحمة فيها.. الرحمة ليست إلا اسمًا .. الرحمة الحقيقية في القلوب ، وما عاد على أرض صفط اللبن قلوب ، فأين تسكن الرحمة إذًا ؟!

دون وعي منها رفعت عينيها تنظر إلى السماء ، كأنها تبحث فيها عن الرحمة.. وسمعت صوته من خلفها يصيح قائلًا:

- صباح الخير يا أم محمود..

تعرفه.. إنه مسعود بائع الخضراوات ، ورمقت عربته التي يأتي بها كل صباح ليتجول بها في السابعة صباحًا بين الحارات وانحرفت إلى اليمين قليلًا ليستطيع المرور بحماره.. الحارة ضيقة لا تسمح له أو لحماره بالوصول إلى آخرها.. بعد خطوات سيقف ، ويبدأ في رفع صوته مناديًا يعلن عن حضوره.

قبل أن تمضي من جواره رمقت الخضراوات بعينيها في ألم.. إنها حتى لا تملك أن تشتري أيا منها ، والتقت عيناها بعيني الحمار الذي يجر العربة ، ووقفت مكانها تنظر إلى عينيه في دهشة.. نجية شعرت أن عينيه تشبه عينيها .. لكنها ابتسمت ابتسامة صغيرة مريرة ، مدت بعدها كفها تربت على وجه الحمار في اعتذار.. ما عاذ الله أن تشبّه عيني الحمار بعينيها.. الحمار أصبح أكثر جمالًا وكرامة منها.. الحمار لا يحيا مع جابر ، الذي يجردها من ملابسها كل ليلة ويتجول فوق جسدها ثم يتركها ، وهو تارة يلعنها وتارة يبكي .. كأنه يستغيث منها .. كأنها وحدها عجزه.

الحمار لا تلعنه ابنته إن تمزق حذاءها ، ولا يلعنه ابنه عندما يرى صحن الطماطم اليومي وقطع الجبن ، ويصيح يسألها أليس من حقه أن يأكل صحنًا من الخضراوات ، أو حتى شريحة دجاج صغيرة.

مسعود يطعم الحمار.. أما هي إن طلبت طعامًا أصبحت مجنونة ، وإن سألت عن نقود أصبحت فاجرة لا رحمة في قلبها..

ليتك يارب خلقتها حمارًا في يد مسعود!!

من مدخل البيت الضيق دخلت ، وفي الطابق الأرضي وقفت أمام بيتها لتصرخ في هلع.. الباب مفتوح.. هل نسيت أن تغلقه وهي تركض خلف جابر.. ولكن لماذا تصرخ.. أي لص أحمق يدخل البيت.. دخلت بحذر لتسمع صوت نهنهات بكاء ؛ حيث رأت وداد ملقاة على الأريكة الصغيرة الموجودة في صالة البيت الضيقة ، وقطرات دماء كثيفة على قماش الأريكة.. لطمت نجية وجهها وهي تصيح تسألها ما الذي أعادها من المدرسة ، انحنت وداد تمسك بقدمها ، وهي تبكي قائلة:

- لو ادتيني اتنين جنيه أخيط بيهم نعل الجزمة كنت رحت المدرسة.. الجزمة ، مقطوعة.. مسمار دخل في رجلي.. رجعت..

كانت تلطم وجهها في حزن.. "جنيهان".. مسكينة وداد.. جنيهان!! بيت جابر عبد الواحد لو كان فيه جنيهان ، لأحضرت نجية الشرطة ، عندما رأت بابه مفتوحًا..

دخلت إلى حمامهم الصغير ، الذي لا شيء فيه سوى صنبور مياه معلق على أحد جوانبه وملأت صحنًا صغيرًا بالماء ، عادت به إلى ابنتها لتنظف لها قدميها في صمت ، ثم قالت بعد لحظات:

- بطلي بكا.. رجلك كويسة..

وعادت وداد تنتحب في جنون قائلة:

- ياريتها انقطعت عشان ترتاحوا.. أنا زعلانة على الدروس اللي حتفوتني.. أعمل فيها إيه..

يحزن نجية كثيرًا أن تعلم أن وداد متفوقة في مدرستها ، وأنها دائمًا تحتل الترتيب الأول .. لكنها لا تستطيع أن تشتري لها كل ما تحتاجه من مستلزمات..

من أجل وداد وحدها أصبحت تذهب إلى أم مرزوق كل يوم ، تطهو لها الطعام وتنظف لها البيت.. قبل لوثة جابر كانت تمنح كل ما تأخذه من أم مرزوق لوداد ومستلزماتها المدرسية ، ولكن ومنذ أصبح جابر من رواد العطارين والصيدليات وهي تحاول ولا تستطيع.

الكهرباء أولى .. أرغفة الخبز أولى .. لو كان جابر رجلا حقًّا ، لعلم هو الآخر أن كل هذه الأشياء أكثر ضرورة وأهمية من أن يتمكن من مضاجعتها.

هزت رأسها في ألم.. جابر ليس رجلًا، وربما لهذا حرمه الله من آخر علامات الرجولة..

عندما هدأت قسمات نجية قليلًا ، وضعت على رأس وداد قبلة صغيرة، وهي تخبرها أن رشا ستعود إليها بعد المدرسة وتخبرها بكل ما فعلوه فيها، ثم نهضت تحاول أن تخبئ الدمعة التي لاحت في عينيها.. كم تتمنى لو تخبر ابنتها أنها حزينة من أجلها.. كم تتمنى لو تأخذها إلى صدرها وتعتذر لها عن عجزها عن شراء حذاء جديد ، أو حتى توفير ثمن ترقيع حذائها .. لكنها لا تستطيع أن تفعل .. وأمسكت وداد بكفها ، كأنها هي التي تعتذر عن قسوة كلماتها.

وداد لم تعد طفلة.. هي ومحمود يعلمان جيدًا ماذا يدور في غرفة والديهما منذ شهر.. وداد وصديقاتها يتحدثن كل يوم عن مشكلة نجية وجابر ، بل إن صديقاتها كل صباح في مدرسة طه حسين الإعدادية يسألونها ذات السؤال "حصل يا وداد.. حصل ولا لسه؟!"

مضى شهر ، ووداد تتمنى أن تكون الإجابة نعم.. لا من أجل جابر ، ولكن من أجل نجية التي تصرخ وتبكي كل ليلة ، وهي تلطم خدودها لتكرر على مسامع زوجها قصيدة كل يوم كما يدعوها..

وداد طبعت قبلة على كف نجية ، التي أمرتها بتنظيف البيت وترتيب غرفتها هي ومحمود ريثما تذهب إلى أم مرزوق.. أحكمت نجية ربط غطاء رأسها الأسود حول وجهها ، وخرجت بعد أن أغلقت خلفها باب المنزل في هدوء.

صاح مرزوق يتعجل مجموعة العمال الذين كانوا بانتظاره على المقهى ، أسفل كوبري ناهيا ، ليدخلوا إلى سيارته حتى ينطلقوا إلى عمارة مدينة نصر، المكلف بإنهاء تشطيباتها .. وبعد أن دخلوا جميعًا إلى السيارة انطلق يقودها، وهو يسألهم عن احتياجاتهم من المؤن ومواد المحارة.. كان جابر غارقًا في التفكير ينظر من النافذة التي يجلس إلى جوارها ، كأنه ليس معهم .. وعاد مرزوق يسأله وأيضًا ما سمعه ليصيح الأول في غضب، والتفت جابر ينظر إلى وجه مرزوق في دهشة ، وعندما رأى عينيه هدأ غضبه كأنه لم يكن..

مرزوق رأى في عينيه شيئًا كالدموع ، ونكس رأسه قائلًا:

- وبعدين يا جابر.. أنت حتشتغل كرانيش ولا لسه؟! الجماعة صحاب العمارة عايزين يخلصوا ..

وفي انكسار ، أجابه جابر قائلًا:

- لسه يا ريس.. نخلص المصيص وبعدين نبدأ في الكرانيش.. مش أقل من أسبوع كمان..

أومأ مرزوق رأسه بالإيجاب ، وعاد جابر ينظر خارج النافذة في صمت ..

مرزوق يعلم مصاب جابر.. أخبره أحد العمال منذ أسابيع ، عندما كثرت أخطاء جابر في العمل..

منذ متى ومرزوق يعرفه.. منذ سكن في صفط اللبن هو وعروسه نجية.. مرزوق هو أول من سكن هناك ، بل إن الشارع الذي يقطنه يحمل اسم شارع مرزوق الحلوجي.

لم تكن صفط اللبن منذ سبعة عشر عاما كما هي عليه الآن.. كانت خاوية نائية ، لا شيء فيها سوى الحقول وبعض العمارات الصغيرة المتناثرة..

مازال يذكر جابر ونجية.. كانت نجية شابة وابتسم مرزوق ابتسامة صغيرة.. بل هي مازالت شابة جميلة رشيقة ، لكن جابر محا على خارطة وجهها تلك الابتسامة التي ما كانت تفارق شفتيها.. كم يتمنى مرزوق لو يراها تضحك أو تبتسم لتظهر غمازات عينيها العميقة ، ولكن كيف لها أن تضحك أو تبتسم.. جابر فقير لكنه عامل محارة ماهر.. إن المحارة التي تخرج من تحت كفه لا عيب فيها وكرانيش الجبس ، التي يصنعها لا يمكن أبدًا أن تكتشف الفرق بينها وبين "الكرانيش" الجاهزة الجديدة ، التي تباع الآن في الأسواق .

مسكين جابر.. حظه عاثر.. الكرانيش التي يجيد صبّها وتشكيلها من الجبس أصبحت تباع بالتكلفة ذاتها ، وربما أقل قليلًا جاهزة قابلة للتركيب الفوري.. أصبح طلبه للعمل أقل كثيرًا مما كان عليه منذ أعوام.. لكن مرزوق دومًا يأخذه معه في جميع المقاولات التي يكلف بها.. جابر مازالت محارته رائعة ، ولكن حتى المحارة أصبح الطلب عليها قليلًا.. معظم واجهات المباني الآن معظمها لا تتم محارتها.. معظم المباني الحديثة الآن يلجأ مالكوها إلى

تركيب الحجارة الصناعية عليها ؛ لأنها لا تحتاج إلى إعادة دهانات.. مرزوق لن يتخلى عن جابر ، ليس من أجله ، ولكن من أجل وداد التي ولدت على يديه.. من أجل محمود الذي يعاني منه جابر كثيرًا.. من أجل وصايا أمه المريضة..

آهة كبيرة انطلقت من صدر مرزوق ، وهو يشيح بوجهه ، كأنه يخشى أن يسمع أو يرى جابر ما يدور في رأسه وصدره.. مرزوق لن يتخلى عنه ليس لأنه عامل محارة ماهر بل من أجلها.. نعم من أجل نجية التي أحبها في اليوم الذي دخلت فيه حارة الرحمة..

نجية!! لماذا يشعر مرزوق في بعض الأحيان أنه سعيد لأن جابر أصبح عاجزاً عن مضاجعتها.. لأنه يحبها.. لأنه ورغم أنه يعلم أنها زوجة جابر وأم أبنائه ، إلا أنه يغار عليها كثيرًا حتى من زوجها!!

* * *

ما بقي شيء من شئون البيت سوى غرفة "مرزوق" ، وها هي اقتربت من إنهاء تنظيفها وترتيبها.. يحلو لها أن تتلكع في غرفته.. إنها غرفة كبيرة مضيئة ، وبها شرفة تطل على الشارع الرئيسي في صفط اللبن.. من اخترع الشرفات؟!

لابد أن من اخترعها كان يسكن بيتًا كبيت نجية لا شرفة فيها أو نافذة.. نعم.. هذا الثقب الصغير في حائط منزلها لا يمكن أن يطلق عليه

نافذة.. إنه ثقب تتدلى منه هي أو وداد لنشر الغسيل.. من عاش خلف الثقوب وحده يعلم ما تعنيه شرفة تشرق منها الشمس ، وتجد فيها مكانًا تقف فيه ليلًالترى السيارات وتسمع المارة وتراقب أضواء المصابيح..

تنهدت نجية ، وهي تحمل جلباب مرزوق لتأخذه إلى الغسيل.. أخذت تدعو له دعوات كثيرة في صدرها .. مرزوق في عينيها هو رجلها الحقيقي.. هو أبوها وأخوها الأكبر.. بل هو عائلتها.. هو هدية الله إليها ؛ لأنه يعلم أنها وحيدة لا أهل لها.. منذ متى وهو أب وأخ ورجل حقيقي لا ترى في رجولته أحدًا.. منذ ذلك اليوم الذي لا تنساه.. يوم ضربها جابر بجنون لأنها أحرقت الطعام الذي اشتراه.. بقيت طوال فترة حملها في وداد نائمة.. كانت تنام بعد أن تستيقظ من النوم.. جن جنون جابر ، عندما رأى قطع لحم الضأن التي أحضرها سوداء ، وهي نائمة على الأريكة الخشبية في صالة البيت ، دون حتى أن تفيقها رائحة الدخان التي تصاعدت من إناء الطهي.. استيقظ ليركض نحو المطبخ ، ويقذف بالإناء تحت صنبور المياه يحاول إطفاءه.. كان يصرخ ويلعن ، وهي غائبة في نومها حتى أفاقها وهو يلوي ذراعيها بين كفيه .. كادت نجية تقتله وتقتل نفسها وطفلها الصغير وأيضًا جنينها ، بل كادت تحرق البيت بأكمله.. عندما فتحت عينيها كان يصيح ، وهو يلطمها في جنون لم تفهمه فركضت خارج البيت ، عندما استطاعت الإفلات من يديه.. لم يكن في ذاك الوقت حولها بيوت كثيرة.. ركضت من حارة الرحمة بجنون تخشى أن يلحقها جابر.. ركضت إلى منزل أم مرزوق ، الوحيدة التي كانت تعرفها نجية آنذاك.. كانت المرأة مازالت بكامل صحتها وعافيتها ، وكانت نجية تطرق باب هذا البيت في جنون ، كأن ثيابها هي التي

اشتعلت لا إناء اللحم الصغير.

مازالت تتذكر كيف ضمتها إلى صدرها ، وأدخلتها إلى دارها ، وما أن سمعت صيحات جابر وطرقاته على الباب حتى ركضت توقظ مرزوق وتخبره أن يتولى أمره.

ابتسمت نجية في مرارة ابتسامة صغيرة ، ناظرة إلى فراش مرزوق.. نهض من هذا الفراش منذ ستة عشر عاما تقريبًا ، وهو لا يفهم شيئًا.. حيث وقف ينظر إليها ، في صالة البيت ، في ذهول.. كانت نجية ترتدي جلباب بيتها الأبيض الخفيف.. كان شعرها مسدلًا على ظهرها.. لقد ركضت من تحت كف جابر ، دون أن ترتدي شيئًا آخر.. أو حتى تضع غطاء رأسها .. كان جابر يصيح خلف الباب ، وأم مرزوق تشرح له كيف ضربها ، وهي في أواخر حملها وكان ينظر إلى نجية في حنان ، ثم قال كلماته التي أسكنته عروقها..

قال مرزوق يومها:

- إدى نجية جلابية وطرحة يا أمي من عندك..

أفاقت نجية لحظتها.. أفاقت وهي تكتشف أن قميصها خفيف ، وأن شعرها عار من غطائه.. أفاقت على صوته يريد أن يسترها حتى قبل أن يحميها.. نجية دخلت غرفة أم مرزوق ودخل جابر إلى البيت ، وهو يصيح بحثًا عنها.. كان ثائرًا وكان مرزوق حازمًا ، رغم أنه لا يكبره إلا بأعوام قليلة.. لكن مرزوق له مهابة في قلوب سكان صفط اللبن بأكملها.. هو

مقتدر.. هو يملك العمارة الصغيرة التي يسكنونها ، وهو أيضًا مقاول يسعى للعمل معه كل من لهم صلة بمجال البناء في المنطقة.

لم يترك جابر يومها يأخذ نجية حتى اعتذر لها وقبَّل رأسها أمامهم ، بل تعهد ألا تمتد أصابعه يومًا على نجية ، وإن فعل فوحده مرزوق يحاسبه.

كيف تنسى عينيه ، وهو يطلب منها أن تعود مع زوجها .. كيف تنسى أنها عندما كانت تنتحب وتبكي وتقسم أنها تنام رغمًا عنها ودون إرادتها .. كيف استدار يطلب من أمه أن تذهب إلى منزلها كل يوم لتساعدها وترعاها حتى تلد.

عادت ذاك اليوم مع جابر .. لكنها عادت وهي تعلم أن لها رجلًاوهرمًا كبيرًا خلف جدران هذا البيت.. مرزوق أصبح يأخذ جابر إلى العمل معه ، وأمه كانت معها يوم وضعت وداد. ذاك اليوم الذي اضطر فيه الأطباء في مستشفى الجلاء للولادة إلى استئصال رحم نجية بعد نزيفها المستمر إنقاذًا لحياتها.. لماذا انكسر بداخلها شيء ، عندما علمت أنها أصبحت امرأة دون رحم ، وأنها لن تستطيع أبدًا الإنجاب مرة أخرى.. لا تدري.. منحها الله الذكر والأنثى .. ولكن رغم هذا شعرت أنها أصبحت امرأة ناقصة مبتورة بلا رحم.. جابر لم يغضب أو يحزن لذلك لكن هي ضاعت منها الابتسامة، ومنذ مولد وداد وهي تشعر أنها نصف امرأة بل أنها في كل ليلة من الليالي، التي أصبح فيها جابر يصيح في جنون من عجزه عن مضاجعتها ، يرتفع دبيب قلبها كأنها تشعر أنها السبب.

ربما لو كان رحمها مازال موجودًا ما عجز جابر.. لكنه طيب مسكين..

ليتها تعرف حقًّا كيف تساعده ليسترد قوته.. ربما كان دعاؤها عليه هو السبب فيما حدث.. لقد كانت تدعو عليه كثيرًا ، عندما يوقظها أو يرفض أن يتركها تنام.. كان دومًا يسألها كلما تذمرت أو أبدت رفضها.. كان جابر يسألها أيهما أفضل أن يخرج لينفق نقوده على المقهى والتدخين ، أم أن يأخذها ليصيبه التعب وينام.

إنه على حق.. جسد نجية أرخص من المقاهي والحشيش والتدخين.. جابر على حق.. منذ فقد القدرة على تناولها كمنوم ، طارت النقود على العطارين وكبسولات الدواء.. تمتمت نجية في صدرها تدعو الله أن يشفي رجلها.. لن تقول له "لا" أبدًا.. يا رب أعد إليه فحولته ولن تدعو يومًا عليه.. هم بحاجة إلى كل مليم.. وداد بحاجة إلى جنيهين لترقيع حذائها.. محمود بحاجة إلى شيء يأكله غير حبات الطماطم والفول.

وتسلل صوت أم مرزوق إلى أذني نجية يناديها ، وأسرعت تنظر حولها بسرعة كل شيء انتهى في غرفة مرزوق ، وأغلقت خلفها الباب وهي تقول :

- "جايّة حالاً"..

كانت أم مرزوق على مقعدها المتحرك ، تجلس في هدوء ، بعد أن أغلقت المصحف الذي بين يديها ووضعته جانبًا ، ونظرت إلى نجية في حنان وامتنان كبيرين.. منذ ضرب الشلل نصفها السفلي ، وهي لا تعلم كيف كانت حياتها هي ومرزوق ، إن لم تكن فيها هذه المرأة..

أقبلت نجية نحوها ، وهي تقول:

-كل حاجة تمام .. أحط الغسيل في الغسالة واطفي عالبوتجاز وامشي .. عايزة حاجة تاني يا خالتي..

ابتسمت أم مرزوق قائلة ، كأنها تشعر بما يدور في رأس نجية:

- أنت مش عايزة حاجة؟!

ابتعدت نجية عنها في طريقها إلى حمام البيت ، وهي تتمتم بدعوات كثيرة لها ولابنها.. ابتسمت داخل الحمام ابتسامة كبيرة ، لا تستطيع أن تمنع نفسها عنها أبدًا كلما رأت "الغسالة" ، وانحنت تضع قطع الملابس بها ، وأدارتها وافترشت الأرض أمامها ، وأخذت ترقبها وهي تبتسم.

لا شيء يذهلها كهذا الاختراع.. لا شيء حقًّا تتمناه من كل قلبها سوى أن تملك يومًا غسالة كهذه.. نجية تغسل أطنانًا من الصحون.. تمسح ألف متر من البلاط ، ولكن تكره أن تغسل الملابس على يدها.. لا شيء يثير أعصابها سوى يوم الغسيل.. تشعر أن أصابعها تتلوى حين تفرك قطع القماش بيدها.. تشعر أن ظهرها يتألم ، وهي تنحني فوق قطع القماش تغسلها.. ترى هل تدخل غسالة كهذه يومًا إلى بيتها قبل أن تموت.. لقد أحضرها مرزوق إلى أمه بعد إصابتها بالشلل.. لقد أخبرتها أن ثمنها حوالي ألفي جنيه.. ألفا جنيه!! تستحق أكثر.. أكثر بكثير.. تضع بداخلها الملابس المتسخة وبعضًا من مسحوق الصابون لتدور وتدور وحدها ، ثم أيضا تقوم وحدها باستبدال المياه بمياه صافية وأيضًا تعصرها!! من اخترعها وكيف تعمل؟!

استندت نجية بكفيها على بلاط الحمام لتنهض ، وهي تربت على الغسالة.. ستعود إليها غدًا لتخرج منها الملابس وتقوم بنشرها..

عندما وضعت "الطرحة" على رأسها ، انحنت تقبل رأس أم مرزوق تودعها ، لتسمعها تقول:

- نجية.. افتحي التلاجة يا بنتي .. مرزوق شايلك نايب لحمة من اللي اشتراها.. خديها اعمليها للولاد النهاردة..

رغم دهشتها وسعادتها ، إلا أنها قالت في كبرياء:

- ليه بس يا خالتي.. أنا عملتلهم الأكل قبل ما أخرج.

وعادت العجوز تقول:

- ما تزعليش مرزوق يا نجية.. خشي خدي الكيس..

بعد صمت طويل وتردد كبير ، قالت في خجل:

- أنا عايزة اتنين جنيه لغاية جابر ما يرجع بالليل.. لو ممكن آه .. لكن اللحمة لأ.. والله عندنا وطابخة وأنت عارفة ما عنديش تلاجة.. اتنين جنيه لغاية الصبح وحارجعهم..

في طريق عودتها كانت دموعها تنساب في صمت على وجنتيها .. لم رفضت أن تأخذ "اللحم".. لا تعلم.. حتى عندما تمنحها أم مرزوق النقود كل شهر لا تأخذها أبدًا كأجر ، رغم أنهم جميعًا يعلمون أنها كذلك.. في كل

شهر تمنحها أم مرزوق النقود بقصة... مرة تخبرها أنها كانت تتمنى لو أن بإمكانها أن تتحرك لتشتري لوداد ثوبا أو تشتري لمحمود حذاء ، أو تشتري لها عباءة.. ثلاثة أعوام تمنحها فيهم كل شهر مبلغًا ، يختلف عن الشهر السابق ، في مرة أقل وفي مرة أكثر حتى لا تشعر أنه أجر ثابت.

مسحت نجية دمعاتها.. لماذا لم تأخذ قطع اللحم التي تركها لها مرزوق.. لأنها لا تريد أن تشعر أن طعامها وطعام أبنائها أصبح صدقة..

وابتسمت في مرارة وسخرية.. لها نفس عفيفة ، ولكن كيف تطعم وداد ومحمود من هذا العفاف.. جابر سيعود بيوميته هذا المساء.. لقد أقسم لها أنه لن يشتري بها شيئًا اليوم.. عندما يأتي في المساء ، ستأخذ من يوميته جنيهين تعيدهما إلى أم مرزوق وتشتري ما تعد به عشاء ساخنًا لجابر وأبنائه ، وإن لم يعد بنقود أو إن حتى أنفقها فليناموا جميعًا جوعى .. مازالت هناك بعض حبات الطماطم وقطع الجبن.. الجوع أرحم من أن تشعر نجية أن مرزوق أصبح يطعمها هي وأبناءها..

رغم حبها له.. رغم احترامها الكبير.. مازال لها ولأبنائها رجل وحده يطعمهم وينفق عليهم جميعًا! رجل رغم كل شيء سيبقى زوجها ورفيق دربها.. رجل لن تدعه يطأطئ رأسه أبدًا..

رجل اسمه جابر عبد الواحد!!

ضمت رشا وداد في حنان كبير ، وأخرجت من حقيبتها المدرسية كل ما تمت دراسته في غياب وداد ، وأخذت تشرح لها وتخبرها عن الواجبات ، التي تم تكليفهم بها ليقوما بإنجازها معًا..

كانت رشا سعيدة وهي تفعل ؛ لأن هذا يعني أنها ستقدم أفضل واجب لها في الغد.. وداد هي أذكى تلميذة في مدرسة طه حسين بصفط اللبن.. أنت معها كأنك مع معلم أو معلمة كل مادة.. كل المعلمات والمعلمين يحبونها .. جميعهم سألوا عنها هذا الصباح وافتقدوها.. بل جميعهم يفاخرون بها إن دخل الفصل المدرسي موجه ، كأنهم يدخرونها للأسئلة الصعبة ؛ ليعلم كل موجه مدى كفاءتهم ومهاراتهم في التدريس.

رفعت رشا عينيها تنظر إلى وجه وداد الرقيق.. وداد ليست متفوقة فحسب ، بل هي جميلة .. شعرها الأسود الكثيف وعيناها المشروطتان.. شفتاها المكتنزتان .. وداد جميلة ودومًا نظيفة.. رغم أن رشا تعلم كل شيء عنها وعن فقر عائلتها ، إلا أنها لا تذكر أنها رأتها يومًا مشعثة الشعر أو على زيها المدرسي أو حذائها الرخيص بقعة.. رشا دومًا تضحك وهي تسألها كيف تخرج من حارة الرحمة التي يسكنونها ، وتسير كل هذه المسافة إلى المدرسة في أكوام الأتربة والنفايات ، ورغم هذا تبقي ملابسها نظيفة وحذاؤها لامعًا..

وداد أخبرتها السر.. وداد في حقيبتها المدرسية قطعة صغيرة من القماش تطلق عليها اسم "الحتة الزفرة" ، تمسح بها حذاءها قبل وصولها إلى مبنى المدرسة وأيضًا قبل دخولها إلى البيت.. ربما لهذا تمزق حذاؤها

من كثرة تنظيفه!!

وصاحت رشا فجأة كأنها تذكرت شيئًا نسيته ، ومدت أصابعها داخل حقيبتها المدرسية قائلة:

- بت يا وداد امسكي.. أبلة تهاني باعتالك دول..

التقطت وداد الكتب التي أخرجتها رشا من حقيبتها في سعادة ، وهي تقول :

- يا رب يخليك يا أبلة تهاني.. دي روايات نجيب محفوظ ، وكتاب لأحمد بهجت بتاع صندوق الدنيا..

ابتسمت رشا في حنان.. الجميع يحبها ، وهي أيضًا تحبهم جميعًا.. تهاني وكيلة المدرسة دومًا تحضر لها الروايات والكتب.. لقد حاولت رشا أن تفهم شيئًا مما تقرأه وداد ، لكنها ما استطاعت.. وداد تقرأ روايات وكتب يقرأها المعلمون والأساتذة ورغم هذا تفهمها ، وتحكي ما فيها كأنها المجلات التي تتصفحها رشا كل أسبوع وهي تقف عند بائع الصحف.. ربما لهذا هي متفوقة.. ولهذا لا يوجد من هو في ذكائها وتفوقها..

لا أحد في الشهادة الإعدادية يقرأ ما تقرأه وداد جابر.. ربما حدث كل هذا لأن وداد هي أكبر سنًا من كل زميلاتها.. كل تلميذات الصف في الخامسة عشر تقريبًا .. وداد .. وحدها هي في السادسة عشر من عمرها.. أخبرت نجية رشا يومًا أن قبول وداد في المدرسة تأخر عامًا كاملًا، ولكن هل تقدمها في العمر عام واحد يجعل منها هذه المتفوقة العاقلة القارئة.

أبدًا.. رشا تؤمن أن وداد خلقها الله كبيرة.. خلقها هادئة متزنة.. رشا تعرف شابات أكبر منها ومن وداد ، ومازلن أطفالًا يقرأن كتب المدرسة بصعوبة.. وداد خلقها الله كبيرة!!

عندما فتحت نجية باب البيت وجدت الصديقتين غارقتين في الحديث ، وحولهما كتب وكراريس المدرسة ، وبعد أن حيت رشا نظرت حولها كأنها تبحث عن شيء ما ، وعندما لم تجده اقتربت تهمس في أذن وداد قائلة:

- فين جزمتك؟!

انحنت وداد لتخرج حذاءها المقطوع من أسفل الأريكة الخشبية المتهالكة التي يجلسان عليها لتلتقطه نجية من يدها ، وهي تغادر البيت مرة لأخرى قائلة:

- أنا حاوصل لحد الناصية وراجعة.. خليك قاعدة يا رشا..

ابتسمت وداد في مرارة ، وهي تخبر صديقتها أن أمها عادت بالجنيهين ، وأنها لابد وأن تكون ذاهبة لخياطة نعل حذائها.. رشا ضحكت في صوت خفيض :

- وداد.. ما قلتليش .. أبوكي عمل ايه؟ حصل يا بت ولا لسه؟!

صاح خميس في ركاب الميكروباص ، ملقيًا إلى آذانهم بسباب خارج

وألفاظ بذيئة ، بعد أن نشبت معركة بين اثنين منهم ، غير مبال بوجود بعض الفتيات والسيدات ، ثم انحرف بسيارته بشدة إلى جانب الطريق ، وهو يصيح قائلًا:

- محمود.. نزل الاتنين دول ولا وديني لأكون فاتح بطنهم..

هبط محمود من باب السيارة وهو يأمرهما بالنزول.. كان يكفي كل تلك الكلمات التي سمعاها من خميس.. كان يكفي كثيرًا أن ينظرا إلى ملامحه الغارقة في القسوة والضياع ، وكان يكفي أكثر أن كل من كانوا على متن السيارة يريدون نزولهما ليكملا الرحلة ، وليتوقف عن إلقاء مزيد من كلماته الفجة إلى آذانهم.

هبط الشابان ليغادرا سيارة خميس حتى دون أن يطالبا بأجرتهما ، وصعد محمود ليقف على بابها ينادي على سواهما..

كانت السيارة في طريقها إلى آخر الخط ، الذي يبدأ من صفط اللبن وحتى منطقة بولاق الدكرور حيث هبط من بقي فيها ، وقبل أن تمتلئ السيارة من جديد ، صاح محمود قائلًا:

- والنبي يا سطى العشرة جنيه اللي وعدتني بيهم حاشتري بيهم حاجة من هنا ، وأكون عندك بعد دقيقة واحدة.

اختفى محمود راكضًا في ميدان بولاق الدكرور ، بعد أن أومأ له خميس بالإيجاب ليشعل سيجارة وضعها في فمه وهو يبتسم.. إنه يحب محمود .. يعجبه كثيرًا هذا الشاب الصغير الذي يركض كل صباح بحقيبة

المدرسة ليتسلق معه الميكروباص ، مفضلًا العمل معه عن الذهاب إلى المدرسة.. يعجبه كثيرًا أن يسمعه يتحدث عن حماقة والديه ، اللذين مازالا يرغمانه على الذهاب إليها رغم فشله ، حتى في أن يعرف كيف يكتب موضوع تعبير أو يحفظ درسًا..

ربما كان خميس قلقًا بعض الشيء من أن يلومه جابر ، إن عرف أنه يصطحب محمود معه كل صباح .. لكن الأخير أخبره أن ناظر المدرسة طرده منها ثلاثة أيام ، وأخبره ألا يعود إلا بصحبة أبيه..

كان من الممكن أن يتسكع محمود كل صباح .. على المقاهي ، أو مع من هم مثله من المطرودين أو الهاربين من المدرسة.. لكن مع خميس ، سيصبح محمود رجلًا.. ويومًا سيعلم جابر أن ابنه لم يخلق للتعليم.. محمود خلق لحياة الرجال.. الرجال أمثال خميس .. لا أمثال جابر عبد الواحد.

أدار خميس محرك سيارته ، بعد أن بدأت صيحات ركابها تسأل عن سبب تباطؤه وقادها في هدوء ، حتى ظهر محمود على البعد راكضًا ليقفز خلفها ، وفي يديه كيس من البلاستيك الأسود ، ألقى به إلى المقعد المجاور لمقعد السائق ، وأخذ يجمع الأجرة من ركاب السيارة ، وهو يصيح مناديًا على مزيد من الركاب..

كان يفعل ما يفعله وهو يبتسم.. إنه حقًّا سعيد.. فلتذهب المدارس إلى الجحيم.. لماذا يتعلم الناس؟!

في ثلاثة أيام قضاها مع خميس ، منحه الأخير أكثر من خمسة عشر

جنيها.. أنفق الخمسة في الأيام الثلاث الماضية على شراء السجائر ، وطلب منه أن يمنحه عشرة جنيهات قطعة واحدة.. لو ذاب محمود ما منحه جابر ، أو منحته نجية ورقة ذات عشرة جنيهات.

لو يعلم محمود كيف يخبر والديه أنه لا يريد العودة إلى المدرسة.. هو لا يفهم شيئًا مما يقال فيها.. إنه يكره رائحة الكتب والأوراق ووجوه المعلمين ..

كل المعلمين أغبياء يظنون أنفسهم شيئًا ، وهم لا شيء سوى ببغاوات ، تردد كلمات كتبها أغبياء آخرون على الكتب ، ثم يطلبون منه أن يحفظها ليأتي يوم الامتحان ويسطرها هو على الأوراق.

أي أحمق هذا الذي اخترع نظام التعليم وما الهدف منه؟! وداد أخته المسكينة دومًا تردد في أذنه أن التعليم وحده هو الطريق إلى النجاح والحرية والثروة.. مجنونة وداد.. من كثرة استذكارها وقراءتها جُنت .. عطب عقلها.. أي حرية في السجن مع الكتب والحفظ والاستذكار.. أي نجاح هذا الذي يأخذك من كتب إلى كتب أكثر ، ومن معلمين حمقى إلى معلمين في السنة الدراسية التالية أكثر حماقة وتشددًا وغباء.. أي ثروة وأنت تشتري أقلامًا ومساطر وكراريس ، وتدفع نقودًا للمجموعة.. مسكينة وداد!! لكنه يحبها.. ربما كان التعليم حقًّا للبنات، أما الرجال فهم للعمل..

التعليم نظام غبي أحمق يقضي على الحرية ويورث الفشل والفقر..

لو لم تكن نجية أمه لهرب منذ عام.. لو لم تكن وداد أخته لهرب منذ عام .. كيف يتركهما.. لن يضعف هذه المرة ، ولن يعود إلى المدرسة ، ولو مزقه

جابر ألف قطعة..

وأفاقه صوت خميس ، وهو يقول:

- ولا يا محمود.. سجايري خلصت.. هات واحدة من معاك !

كل شيء في المنزل كان ساكنًا.. وداد أنهت واجباتها المدرسية وتجلس على الأريكة ، تقرأ رواية نجيب محفوظ التي أرسلتها لها تهاني.. محمود عاد من مدرسته كعادته متأخرا وسقط في نوم عميق ، بعد أن أخبرته نجية أن جابر سيحضر معه ما تطهوه لهم جميعًا ؛ ليتناولوا وجبة عشاء ساخنة..

نجية انتهت من طي الملابس ، ولكنها خائفة من أن ينفق جابر النقود ولا تجد ما تطعمه لطفليها الجائعين.. كانت تفكر فيما سيحضره.. لقد أخبرته في الصباح أن يشتري عند عودته كيلوين من المعكرونة ، وعلبتي صلصة وقارورة صغيرة من الزيت .. لكنه وعدها أن يشتري ما هو أكثر.. كانت تجلس إلى جوار ابنتها وهي تعلم أنها جائعة مثلها.. ليتها أحضرت كيس اللحم الذي أخبرتها عنه أم مرزوق.. ليس عيبًا.. ألا تقوم بأخذ اللحم منها، عندما يقوم مرزوق بالذبح في عيد الأضحى..

أغمضت نجية عينيها في ألم.. نعم هي تأخذ من اللحم في العيد ، ولكن هناك فارقًا كبيرًا بين أن تأخذ وأنت تملك ، وأن تأخذ وأنت لا تملك .. في الأولى تشعر أنها هدية أو مجاملة .. لكن في الثانية أنت تشعر أنها حسنة أو صدقة.. تشعر أن من يمنحك يصيح في وجهك ، ويخبرك أنه يعلم أنك جائع.

كان يجب أن ترفض.. لا يجب أن تلوم نفسها.. لا يجب أبدًا أن تلوم نفسها.. وفي اللحظة التي استدارت فيها تحمل الملابس التي طوتها لتنهض بها ، رأت جابر يدخل البيت في جنون.. كان يحمل في يده كيسًا به بعض المشتروات ، قبل حتى أن تلتقطه أو تعلم ماذا يحتويه ، قذف به جابر إلى جوار الحائط في جنون ، وهو يصيح في غضب:

- فين الواد ابن الكلب.. فين محمود؟!

ألقت وداد برواية نجيب محفوظ من يدها ، وسقطت الملابس من يد الأم؛ لتسرع خلف جابر الذي دخل غرفة الطفلين ، وهي تسأله ما الذي يدور.. لكنه مد كفه يمسك بعنق محمود ، الذي كان غارقًا في النوم ليفيق على كف جابر ، وهي تطبق على عنقه وصيحاته الغاضبة وهو لا يكاد يفهم شيئًا..

كان جابر غاضبًا ، وكانت نجية تصيح تسأله عن سبب غضبه وجنونه..

لطم جابر النائم لطمات عديدة ، وهو يخبرها أنه طرد من المدرسة منذ أيام.. كان محمود يستغيث ، ونجية تحاول أن تخلصه من كف أبيه ، بينما بكت وداد .. في لوعة التفت جابر ينظر إلى ابنته.. يحبها.. جابر يعشق وداد.. كان يظن يوم رزق ذكرًا أنه سيبقى يحبه وحده .. لكن وداد وحدها جاءت لتملك لب روحه وعقله..

صاح جابر وهو يخبرها أنه حتى لا يهتم بذهابه إلى المدرسة من عدمه.. ما يقتله أن يخبروه أن محمود يرتاد سيارة خميس كل صباح.. وعاد يصيح في جنون:

- خميس.. الواد الفاسد اللي كل ليلة بايت في قسم شكل.. خميس اللي سيجارة الحشيش ما تنزلش من إيده..

كانت نجية قد أغلقت ذراعيها حول محمود لتحميه .. لكنها عندما سمعت الاسم ، أطلقته من بين ذراعيها في ذهول لتتسع عيناها على نهايتهما.. لطمت على صدرها في جنون ، وعادت تنظر إلى محمود ، كأنها تبحث في وجهه عن آثار الحشيش أو المخدرات ، وقالت في صوت مذبوح كأنها تئن:

- خميس يا محمود !!.

ركض محمود يختبئ خلف ظهر وداد ، وهو يقسم أن خميس لم يؤذه ، ولم يمنحه شيئًا مما يتحدثون عنه.. أقسم أنه يعمل مناديًا في سيارته.. أخبرهم أن خميس يمنحه نقودًا..

حتى وداد في لحظة شعرت أنها نسيت قصة المدرسة ، وأصبح في رأسها شيء واحد.. لقد رأت محمود عند عودته من الخارج.. كان يخبئ خلف ظهره كيسًا أسود.. هل به مخدرات؟!

كان جابر قد هدأ قليلًاوارتمى بجسده على فراش محمود ، الذي كان نائما عليه.. كان يهذي بكلمات عن عمله.. عن وقوفه على قطعة من الخشب معلقًا بين السماء والأرض كل يوم ليقوم بأعمال المحارة.. عن نجية التي أصبحت شبه خادمة في بيت أم مرزوق.. كان يهذي كأنه يتحسر على نفسه ، وأرخى رأسه بين كفيه في وهن وألم .

استدارت وداد إلى محمود المختبئ خلف ظهرها ، وقالت في جنون:

- إيه الشنطة السودا اللي إنت رجعت بيها وخبيتها؟

واشتعل الثلاثة من جديد يسألونه ويصيحون فيه.. نجية لطمته على وجهه لطمة قاسية ، وهي تسأله هل يحضر المخدرات إلى بيتها ، أم أن خميس منحه إياها ليبيعها.. جابر اشتعلت عيناه بالغضب مرة أخرى ، وهو يحاول الوصول إليه ليضربه من جديد.. وحدها وداد انحنت أسفل فراش أخيها الخشبي القديم .. كأنها تعلم أن هذا هو مخبأه الوحيد.. وخرجت بذاك الكيس الأسود وأسرعت نجية تلتقطه من يدها.. لن تدع ابنتها أبدًا تمسك بالمخدرات في يدها..

أخرجت نجية شيئًا ملفوفا في ورق جرائد قديمة وهي تشهق.. هل هذه هي "طرب الحشيش" ومزقت الجرائد عنها ، لتطل من بين طياتها فردتي حذاء كاوتشي رخيص ، ورفعت عيناها تنظر إلى محمود في ذهول ، ليسمعوه جميعًا يقول:

- اشتريت جزمة لوداد بالفلوس ، اللي خدتها من خميس عشان ما تروحش المدرسة بجزمة مقطوعة.. بس ما كنتش عارف أقول جبت فلوسها منين!!

لم يعد هناك شيء على الأرض لم يبتلعه جابر.. كبسولات زرقاء

وبيضاء.. أعشاب لينة وأخرى جافة.. لابد أنهم على حق.. ما أصابه هو السحر.. نعم سحره أحدهم ولكن من ذاك الذي يسحره؟! هو ونجية لا أصدقاء لهما ولا حتى عائلة.. نجية حتى لا تجلس مع نساء الحي ، عندما يخرجن لشرب أكواب الشاي في الحارة ، وهن يفترشن الأرصفة في الليالي الحارة ، ولا يومًا رآها تطرق باب إحداهن أو تطرق إحداهن بابها..

نجية منذ بدأت حارة الرحمة تمتلئ بالسكان والمباني العشوائية ، وبدأت أصوات مشاجرات النساء والأطفال تعلو في سمائها اختارت ، ومنذ أعوام طويلة ، أن تغلق باب بيتها.. وحده محمود الذي يلعب مع الأطفال وحده الذي كان بسبب حماقاته ، كانت بعض الأمهات يطرقن الباب.. ربما من قام بعمل السحر له إحدى هؤلاء.. لم لا؟!

اغتاظت إحداهن من محمود ومن نجية ، التي يعتقدن جميعًا أنها تتعالى عليهن فقررت أن تقتله وتسحق زوجته.. ربما كانت أم مسعد.. لقد ضرب محمود صغيرها منذ خمسة أشهر حتى سالت الدماء من جبهته..

ولكن كيف تمكنت أم مسعد من الحصول على "أثره" .. هل هي إحدى صديقات وداد ولكن حتى وداد لا صديقات لها سوى رشا.. هي قطعة من أمها لا صداقات لها أو زيارات.. وداد لا شيء يشغلها سوى الكتب.. وداد تذاكر وتقرأ حتى وهي نائمة.. ربما قرأت شيئًا ملعونًا فأصابته هو اللعنة.. ماذا يفعل وكيف يعلم من قام بسحره ، حتى يصبح في ظرف يوم كأنه ما كان يومًا رجلًا.. لم يبق أمامه طريق سوى أن يذهب إلى الشيخ ، الذي أخبره عنه عماد "صبي المحارة" الذي يعمل معه.. وحده سيخبره من فعلها ،

وكيف يتخلص من تأثير هذا السحر السفلي الأسود.

مازالت نجية تبكي وتلطم وجهها كل ليلة ، وهو يتمزق ويحاول أمامها.. مازالت تصرخ وتخبره أن يكف عن التفكير في هذه القصة.. الحمقاء تسأله لماذا يهتم.. أصبح لديهم فتاة شابة في الشهادة الإعدادية ، وابن حصل على الإعدادية بمعجزة كبرى ، ويجب أن يراقبوه كل صباح ومساء ؛ حتى لا يرتكب الجديد من الحماقات ، وحتى يحصل على الدبلوم.. والله لو أصبح عنده أحفاد رجالا ونساء ما اهتم..

المجنونة كيف يحيا وهو ليس رجلًا.. لقد بدأ يشعر بالخجل ، كلما نظر في عيني وداد ، أو حتى صبيه عماد رغم أنه هو نفسه من أخبره.. يشعر بالعار وكيف لا يشعر به.. جابر لم يعد رجلًا.. النار تأكل ضلوعه.. النار تأكل روحه وقلبه وعينيه.. النساء محظوظات.. المرأة تبقى امرأة حتى تموت استطاعت أو لم تستطع أن تمارس الجنس.. لا أحد يشعر بعجزها ، بل باستطاعتها أن تدعي أنها تتوق إلى الجنس ، وأنها تستمتع به وأنها تتألم وتنتشي ، حتى إن لم تكن ولكن الرجل مفضوح!

الرجل مكشوف.. بالعين تعلم أنه فقد رجولته.. هل انتهى وهل يستسلم ويرضخ ، ويصبح مجرد امرأة عجوز تتسلق ألواح "البلطي" وترمي بقطع الاسمنت المخلطة على الحوائط والجدران.. أهذا هو دوره في الحياة ، وهو مازال في الأربعين من العمر.. لن يستسلم .. سيذهب إلى الشيخ خضير الذي أخبره عنه عماد.. سيحاول وإن كانت القصة بعيدة عن السحر سيتزوج امرأة.. نعم ربما كان العيب في نجية.. شاخت وهي في السادسة

والثلاثين.. ربما لأنها بلا رحم.. ربما قامت هي "بربطه" كما يقولون.. فلتذهب هي وأبناؤها إلى الجحيم.. فلتذهب صفط اللبن والقاهرة ، بل والأرض بأكملها إلى الجحيم ، ولكن يجب أن يعود هو كما كان.

ضمها مرزوق إلى صدره في حنان ، وهو يعود بجسدها على الفراش ، ثم انحنى يضع قبلة على جبهتها ، وجلس إلى جوارها ، ممسكًا بكفها النحيل بين أصابعه ، وابتسم قائلًا:

- أنا متجوزك.. فاهمة يعني إيه!! يعني ما ينفعش أتجوز عليك لأني بحبك ودا مش حيخليني أعدل.. ربنا قال كدا ربنا قال «وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة» ..

أغمضت سيدة عينيها في صمت وألم..

آن الأوان أن تموت.. يا رب ألا تكافئ الأبناء البررة.. ألا تكافئهم عندما يكرمون أمهاتهم .. لا ابن على الأرض أكرم أمه كما فعل مرزوق.. من أجلها حرم نفسه الزواج وحرم نفسه الذرية والأبناء.. من أجلها يعود كل يوم بعد عمله ليدفع مقعدها المتحرك إلى الشرفة ، ويتناول معها الطعام ويحكي لها القصص والحكايا ، ثم يضعها في فراشها كالأطفال..

إنه رجل ولابد أنه يشتاق امرأة تدلله .. امرأة يتحسسها ، كما كان والده يفعل معها يومًا..

كافئه يا رب.. تعلم أنها لا تتمنى فراقه.. تعلم أنها تشعر أنها تطير ، رغم أنها مقيدة على مقعدها المتحرك منذ أعوام .. تطير كلما عاد ليجلس إلى جوارها أو يضعها على فراشها .. لكن رغم هذا يبقى خلاصه وتبقى حياته في أن تطير روحها هي إلى السماء.. وأغمضت عينيها على دمعة ، شعرت بها تسقط وخشيت أن يراها فيتألم ، وانحنى يقبل كفها في حنان لينهض في هدوء عن فراشها ظنًّا منه أنها نامت..

أطفأ مفتاح الضوء وخرج إلى غرفته ، وهو يستعيد صورتها القديمة كانت سيدة ، أمه ، سيدة النساء.. كانوا يسكنون حي ميت عقبة الذي ولد ونشأ فيه.. بعد وفاة والده منذ أكثر من عشرين عامًا ، أخبرته سيدة أنها لم تعد تطيق الحياة في "ميت عقبة" .. تريد الابتعاد.. كل شيء في شوارع الحي يذكرها برضا الحلوجي رحمه الله.. كانوا يملكون بيتًا صغيرًا هناك ، وكان هو قد جاوز العشرين وقام ببيع ذاك البيت ، وحضروا إلى صفط اللبن التي كانت شبه خاوية .. عندها قام مرزوق بشراء قطعة الأرض هذه وقام ببنائها.. لقد شرب من والده ، رحمه الله ، صنعة البناء كما يقولون.. في شهور قليلة ، كان المبنى جاهزًا وانتقلت سيدة إلى صفط اللبن ، قبل حتى أن ينتهي من الدهانات الخارجية للمبنى.. هنا في صفط اللبن أطلقوا اسمه على الحارة التي يسكنها لأنه كان أول سكانها ، وهنا بدأ يجمع بعض الشباب ممن كانوا في عمره في ذاك الوقت ، وأخذ يخرج بهم إلى العمارات ليقوموا بأعمال المحارة والكهرباء والسباكة .. وهكذا بعد أعوام قليلة أصبح مرزوق "ريس عمال" أو مقاولًاصغيرًا ..

هل كان الحظ معه.. أم أن هدوءه ووسامة ملامحه ونقاء سريرته هم سر نجاحه؟! أو ربما أمانته التي تعلمها وورثها عن والده رحمه الله.. لا يعلم لكن ما يثق فيه أنه في كل صباح كان يغادر فيه هذا البيت ، كانت سيدة تقف في الشرفة ، تدعو له وتقرأ حوله الآيات القرآنية ، وفي كل يوم كان يحصل على مقاولة ، وفي كل يوم كان يعقد صفقة صغيرة ، حتى أصبح له مجموعة من العمال في كل فرع ، بل أصبح له مهندسون يطلبونه بالاسم.

كل هذا كان بفضلها ودعائها.. كيف إذن يتركها أو يتزوج لتحضر امرأة قد تشفق عليها ، وتعاملها كمريضة ملقاة على مقعد متحرك.. أو ربما تعاملها كغريمة تشاركها قلبه وبيته.. لن يتزوج أبدًا.. ستبقى سيدة دومًا تشعر أنه رجلها وحدها ، وأنها سيدة البيت.

كانت تستحق شيئًا أفضل.. في لحظة أصبحت نصف امرأة نصفها السفلي ميت ، كأنه ما عاد منها.. كأنه فقط مربوط إلى نصفها العلوي لتجره خلفها أين تذهب.. لم يكن أبدًا يريد أن يعترف أنها أصبحت نصف امرأة.. كان يقسم لها أنها أزمة عابرة وستنقضي .. بل كان يستيقظ كل صباح ، وهو ينتظر أن يراها شفيت وتقف على قدميها من جديد..

باع كل شيء حتى سيارته القديمة التي كان يجمع فيها العاملين معه.. باع كل شيء حتى كاد يبيع هذا البيت .. لكن وحدها من وقفت في طريق عملية البيع.. أقسمت أنها ستقتل نفسها إن فعل.. مازال يذكر كيف انفجرت في وجهه ذات صباح ، وهي تصيح وتكرر أنها لن تشفى .. لكنها أيضًا لن تقتله أو تدعه يقتلهما ، ويلقي بجثتيهما إلى الشارع.

حاول كثيرًا.. بل حاول أن يسافر بها إلى فرنسا ، لكنهم رفضوا طلب التأشيرة .. كان أمله أن يأخذها إلى هناك للعلاج.. ألا يشفى الكثيرون ممن يسافرون إلى الخارج؟! كاد يبكي في السفارة ، وهو يخبرهم الحقيقة بعد أن ختموا على جوازه وجوازها بالرفض.. أخبرهم أنه سيعالجها ويعود.. أقسم أنه سيعود.. فقط يريد أن يعود وهي تمشي جواره على قدميها .. لكن ما رحموه ولا رحموا دموعها.. لكن سيدة أقسمت عليه أن يعود إلى عمله ، وأن يشتري لها مقعدًا متحركًا ، وأن يتركها وحدها في البيت تعتاد الحياة بلا ساقين ، كما اعتادت الحياة ، دون زوجها ودون أصدقائها ، يوم خرجت من الحي القديم.

نجية أطلت في تلك الأيام ، وتعهدت أن تحضر كل صباح إليهم لتبقى معها وترعاها ، وتطهو لهم طعامهم اليومي ، وتعود إلى بيتها لرعاية أبنائها بعد عودتهم من المدرسة..

نجية لم تنس كيف كانت دومًا سيدة إلى جوارها في وجه جابر ، ولم تنس أبدًا أن مرزوق هو من يوفر له العمل ويصطحبه ، كلما استطاع إلى أي مبنى يعهد إليه به.. منذ تزوجت وهو يحبها وأحبها أكثر ، عندما اعتاد طهوها وطعامها.. اعتاد حتى الطريقة التي تطوي بها جلبابه. هي أيضًا تستحق شيئًا أفضل .. لكن منحها الله وداد الجميلة ، التي أصبحت من أجمل بنات صفط اللبن وأكثرهن أدبًا وترفعًا.. كأنها نجية أخرى..

مرزوق لا يستطيع أن يقول أبدًا أن وداد هي النسخة الشابة من نجية.. هي في عينيه مازالت في عمر ابنتها.. مازالت كيوم ركضت تختبئ

خلف ظهره ، يوم هربت من جابر عندما كادت تحرق البيت..

تلك الجميلة البضة يضربها جابر!!

حقًّا جميعهم كانوا يستحقون شيئًا أفضل.. بل جابر نفسه كان يستحق شيئا أفضل مما هو عليه.. مهارته في العمل .. أمانته .. عفة نفسه ولسانه.. المسكين أصبح كمن به مس من جن منذ أزمته الجنسية.. كم يتمنى لو يخبره بها ليأخذه إلى الطبيب ، ولكن لا هو يعلم أن عماد أخبره ، ولا مرزوق يقوى على قولها.. لقد أصبح يشفق عليه كثيرًا ، حتى أنه أصبح يدعو له أحيانًا ، رغم أن شيئًا شريرًا بداخله سعيد ؛ لأنه ما أصبح يلمس نجية أو يقترب منها.

تململ مرزوق وهو يسخر من نفسه.. يغار على امرأة لم تضع عينها يومًا في عينيه .. بل إنه حتى اللحظة لا يعرف بالتحديد ما هو لون عيني نجية.. لابد أنها في لون العسل كلون عيني وداد.. كل شيء في وداد ، أخذته من أمها فلماذا إذًا لا يكون هذا لون عينيها.

أرسل الله نجية إلى صفط اللبن ، وربما زوّجها جابر ؛ لتجدها سيدة في مرضها.. الله يسخر عبيده ليكافئ من يحب.. الله يحب سيدة ، ولكن لم أرسى الله حب نجية في قلبه.. ربما ليقف إلى جوار زوجها ، ويوفر له فرص العمل.. كل منا مسخر لدوره.. يجب أن يحمد الله ويشكره ؛ لأنه أرسله لجابر كما أرسل نجية لأمه وله هو أيضًا.. ألا تعد له الطعام.. ألا تطوي جلابيبه بهذه الطريقة التي لم يرها يومًا..

خلف ظهره ، يوم هربت من جابر عندما كادت تحرق البيت..

تلك الجميلة البضة يضربها جابر!!

حقًّا جميعهم كانوا يستحقون شيئًا أفضل.. بل جابر نفسه كان يستحق شيئًا أفضل مما هو عليه.. مهارته في العمل .. أمانته .. عفة نفسه ولسانه.. المسكين أصبح كمن به مس من جن منذ أزمته الجنسية.. كم يتمنى لو يخبره بها ليأخذه إلى الطبيب ، ولكن لا هو يعلم أن عماد أخبره ، ولا مرزوق يقوى على قولها.. لقد أصبح يشفق عليه كثيرًا ، حتى أنه أصبح يدعو له أحيانًا ، رغم أن شيئًا شريرًا بداخله سعيد ؛ لأنه ما أصبح يلمس نجية أو يقترب منها.

تململ مرزوق وهو يسخر من نفسه.. يغار على امرأة لم تضع عينها يومًا في عينيه .. بل إنه حتى اللحظة لا يعرف بالتحديد ما هو لون عيني نجية.. لابد أنها في لون العسل كلون عيني وداد.. كل شيء في وداد ، أخذته من أمها فلماذا إذًا لا يكون هذا لون عينيها.

أرسل الله نجية إلى صفط اللبن ، وربما زوّجها جابر ؛ لتجدها سيدة في مرضها.. الله يسخر عبيده ليكافئ من يحب.. الله يحب سيدة ، ولكن لم أرسى الله حب نجية في قلبه.. ربما ليقف إلى جوار زوجها ، ويوفر له فرص العمل.. كل منا مسخر لدوره.. يجب أن يحمد الله ويشكره ؛ لأنه أرسله لجابر كما أرسل نجية لأمه وله هو أيضًا.. ألا تعد له الطعام.. ألا تطوي جلابيبه بهذه الطريقة التي لم يرها يومًا..

إن كان عذاب قلبه هو الثمن لعمل جابر ورفقة أمه ، فإنه ثمن يسير يجب أن يرضى به ويشكر له الله أيضًا.. سيبقى يدعو لأمه بالعمر ويدعو لجابر بالشفاء ولنجية بالسعادة.. هذا هو ما أنشأه عليه والده رحمه الله ، وهذا هو ما علمته له سيدة..

سيكافئهم الله جميعًا ؛ لأنهم حقًّا مازالوا يستحقون أشياء أخرى أفضل كثيرًا.

دخلت وداد إلى مكتب تهاني في فرحة كبرى .. إنه اليوم الأخير في العام الدراسي.. لقد انتهت من اختبارات الشهادة الإعدادية ، ولا تكاد تذكر سؤالا لم تكن إجابته كاملة.. تهاني وعدتها أن تمنحها مجموعة من الكتب لتقرأها في إجازة الصيف.. بل أخبرتها أيضًا أن بإمكانها أن تعود متى انتهت من قراءتها إلى المدرسة ، لتعيدها وستحضر لها غيرها.

وداد سعيدة بانتهاء الاختبارات .. في العام المقبل ستصبح تلميذة في المرحلة الثانوية.. تهاني ليست في المكتب ، ولكن مازال بإمكانها الجلوس وانتظارها.. لا أحد في مدرسة طه حسين يعترض على دخولها أو جلوسها في مكتب تهاني..

جلست على الأريكة الموجودة بجوار باب الغرفة ، وتنهدت في سعادة.. السعادة طريقها سهل.. الاستذكار والقراءة.. في الدراسة والتفوق تشعر أنك شيء آخر.. شيء أفضل وأجمل.. وبعينيها العسليتين المشروطتين رمقت

ذاك الثقب الصغير الموجود في زيها المدرسي.. لأنها متفوقة .. لأنها دومًا ناجحة لا أحد يسخر من هذا الثقب ، الذي اهترأ من كثرة مرور الخيط والإبرة عليه .. ولأنها تعلم أنها متفوقة لم تشعر يومًا بالخجل منه.. وداد تشعر دومًا ألا شيء يعيبها.. هي فوق العيوب ، ما بقيت الأولى على فصلها وعلى مدرستها، وربما على محافظة الجيزة بأكملها.. العلم داوى عيوبها..

حبيبتها أبلة تهاني.. هذه الكتب الكثيرة التي تمنحها لها.. في الكتب وفي القراءة ، تعلمت أن تسافر وأن تحيا في قصور ، وأن تأكل وجبات وأطعمة لا أحد في صفط اللبن بأكملها يعرف اسمها.. الكتب والروايات التي تمنحها لها تهاني جعلتها تعرف ، بأعوامها الستة عشرة ، كل ما يدور حولها ..

وداد تدرك جيدًا المشكلة التي يعانيها والدها.. مشكلته ليست مرضه وعجزه عن أن يكون رجلًا ، ولكن مشكلته الحقيقية أنه بلا علم.. لو كان لأصبح عجزه عن مضاجعة أمها تمامًا كهذا الثقب الصغير في ملابسها.. يزعج لكنه لا يقتل.. يؤلم لكنه لا يمنعها عن الخروج والحضور إلى المدرسة، واجتياز الاختبارات بهذا التفوق.

لأن جابر حبيبها جاهل فهو حتى لا يعلم كيف يداوي مصابه.. إنه يطرق أبوابًا كثيرة لكن جميعها خاطئة.. ولأن نجية هي الأخرى مثله فهي ترفض أن تستمع لنصائح وداد ، بل ترفض حتى أن تدعها تخبرها أنها تعلم ، وتسمع تفاصيل كل شيء.. نجية تعلم أن ولداها يعلمان كل شيء.. لكن ترفض أن تعترف بوجود شيء.. هذه النعامة الحمقاء ، هي أمها التي تحبها ، والتي لو نالت قسطًا من التعليم أو عرفت كيف تقرأ الكتب ، لعرفت كيف

تساعد زوجها ، وكيف تناقش وداد ، وكيف تعترف بكل ما يدور في بيتهم كل ليلة..

محمود المسكين سيصبح جابر آخر.. لقد حاولت معه لكنه أرعن.. سيكون صيفًا مشتعلاً هذا العام.. هو بالقطع لن ينجح .. لم تره وداد مرة يذاكر ، وإن فعل تحت تهديدات جابر ودموع نجية ، فهو لا يفقه حرفًا مما في الكتب .. لقد رأته يمسك الكتاب مقلوبا في أكثر من مرة ونجية أمامه..

لو كانت أمها تقرأ وتكتب لعلمت .. ولو كان شقيقها يبصر ويفهم أهمية العلم والتعليم ، لما تعثر حتى نال الإعدادية حتى الآن ، وما كان مصيره الدبلوم الذي تشك في حصوله عليه .. إنه يظن أن العمل والنقود هما الخلاص.. كم مرة أخبرته أن العمل والنقود يطرقان بابك إن كنت متعلمًا قارئًا .. كل الأطباء يعملون.. كل المهندسون يعملون.. وحده جابر مضى عليه شهر دون عمل.. لم يأخذ عم مرزوق مقاولة ما منذ شهر يحتاج فيها "مبيض محارة".

ستحصل على أعلى الشهادات ، وستبقى تقرأ الروايات وكتب الدين والفلسفة وكل ما تفهمه وتستطيع قراءته.. ويومًا ستنتشلهم جميعًا من فقرهم، من جهلهم .. ومن ألمهم ، وتثبت لهم أنهم لو يومًا تعلموا .. لو يومًا قرءوا ما مرض جابر ولا شقيت نجية ولا ضاع محمود..

تنبهت على صوت تهاني يقول في فرح:

- نقول مبروك.. نقول الأولى؟!

أومأت وداد برأسها في فرح وتصميم.. حتى أبلة تهاني ستكافئها يومًا على كل ما تفعله من أجلها..

نهضت عن مكانها لتضمها تهاني في فرحة كبرى.. هي تحبها كثيرًا ، وكثيرًا ما تمنت لو كان بإمكانها أن تساعدها ماديًّا .. لكن تهاني بالكاد تنفق كل راتبها وراتب زوجها على بيتهم وطفلتهم الوحيدة وشراء الكتب..

ضمتها تهاني إلى صدرها ، وعادت تقول:

- جبتلك خمس كتب خلصيهم وحاجيبلك غيرهم..أنا لسه يا وداد أجازتي كمان شهر.. تعالي يا حبيبتي!!

كانت الطرقات صاخبة وعنيفة على باب البيت ، وصاحت نجية تنهر من يطرق الباب بهذا الجنون.. وداد ومحمود نائمان ، وجابر كعادته منذ شهور غارق في ذهوله وعزلته، والتقطت نجية طرحة رأسها ؛ لتضعها وتفتح الباب ، حيث وجدت عبير جارتها ، وهي تصيح:

- نتيجة الإعدادية ظهرت.. الواد محمد بيشوفها على النت بتلاتة جنيه.. خدي رقم الجلوس وروحي.. رشا نجحت نجحت يا أم محمود.

كانت عبير تتحدث ، وهي تطلق زغاريد كثيرة ، وهنأتها نجية ودعتها إلى الدخول .. لكن عبير رفضت ، وهي تخبرها أنها يجب أن تعود لتوقظ رشا وتخبرها..

عندما أغلقت نجية الباب وخلعت طرحتها في هدوء ، عادت تدخل

غرفتها لتقف أمام جابر ، الذي كان مستلقيًا في فراشهما مفتوح العينين ، وبعد لحظات من الصمت ، قالت في غيظ مكتوم:

-سمعت؟!

واستدار جابر ، ينظر إليها بطرف عينيه ، قائلًا:

- سمعت إيه؟!

جن جنونها في لحظة إن لم يسمع الطرقات ، الصيحات والزغاريد ، فكيف لم يسمع قلبه أن نتيجة ابنته التي يحبها ظهرت .. وكل ما يفصلهم عنها هو ثلاثة جنيهات .. هذا الرجل لا يملك ثلاثة جنيهات.

أسبوع لم يخرج فيه من البيت.. أسبوع وهي تصرخ وترجوه وتخبره أن ما منحها من نقود كاد ينتهي.. بالأمس أخبرته أن مرزوق طلب منها أن ترسله إليه ؛ لأنه إن لم يحضر سيضطر لتوظيف غيره.. لكنه أيضًا رفض..

انفجرت كأنها لغم طال انتظاره تحت الأتربة.. انفجرت تصرخ وتهذي ، وهو يرقبها في صمت ، وانحنت عليه تصيح:

- حرام عليك.. ولادك ما أكلوش امبارح غير شوية عدس.. يا راجل أعمل إيه.. أعمل إيه.. مش دي بنتك.. مش دي وداد .. ما اعرفش أجيب نتيجتها يا جابر.. تلاتة جنيه.. طب محمود عارفين إنه ساقط ، واستنينا لما عرفنا من المدرسة.. لكن وداد.. ياراجل.. يا رااااجل!!

وفي سكون ، عاد جابر يقول:

- أكيد نجحت فيه إيه؟! الناس اللي تطّلع نتيجة ولادها هُمَّا اللي خايفين يكونوا ..

وقاطعته:

- لغاية امتى؟! لغاية امتى يا جابر ، حتفضل مرمي على السرير طب حتى قوم.. قوم الحق مرزوق اللي عطلته شغله ، قبل ما يجيب غيرك مش حيصبر عليك زيي.. حرام عليك..

انتفضت وهي تسمع صوت صفق الباب ؛ لتركض إلى غرفة أبنائها ، وعادت تصيح:

- عاجبك؟! أهو محمود قام من السرير خرج.. يا راجل حس على دمك..

وعادت تحمل طرحة رأسها حيث أمسك بيدها ، بعد أن نهض عن فراشه ، يسألها أين تذهب ، واستدارت تنظر في عينيه من خلف دموعها ، وقالت ، وهي تبكي في مرارة :

- أشوف محمود وأروح للست أم مرزوق.. النهاردة حاشحت منها شوية بطاطس ولا حتتين لحمة عشان تاكلهم إنت وعيالك..

عندما صفقت هي الأخرى الباب خلفها ، وهي تصيح باسم محمود ، دق جابر رأسه في الباب.. ليته يموت.. ليته لم يتزوج أو ينجب.. لماذا يتزوج الفقير؟! ليصبح ذليلًا ولينجب أذلاء.. ليته لم يتزوج.. لو لم يفعل لأصبح بإمكانه أن يعالج نفسه من السحر الذي أصابه.. بل ربما لو لم يتزوج ما

كان سيصبح مسحورًا أو بحاجة إلى العلاج.. يريد أن يستعيد فحولته حتى لا يشعر أنه مكسور أمام زوجته.. هو يعلم أنها لا تهتم ، لكن هو أيضًا يعلم أنها يومًا ستفعل يومًا ستصرخ.. يومًا ستفعل وتهزأ منه.. بل لقد أصبح صوتها أكثر علوًا وأصبحت نظراتها أكثر جرأة.. ولكن ربما كانت أكثر حدة وجنونًا عليه من أجل أطفالهما.. نجية يصيبها الجنون إن شعرت أن أحدهم يحلم بشيء ، وهي لا تستطيع تحقيقه ، كيف وهي تراهم شبه جياع.. ولكن هل يجب أن يكون هو وحده من يحقق ويلبي مطالبهم.. نعم كل الرجال تفعل!!

وعاد يلطم رأسه في الحائط بقسوة.. الرجال تفعل.. هو لم يعد رجلًا..

شعر جابر بالألم يدق رأسه ودخل ، كأنه يزحف إلى غرفته .. سيرتدي ملابسه.. سيذهب إلى مرزوق ويذهب معه إلى العمل.. سيقف على لوح البلطي ، ويمسك بخليط الأسمنت بين يديه ، ويرشقه على حوائط العمارات والفيلات ، وسيعود في المساء إلى نجية بالجنيهات التي تريدها .. لكنه قريبًا سيعود رجلًا.. سيجد طريقة يوقف بها ما نام من جسده ليرفع رأسه ويفتح عينيه في عيني امرأته من جديد..

النساء لا يخرسها إلا النقود والجنس.. ربما كانت نجية على حق.. جابر لا يملك أيًا منهما!!

صاح جابر ، وهو يرى مرزوق يتحرك بسيارته التي ملأها بالعمال ، مشيرًا له أن يتوقف، عندما عاد الأخير بسيارته إلى الخلف قليلًا .. هبط العامل الذي كان يجلس في المقعد الأمامي.. هم جميعًا يعلمون أنه في حالة وجود جابر ، فوحده يجلس إلى جوار الريس مرزوق ، ودخل مدليًا رأسه في صمت ، وهو يتمتم بكلمات اعتذار كثيرة عن عدم حضوره ، طوال الأسبوع الماضي ، رغم علمه أن المبنى الذي يعمل فيه في مراحله الأخيرة ، وأن غيابه قد يتسبب في مشكلات كثيرة لمرزوق.. كان يتحدث ويبرر غيابه بمرضه ومرض وداد ، وكان يدرك أن مرزوق يعلم أنه يكذب.. مرزوق لم يقل كلمة واحدة ، وجابر شعر أن كلماته لا معنى لها ، فأدار وجهه ينظر من نافذة السيارة في صمت.

بعد أكثر من ساعة ، وصلت السيارة إلى موقع العمل .. وعندما هم جابر بالنزول ، وضع مرزوق كفه على كتفه يستبقيه.. وبعد أن هبط كل من في السيارة ، قال:

- تشطيبات الواجهة كانت لازم تخلص من أيام.. المهندس حلف إنك ما تكمل معانا ، وطلب مني أشوف حد غيرك.. ليه يا جابر تجيبلي الكلام ، وتخليني أقف أترجى الناس عشانك؟! أبأى أنا عامل حساب العشرة .. وإنت لأ..

نظر جابر إلى وجهه في ألم.. ليته لم يحضر.. الجميع يلومه.. إنه يختنق .. لم يعد يريد أن يعمل.. لم يرد أي شيء ، سوى أن يجلس في فراشه يحملق في سقف غرفته المهترئ .. وتململ مرزوق في مقعده ، كأنه

قرر أن يقول ما يخفيه في صدره .. يجب أن يقول.. نعم!! حق جابر ونجية ووداد ، التي ولدت بين كفيه أن يفعل ، وشحذ نفسًا عميقًا من صدره ، وعاد يقول:

- جابر.. إحنا أهل.. أم محمود شايلة أمي وبتراعيها .. لولاها ما كنتش أنزل وأغيب طول النهار ، وأنا مطمن على أمي.. قدامك قد إيه في الواجهة وتخلصها.. يومين تلاتة.. تعال على نفسك ، وبعد ما تخلص أنا حاروح معاك للدكتور.. أنا سألت وجبت اسم دكتور كبير.. حاروح معاك .. بلاش تمشي ورا كلام عماد والسحر والعطارين.. الطب فيه الدوا..

اتسعت عينا جابر في ألم كأن مارد الجن ألقى به على سيارة من البنزين المشتعل.. نجية أخبرته أو أخبرت أمه.. فضحته.. نعم.. وحدها فعلتها.. هو لم يخبر أحدًا سوى عماد.. عماد تربى على يديه.. وحده صندوق أسراره .. عماد يستحيل ان ينطق حرفًا.. وحدها فعلتها!!

وعاد مرزوق يمسك بيديه ، بعد أن شعر بما أصابه ، في حزم يقسم عليه ألا يغضب .. لكن جابر ما هدأت عيناه وما نطق حرفًا.. وفي صوت خفيض.. قال مرزوق:

- ياه.. هو أنا مش أخوك.. هو أنا لو عندي مشكلة ، ماتقفش جنبي .. ما تساعدنيش يا جابر..

مشكلة؟! هل يعلم عن أي شيء يتحدث.. هل عاش شهورًا وجزء من جسده ميت ، كأنه يغفو في قبر بعيد.. وابتسم جابر في سخرية.. من يدري

ربما كان مرزوق يعلم فعلًا.. ربما لهذا لم يتزوج.. هذا الحنان والألم الذي يتحدث به ، يقول إنه هو الآخر ليس رجلًا ، ولكن لا أحد يفضحه.. لا أحد يجعل منه أضحوكة يشفق عليها الآخرون.. ترى من أيضًا أخبرته نجية سواه هو وأمه.. الدنيئة تفعل كل هذا من أجل النقود.. من أجل قطع البطاطس واللحم تنهش لحمه ورجولته..

وفي غضب وبابتسامة ساخرة ، سحب كفه من تحت يد مرزوق ، وقال في صوت ثائر .. لكنه خفيض:

- أنا زي الجنيه الدهب.. نجية عيانة وعندها مشكلة ، وأنا حاخلص الواجهة واسلمها لك وأعالجها..

عندما صفق باب السيارة خلفه في غضب ، ومضى إلى موقع العمل ، صاح ينادي عماد عامله ، الذي يخلط له الأسمنت ، قائلًا:

- واد يا عماد.. خلط المونة.. حاغير هدومي واطلع عالسقالة!!

هل قست عليه.. هل كان من الأفضل أن تتركه على فراشه ، ولكن إلى متى؟! أكثر من ستة أشهر وهي تعاني.. أكثر من ستة أشهر ، ونجية تشعر أنها تسرق من زوجها النقود وتغتصبها ، وفي كل مرة يضع في يدها الجنيهات ، تشعر أنه يتمنى ألا يفعل.. ألا يملّ؟! ألا يكتفي؟! ما ترك شيئًا إلا واشتراه.. تبع عماد صبيه الأحمق إلى السحرة والدجالين.. أرغمها على

شرب سوائل حمراء وصفراء ، زاعمًا أن السحر طالها هي الأخرى .. أكثر من سبعة عشر عامًا من الجنس ، لم تكفه.. لماذا يصر عليه؟! لأنه رجل ولكن من قال إن نجية هي الأخرى لم تشتق إليه .. لكنها ترى أرغفة الخبز وقطع الجبن وحبات الطماطم حقًّا أهم من تلك الدقائق ، التي يبحث عنها جابر في جنون.. طار عقل الرجل وطارت الرحمة من قلبه عليها وعلى أبنائه.

وعادت تنفض وسائد فراش مرزوق ، وهي تهز رأسها في ألم وحسرة.. أليس مرزوق رجلًا، بل هو سيد الرجال جميعًا ، وها هو يحيا بلا جنس.. لم يتزوج رغم أنه تعدى سن الأربعين.. هي تعلم أنه يصلي ويصوم ويقرأ القرآن.. المصحف الذي بجوار فراشه في كل يوم تجد شاهده في صفحة غير الأخرى .. مرزوق لا يرتكب الحرام ، وليست لديه زوجة.. إذًا هو لا يمارس الملعون المسمى بالجنس ، ورغم هذا هو مازال في كامل عقله .. مازال هادئًا رصينًا يعمل ويكسب النقود ، ويقبل يد أمه ورأسها ويدعو لها بالعمر الطويل .. لم تشعر لحظة أنه يتمنى موتها بل تشعر أنه يريدها دومًا سيدة البيت.. جابر مارس الجنس ، وأنجب طفلين .. ألا يرى نفسه أفضل حالًا من مرزوق ، الذي لم يلمس امرأة قط ، ورغم هذا هو على عقله باق.. ربما كان الفرق أن مرزوق يعلم إن بإمكانه أن يفعل متى شاء.. ربما ما يقتل جابر أنه أصبح يعلم أنه وإن شاء ألف مرة ، فهو لا يستطيع..

العجز.. العجز يا نجية قاتل.. تمامًا كما وقفت عاجزة أمام عبير.. عاجزة لا تستطيع أن تذهب مثلها لمعرفة نتيجة ابنتها من المقهى القريب بمبلغ ثلاثة جنيهات.. عاجزة حتى عن الإصرار على إدخال عبير بيتها.. لا

شيء فيه تقدمه لها.. حبيبات الشاي القليلة الباقية بالكاد تكفيهم اليوم.. العجز مرير.. ما كان يجب أن تقسو عليه بكلماتها ، ولكن خشيت أن يستعين مرزوق بغيره .. لقد أخبرها بالأمس إنه إن لم يعد إلى العمل سيفعل.. خذلها جابر.. لم يذهب إلى العمل.. تركها تخرج وتبحث عن محمود الذي لم تجده.. وتوجهت إلى صالة البيت.. اليوم لا توجد ملابس تضعها في غسالة البيت، وتنهدت في ألم.. مراقبة الغسالة والنظر إليها هي الشيء الوحيد الذي يسعدها ، ولكن حتى هذا لن تفعله اليوم..

وابتسمت أم مرزوق في وجهها ، وهي تراها تطل عليها في حنان ، قائلة:

- فكيها.. أنا حاخلي مرزوق يروحلو البيت النهاردة .. سيبها على الله يا بنتي..

قبل أن تفتح نجية فمها بكلمة ، علت صوت طرقات خفيفة على باب البيت ؛ لتذهب إلى الباب حيث فتحته ، ووجدت أمامها وداد وصاحت:

- فيه إيه يا وداد؟!

صاحت أم مرزوق تناديها في لهفة كبيرة ، لتدخل وترمي بنفسها بين ذراعيها قائلة:

- محمود جابلي النتيجة.. الأولى على المحافظة يا أمي..

وأطلقت أم مرزوق زغرودة ، وهي تضم وداد إلى صدرها ، وسقطت دموع نجية في فرحة لكن في صدرها كان شيء كالألم.. من أين حصل

محمود على النقود.. من أين جاء بالجنيهات الثلاث؟!

ورأت نجية أم مرزوق تخرج محفظة صغيرة من صدرها ، أخرجت منها ورقة من فئة الخمسين جنيها ، وضعتها في كف وداد ، قائلة:

- حلاوة نجاحك.. الله يفرحك زي ما بتفرحينا.

وعادت وداد تقول:

- حياخدونا نروح نسلم على الوزير يا أمي..

انحنت نجية تقبل رأس أم مرزوق ، وغابت تبدل ملابسها ؛ لتخرج مع وداد إلى بيتها.

ستشتري بالخمسين جنيها نصف كيلو "لحمة راس" التي يحبها جابر.. ستطهو له طعامًا شهيًا وستعتذر له عن قسوتها هذا الصباح.. ستحاول أن تسعده .. وفي المساء عند زيارة مرزوق لهم ستترك له أمر العمل.

نجية تشعر بالسعادة لنجاح وداد وتفوقها.. لن تترك جابر حزينًا.. ستعتذر له.. اليوم يوم غير كل الأيام .. ابنتها ستدخل ثانوي عام.. وأيضًا هي الأولى على محافظة الجيزة بأكملها.. وداد ستلتقي الوزير!

* * *

لا شيء يسعد قلبها حقًّا سوى أن تشتم رائحة الطهو في بيتها .. إنها طاهية ماهرة.. اليوم طهت قطع لحم الرأس ، التي اشترتها بسعادة كبيرة..

جابر خرج.. غادر فراشه وذهب إلى مرزوق.. ربما أفاقته كلماتها ، ولكن رغم هذا ستعتذر له عند عودته.. إنه يعشق صحن الفتة الذي تعده.. اليوم سيكون أسعد أيام هذا العام..

وداد حبيبة جابر ستلتقي بالوزير.. ستصافح الوزير وتلتقط معه صورة.. ابنتهما الصغيرة ستدخل الثانوي العام في العام القادم ، وسيتناولون جميعًا الفتة ولحمة الرأس.. لماذا تأخر.. لقد أظلمت السماء وجاءها صوت محمود من داخل الغرفة يسألها:

- يا أمي مش قادر.. عايز آكل.. ريحة اللحمة يا نجية..

وابتسمت وهي ترمق وداد بعينيها في سعادة كبيرة ، فليسعدها الله كما أسعدتهم بنجاحها وأيضًا أطعمتهم.. وداد كعادتها تقرأ.. ليت نجية كانت تعرف القراءة لعرفت ماذا تقرأ، وعاد محمود يصيح مطالبًا بالطعام .. نجية مازالت تفكر لماذا تأخر جابر.. ربما ذهب لشراء بعض الاشياء بنقود اليومية.. هو يعلم أن البيت خاو.. هل يغضب عندما يدخل البيت ، ويشم رائحة الطعام.. سيظنها أخذت اللحم من أم مرزوق .. لكنها ستخبره أنها لم تفعل.. أم مرزوق منحت وداد هدية نجاحها.. أم مرزوق هي أم جابر وأم نجية ، ولا يستطيع أحد أن يرفض هدية أم.. إنها هدية.. وليست حسنة.

وانتفضت وداد في ذعر ، وهي تسمع طرقات عنيفة على باب البيت ليهرع الجميع إليه ، وتقدمتهم نجية ، وهي تصيح وتسأل من الأحمق الذي يطرق الباب بهذا الجنون .. عماد كان يقف على الباب ، لكنه كان يبكي في ذعر ونظرت إليه ، ومحمود يسأله عن جابر وعن سبب حضوره إليهم ، وهو

الذي تمر شهور دون أن يفعلها، ووقف عماد يبكي قائلًا:

- الريس مرزوق هو اللي بعتني يا أم محمود..

التقطت نجية أنفاسها.. ربما أرسله لاستدعاء جابر.. هو إذًا لم يخرج للعمل هذا الصباح.. وعادت نجية تسأله:

- هو جابر ما راحش الشغل النهاردة..

وبكى عماد أكثر ، وهو يقول:

- الأسطى جابر وقع من عالسقالة..

ضمت وداد الكتاب الذي كان في يدها إلى صدرها وهي تشهق ، ولطمت نجية على وجهها وهي تصيح ، وتسأل عماد عما حدث له ، وإلى أي مستشفى تم نقله .. لكن عماد بعد تردد قصير ، وبعد صيحات محمود الهادرة في وجهه نكس رأسه قائلًا:

- الريس مرزوق في النيابة ، والأسطى جابر في المشرحة!!

أكثر من ساعة مرت ، ونجية تجلس على رصيف الشارع أمام مشرحة دار السلام ، ورأسها ملقى بين كفيها ، وهي تنتحب في سكون.. رفضوا إدخالها إلى المشرحة.. وداد رفضت أن تجلس على الرصيف ، وبقيت واقفة مستندة إلى إحدى السيارات ، المصطفة على جوانب شارع المشرحة

الضيق.. عماد ومحمود ذهبا إلى مقر النيابة ، حيث مازال مرزوق هناك يدلي بأقواله في سقوط جابر من على السقالة..

مازالت نجية لا تفهم.. جابر في المشرحة.. يمزقون الآن جثته ، ويبحثون فيها عن سبب وفاته.. هي التي قتلته.. هي التي دفعته إلى الخروج.. مازالت تذكر كيف كانت تصرخ في وجهه بكلمة "ياراااجل".. وعادت تلطم وجهها ورأسها وتنتحب.. قتلت زوجها ويتمت أطفالها.. وأسرعت وداد نحوها تنحني عليها ، وهي تبكي في جنون ، ترجوها أن تتوقف عن البكاء، ورفعت وجهها الغارق في الدموع .. ماذا فعلت بابنتها.. حرمتها من والدها وحرمته من حبة قلبه.. كان يحب وداد كثيرًا..

وصاحت نجية في ألم ، وهي تمد كفها إلى ملابسها تكاد تمزقها عنها.. صاحت تقول "آه".. جابر مات دون حتى أن يعلم أن وداد نجحت ، وأنها الأولى على محافظة الجيزة بأكملها ، وأمسكت وداد بكفي أمها بين أصابعها .. لن تدعها أبدًا تمزق ثيابها في الشارع ، وأخذت تردد من خلف دموعها :

- حرام عليك.. حرام عليك يا أمي..

في الشارع ذاته ، وعلى باب المشرحة الخلفي ، كان هناك عشرات الرجال والنساء من صفط اللبن ، الذين وقفوا حول نجية وابنتها ، وعشرات آخرون ذهبوا مع محمود وعماد إلى مبنى النيابة لمتابعة مرزوق.. هم جميعًا يقفون في الشارع ، وهم جميعًا منعوهم من الدخول ، حتى نجية وابنتها منعوهما من الدخول إلى جثة رجلهم.. أخبروهم أن ينتظروا حتى ينتهي

تقرير الطبيب الشرعي ، وحتى تصدر النيابة قرارًا بالدفن وتسلمهم الجثة..

جابر أصبح جثة.. وحدها نجية ذبحته..

ساعات مرت قبل أن تظهر سيارة مرزوق ، التي كانت تقله هو وعماد ومحمود ، وبعض رجال صفط اللبن ، وهبط منها الجميع ، ورمق مرزوق نجية بعينيه ، وهي تلطم وتنتحب في ألم ، وتقدم نحوها يقدم تعازيه قائلًا:

- سامحيني يا أم محمود.. سامحيني.. البقاء لله.. قومي.. إحنا جبنا تصريح الدفن يا نجية..

حتى خميس كان معهم وحولهم.. كان يضع يده في جيبه ، ويخرج منها نقودًا كثيرة ، يحاول أن يمنحها لمرزوق أو نجية .. لكن رغم الحزن والفجيعة لم يبتسم له أحد ولم يشكره أحد ، ولم يقبل أحد منه قرشًا واحدًا.. وحده محمود كان ينظر إلى مرزوق ونجية في ألم وحزن ، ويلتصق بخميس في كل خطوة يخطوها!

هل حقًّا هو من قتل جابر؟! وهل هو قتل خطأ ، أم أنه قتل مع سبق الإصرار والترصد؟! لقد ذهب إلى الأزهر ، وسأل الشيوخ والعلماء .. أخبرهم بكل ما حدث .. بكل كلمة سكبها في أذني جابر ذاك الصباح، قبل أن يصعد إلى السقالة.. أخبرهم أن عماد أخبره كيف كان يقف على السقالة ودمعاته تسقط على وجنتيه.. كلمات مرزوق أبكته.. جعلته يعمل ، وهو لا يرى

موضع قدميه ، فاختل توازنه وسقط.. سقط عندما كان مرزوق يهم بركوب سيارته ليذهب لشراء ما يلزم من المواد الناقصة.. سقط جابر تحت قدميه كأنه يخبره أنه هو من قتله..

شيخ الأزهر أخبره أنه العمر وأنه لكل أجل كتاب.. أخبره أن نيته كانت سليمة وأنه أراد إصلاحه ومساعدته، وقال له إن رجالًا كثيرين معظمهم من الشباب أصبحوا يشكون من العجز الجنسي.. على أرض مصر تلوث وأطعمة فاسدة وسجائر ملوثة، أخبره أن هذه القضية أصبحت وراء قصص طلاق وخيانة لا حصر لها.. أخبره أنه بريء من دم جابر .. لكن مرزوق مازال لا ينسى كيف كان جابر يرتعش ، وهو يخبره أنه كالجنيه الذهب.. نعم كان كالجنيه الذهب .. لكنه ما عاد ولا أصبح شيئًا.. ليته لم يقل له ما قال.. ليته انتظر حتى ينتهي من عمله ، ولكن ما كان يعلم أنه سيراه.. جابر وبقية العمال عادة ما يعودون وحدهم إلى منازلهم .. لكن جابر كان سينتظره.. انقطاعه عن العمل أسبوعًا كان سيجعله ينتظر ليأخذ يوميته أو جزءًا منها.. لم يفكر في هذا أبدًا..

عاد مرزوق يستغفر الله.. إنه القدر .. هو عمر جابر.. كل ما يستطيع أن يفعله الآن هو الاهتمام بنجية وأبنائها.. مسكينة مازالت في ذهولها .. مازالت أنهار دموعها لا تقف .. ورغم هذا وفي اليوم الثالث للوفاة ، حضرت إلى أمه في الصباح كعادتها.. أعادها إلى بيتها وأبنائها ، وهو يخبرها أنه لن يعود إلى عمله قبل أسبوع ، وأنه وحده سيهتم بأمر البيت وشئون أمه ، كما يجب هي أن تكون في بيتها.. عادت نجية بعد أن وضع في يدها بعض

النقود .. حاولت حتى أن ترفضهم.. نجية كالمذهولة .. ولكنه لن يتركها.

لقد ذهب بالأمس إلى مدرسة وداد ؛ ليقوم بنقل ملفها إلى المرحلة الثانوية لقد رحبت به وكيلة المدرسة ، وأخبرته أنها حزينة من أجل وداد .. حزينة لأنها حتى لم تذهب للقاء الوزير ، وأخبرته أيضًا أنها يجب أن تذهب إلى مدرسة من المدارس الجيدة ، التي بها هيئة تدريس قوية.. وداد لا تملك ثمن دروس خصوصية أو حتى مجاميع.. المدارس الثانوية الموجودة في صفط اللبن جميعها مهترئة ، والفتاة لن تستطيع أن تكتفي بما يقدمه معلموها.. لقد رشحت له مدرسة في الجيزة ، هي أقرب ما يمكن إلى صفط اللبن .. لكن هذا معناه مزيد من الأعباء على نجية.. وهذا معناه أنه يجب أن يقنعها بأن تخرج وداد كل صباح في وسائل المواصلات وتعود بها..

سيفعل مرزوق ويتحمل كل المصاريف.. لن يترك وداد أبدًا ولن يتخلى عنها.. محمود أيضًا سيفيقه مرزوق مع عودة العام الدراسي.. مرزوق سيتابعه، وإن احتاج إلى مجموعات أو دروس خصوصية سيدفع له تكاليفها ، ولكن كيف يفعل كل هذا.. قد يظن الناس أنه يفعل طمعًا في نجية أو ابنتها.. نجية نفسها لن تقبل ذلك .. ولكن لا حل آخر أمامه أو أمامها .. وأرخى رأسه في حيرة ، وهو ينفض فكرة دقت رأسه.. نعم هناك حل.. هناك حل واحد لكل هذه الأزمات.. مرزوق يتزوج نجية.. سيصبح مسئولًا عنها ، وعن أبنائها ، ولن يمسهم أحد بكلمة أو تعليق أو شك ، ولكن هل هو حقًّا يريد الزواج بها ليكفر عن ذنبه أم لأنه يحبها.

ما الفارق؟! وما الخطأ.. نعم يحبها ونعم يريدها ، ولم يختر أن يحدث

كل ما حدث.. ربما هي الأقدار التي أرادت ورسمت كل شيء.. ما الذي حدث يا رجل؟ أما كنت ترفض الزواج من أجل أمك المشلولة.. أما كنت ترفض أن تدخل امرأة البيت خوفًا من أن تسيء معاملتها.. نعم هي الحقيقة.. نجية وحدها إن دخلت ، بقيت أمه سيدة البيت.. يعرف كم تحب أمه وأيضًا كم أمه تحبها ، لكنه أيضًا يعلم أن أمه ستقيم الدنيا ولا تقعدها.. سيدة لن تقبل أن يتزوج من امرأة لا رحم لها.. امرأة لها فتاة شابة وابن شاب ، يتذمر منه سكان الحي.. سيقتل سيدة ويمزقها أن تعلم أن وحيدها يريد الزواج من نجية.. لو اخبرها أنه يفعل شفقة منه ستحزن ، وإن أخبرها أنه يفعلها حبًّا ستموت أكثر.

ما الذي يجب أن يفعله.. بمن يستعين.. من يسأل وإلى من يتحدث؟!

إنه عاجز.. عاجز عن كل شيء إلا التفكير في نجية وأبنائها.. هل يسأل نجية.. ربما رفضت ، ولكن ربما قبلت.. نعم قد تقبل الزواج منه.. هل يسأل أمه أولًا.. لكنها قد تكره نجية ، حتى إن وعدها بأن ينسى قصة الزواج..

أغمض عينيه في ألم.. يا رب السماء.. يا عالم النوايا أنر له الطريق.. إنه لا يريد سوى الخير لها ولأبنائها ، وأيضًا لروح جابر، وأيضًا لقلبه الذي سكنته منذ ذاك اليوم ، الذي طرقت فيه الباب لتحتمي به من لطمات زوجها.. اليوم الذي كانت تحمل فيه وداد بين أحشائها.. منذ ذاك اليوم ، ومرزوق بقي يحملها في قلبه وعروقه!

ألقت وداد بنفسها بين ذراعي رشا ، عندما فتحت لها الباب وانخرطت في بكاء عنيف .. لقد خرجت من البيت منذ أكثر من ساعة ، جابت فيها شوارع وأزقة صفط اللبن جميعها على قدميها.. إنها تختنق .. تركت أمها وحدها في البيت وخرجت.. لم تعد أبدًا تحتمل هذا الصراخ اليومي بين نجية ومحمود.. لم تعد تحتمل أبدًا أن ترى أمها تبكي وتلطم خدودها كل ساعة..

أربعون يومًا منذ رحيل جابر ، وعيون نجية لم تجف.. محمود يرفض أن يعود إلى المدرسة ، ويرفض تمامًا أن يعمل مع الريس مرزوق .. أقسم بالله أن يخرج ولا يعود إن أرغموه على هذا.. إنه يكره رائحة الأسمنت ، بل يكره رائحة المعمار ، وكل ما له صلة به.. محمود يكره أن يقف كما وقف أبوه ، وسقط من على قطعة خشب جثة هامدة.. أعلن أنه لن يعمل أبدًا عند مرزوق ، كما كان والده يفعل.. نجية تصرخ وتبكي وتلطم خدودها إلا خميس.. لكنه يصرخ ويبكي ، وهو يؤكد أنه لن يعمل إلا مع خميس.

تعبت وداد.. تعبت وهي تحاول مع محمود ، وتعبت أكثر ، وهي تحاول مع أمها.. لماذا مات جابر؟! أما كان الفقر وحده يكفي؟! إن كان قدر هذه الأسرة الصغيرة هو الشقاء ، فلماذا يجب أيضًا أن يكون قدرها الشقاء والضياع.. نجية لن تقوى وحدها على محمود.. رغم كل شيء كان يخاف جابر.. كان ينتفض أمامه ويذعن لأوامره .. لكنه أصبح الآن كالثور الهائج أمام نجية.. إن صرخت صرخ أكثر ، وإن بكت تهدد وتوعد.. ورغم هذا يعود دومًا ليضع بين يديها ما يمنحه إياه خميس ؛ لتصرخ أكثر وتبكي أكثر ويشتعل البيت ، بل وتشتعل الحياة بأكملها في عيني وداد أكثر وأكثر..

شهور ويجب أن تعود إلى المدرسة.. من أين ستأتي نجية بثمن حتى الكراريس وأقلام الرصاص.. من أين ستدفع لها أجرة المواصلات.. العم مرزوق لن يبقى ينفق عليها ، بل لقد أقسمت بالأمس أنها أبدًا لن تمد يدها إليه من جديد .. كفاه ما دفع وأنفق.. وحده تكفل بمصاريف الدفن .. ووحده قام بنقل ملف وداد إلى المرحلة الثانوية.. مرزوق يجب أن يتوقف.

رشا كانت تستمع إليها في حزن ، وهي تربت على فخذها في حنان.

وأطلت عبير ، وهي تحمل في يدها صحنًا تقدمت به نحو وداد ، وهي تبتسم وتدعوها لتذوق الكشري الذي أعدته ، وابتسمت وداد في مرارة تخبرها أنها انتهت لتوها من طعام الغداء، لكن عبير أقسمت عليها أن تأكل وتتذوق..

لم تكن عبير تفعل هذا في حياة جابر.. نادرًا ما كانت تقدم شيئًا تأكله عندما تزور رشا .. لكن منذ وفاته وفي المرات القليلة ، التي تأتي فيها للزيارة لا تدعها أبدًا تخرج دون أن تأكل شيئًا.. أصبح معروفًا عن نجية وأبنائها في صفط اللبن أنهم جياع، وعادت وداد للبكاء مرة أخرى.. نعم هي الحقيقة، ولكن إلى متى يطعمونهم ، وإلى متى يأكلون ما يقدم لهم مخلوطًا بالدمع والألم، وعادت وداد بالصحن إلى الأريكة الخشبية ، التي تجلس عليها إلى جوار رشا قائلة:

- بلاش تعليم وأنزل أشتغل.. أم مجدي اللي في حارة أبو علم قالت لأمي تجيبلها شغل في شقة في الدقي.. محمود ولَّع الدنيا لما سمع.. بلاش تعليم وأروح أنا يا رشا.. أخدم في البيوت.. طب ما لاقيش حد يشغلني في

بيته بعد الضهر.. أنا عايزة أتعلم.. عايزة أتعلم..

رشا أيضًا تريدها أن تتعلم.. رشا لازمت وداد منذ الابتدائية.. تراها عبقرية.. رشا لا تذكر مرة واحدة أجابت فيها وداد إجابة خاطئة.. لكن ما عساها أن تفعل ... هم جميعًا فقراء!!

الحل هو أوراق نقدية .. أوراق تشتري بها نجية خبزًا وقماشًا تستر بها جسدها وجسد أبنائها.. أوراق نقدية تشتري بها وداد أقلاما وكراريس.. يدفعون بها ثمن الكهرباء التي تذاكر تحت ضوئها ، ويصلحون بها المجاري التي قد يغرقون فيها ، إن لم ينزحوها كل فترة.

هل تطلب المعونة من أبلة تهاني ، ولكن ما عساها الأخرى أن تصنع ..

تهاني إن دخل كفها شيء من هذه الأوراق .. لن تمنحها لوداد أو أمها، ليس لأنها قاسية أو بخيلة ، ولكن هي الأخرى تريد أن تأكل وتكتسي وتشعل الضوء في بيتها.. تهاني مثل مرزوق .. مثل عبير .. مثل كل الفقراء والأثرياء قروشهم من أجلهم ، وإن يومًا منحوها إلى من سواهم . ففي اليوم التالي سيفكرون ألف ألف مرة ، قبل أن تمتد بها أكفهم مرة أخرى ..

كل شيء إلا العلم.. وداد يجب أن تجد طريقًا ما.. هي على التفكير أقدر من نجية.. لقد قرأت كثيرا وتعلمت كثيرًا ، يجب أن تجد حلاًّ.. حـ ما إلا الانقطاع عن المدرسة بعد انقضاء الإجازة.. إنها تحلم باليوم الذي تذهب فيه ، وهي ترتدي زي المرحلة الثانوية.. آه ليت جابر كان على قيد الحياة..

كفكفت وداد دمعها ، وهي تنظر في عيني رشا .. سيفكران معًا في طريقة.. نجية أيضًا رغم بكائها تفكر .. حتى محمود رغم حماقاته وصراخه فهو بالتأكيد يفكر.. سيجدون حلاًّ ما.. وداد ستفعل كل شيء وأي شيء .. لكن ذهابها إلى المدرسة لا يجب أبدًا أن يدخل المقايضة!

محمود سعيد لا يصدق أبدًا ما يفعله خميس من أجله.. لا يصدق أبدًا أنه يمنحه النقود والسجائر ، ويدعوه لمشاهدة أفلام الجنس ، ويقدمه للناس جميعًا على أنه أخوه الصغير.. خميس يحبه حقًّا .. لقد رفض أن يمنحه سيجارة حشيش.. أخبره أنه مازال صغيرًا على تدخين الحشيش، ويكفيه تدخين السجائر السوبر .. محمود لا يصدق أنه سيصنع منه بعد دقائق رجلا لأول مرة في حياته.. لا يصدق أبدًا.. أفاق من أفكاره على صوت خميس يسأله في صخب:

- إيه يا واد خايف؟ لو خايف نستنى شوية.. إنزل إنت النهاردة وروح ولّاتحب تتفرج.

وصاح محمود:

- خايف دا إيه.. إحنا قدها..

وعاد خميس يصيح ، من خلف عجلة القيادة ، قائلًا:

- المُوزّة أهي واقفة مستنية..

ووقف خميس بسيارته على جانب أحد الأزقة ، لتقفز امرأة صغيرة في

منتصف العشرينيات .. لكنها لكثرة ما وضعت من ألوان وأصباغ على وجهها تبدو على مشارف الثلاثين من عمرها إلى داخل الميكروباص ، وقالت في مجون:

- إيه دا كمان؟!

وأجابها محمود في صوت ، حاول أن يخرج منه قويًّا:

- دا .. محمود .. محمووود ..

وأضاف خميس موضحًا:

- تلميذ يا أبلة بس حيدفع.. إحنا حنطلع عالطريق الأبيض يا أبيض.. أنت تراقب برة العربية ، وبعدين ييجي دورك يا جميل..

كانت المرأة تداعب محمود بعينيها وبكفها تمر على جسده ، وكان هو يحاول أن يسايرها .. إلا أن بداخله شيئًا كالخجل يعتريه.. لا يريد أن يحدث هذا أمام خميس.. يريد أن يختلي بها ، ويغلق عليهما باب الميكروباص.. إنه يعلم ما سيقوله ويفعله .. لكنه مازال لا يريد أبدًا أن يقول أو تفعل هي ما تفعله أمام خميس ، وانحرف الأخير إلى الطريق الأبيض الرملي القريب من منطقة صفط اللبن ، حيث أوقف سيارته ، ونظر إلى محمود بطرف عينيه ليهبط تاركًا لهما السيارة ، حيث وقف مستندا إلى بابها يتعجل انتهاء خميس منها.. كان يسترق بأذنيه السمع إلى كل ما يدور بداخل الميكروباص.. أبدًا لن يستخدم كلمات خميس ، ولن يدع هذه الماجنة تفعل معه ما تفعله مع خميس.. هو له خطة أخرى.. لو كان خميس تركه هو

أولًا معها ، لتعلم كيف يجب أن يعاملها .. لكنه سيسمع ويرى كيف تخرج هذه المرأة بعد لقائها بمحمود..

كان قلبه الصغير يدق وروحه تتأرجح.. لا يصدق أنه بعد لحظات ستكون بين ذراعيه امرأة حقيقية.. سيبقى العمر مدينًا لخميس بكل شيء.. أول نقود وضعها في يده من مجهوده كانت بفضل خميس.. أول سيجارة ينفث دخانها ، وها هو الآن يضعه على جسد امرأة حقيقية ، ولن يتركه يدفع لها شيئا.. سيدفع ثمن اللقاءين.. وشعر محمود بباب الميكروباص يفتح ليطل خميس ، وهو يصيح ضاحكًا:

- الله يخيبك يابت يالوزة.. يللا يا محمود ماتضحكهاش علينا..

وصعد محمود إلى داخل الميكروباص ، واستدار يغلق الباب خلفه بيده، ورآها عارية على مقعد السيارة الخلفي تشير إليه بأن يتقدم نحوها.. هي أيضًا في عينيها رغبة حقيقية.. هي أيضًا تشعر أنها تريد أن تأخذه.. تأخذ جسدًا نظيفًا وتلوثه كما يلوثها خميس وأمثاله ، واقترب لتمد لوزة أصابعها، تخلع عنه ملابسه .. وفي لحظة نسي كل ما أعده وكل ما قام بترتيبه.. كل الأفلام التي شاهدها مع خميس ، لم يبق منها شيء في رأسه.. لا شيء.. أصبح فجأة كقطعة خشب جافة ، لا يستطيع أن يحرك منها شيئًا.. وقف أمامها يرقبها ، وهي تلتهمه بعينيها ، وتحاول أن تسحق جسده البض بين أصابعها.. خلعت عنه كل ملابسه ، وأطلقت شفتيها وأصابعها تعتصر كل قطعة يمكن أن تصل إليها ، وأفاق محمود.. أفاق وبدأ يتذكر كل ما رآه وكل ما أعده ، وأمسك بخصلات شعرها بين أصابعه ، وألقى بنفسه على جسدها

يرقب نفسه ، وهو يتحول من طفل إلى رجل.. نعم خميس على حق.. فقط مع لوزة تصبح رجلًا.. لوزة لم تفتح فمها بأي كلمة من تلك الكلمات ، التي كانت تقولها منذ لحظات مع خميس.. لوزة فقط تضحك وتصيح.. ثم تتأوه وتتظاهر بالخوف والبكاء ، ثم تعود للضحك والعبث في جسد رجل ، كاد يتم السابعة عشرة من عمره..

عندما انتهت منه لوزة أو ربما عندما انتهى هو منها ، تركته يلهث ككلب صغير على مقعد السيارة الخلفي ، وارتدت ملابسها ، ثم عادت وانحنت تهمس في أذنيه بكلمات ، ثم فتحت كفه لتضع فيه ورقة صغيرة قائلة:

- كلمني يا واد.. كلمني من غير ما تقول لصاحبك..

خرجت لوزة إلى خميس لتأخذ ثمن ما باعته واشتروه ، وهي تتبادل معه الضحكات العالية ، التي كانت تطرق أذني محمود ، وهو يحاول أن يلملم نفسه ، ويرى أين هي ملابسه ليرتديها.

إنه منتش.. إنه سعيد.. أصبح رجلًا!

وصعد خميس إلى السيارة ، وهو يردد كلمات تهنئة وصيحات وتعليقات ماجنة ، ثم أدار محرك السيارة ليعودا إلى المكان ذاته ، الذي التقط لوزة منه .. وبعد خروجها من السيارة ، نظر خميس في المرآة ، يرقب وجه محمود الغارق في الصمت ، وقال:

- إيه.. هي البت لوزة أكلت لسانك؟!

لقد كان غارقًا في شيء ما يفكر فيه .. شيء يكاد يسرق فرحته بمولد الرجل فيه.. محمود شعر في لحظة أنه حزين على جابر عبد الواحد.. معذور جابر إن جُنَّ أو سقط من على لوح البلطي.. كان يشعر أن أباه جنَّ في تلك المعارك الليلية ، التي كان يسمعها من غرفته هو وأخته .. لكنه الليلة علم أن والده مسكين.. جابر كان يجب أن يموت همًّا وحزنًا..

الجنس هو أجمل شيء يفعله الرجل ، وبدونه الموت أرحم وأفضل..

وعاد خميس يسأله ، وأجاب محمود بلا وعي وتفكير:

- افتكرت أبويا الله يرحمه يا خميس.. مات فطيس..

رفع خميس حاجبه في استعلاء ، ثم قال بعد لحظات:

- ولا يا محمود ، تفتكر الريس مرزوق أول ما شاف أمك .. كان بيبكي ويقولها سامحيني ليه؟!

مازال في الإجازة الصيفية أسابيع قليلة باقية ، ولكن قبل أن تنتهي، يجب أن ترسو نجية على حل.. يجب أن تجد شيئًا ما تفعله عدا الذهاب إلى أم مرزوق.. هل تذهب إلى أم مجدي ، وتطلب منها أن توفر لها عمل خادمة في أحد البيوت.. ثار محمود عندما أخبرتهم برغبتها في أن تفعل.. ثار كالمجانين ، وأقسم انه لن يتركها أبدًا تعمل خادمة في البيوت.. أخبرها أنه سيمنحها سبعة جنيهات كل يوم ، ولكنها مازالت تصر على أن يعود إلى مدرسته ، ويحاول أن ينجح حتى يحصل على شهادة الدبلوم .. لكن هو

الآخر مصمم على عدم الذهاب إلى المدرسة ، أو حتى الاقتراب من الشارع الذي تقع فيه.. إنها حائرة تائهة لا تعلم ماذا تفعل؟!

أم مرزوق أخبرتها صراحة أنها ستمنحها مبلغًا ثابتًا في نهاية كل أسبوع ، منذ وفاة جابر ، وهي تضع في يدها سبعين جنيها كل أسبوع .. لكنها خائفة من مواصلات وداد إلى المدرسة ومتطلبات المرحلة الثانوية.. لقد تم إعفاؤها من المصروفات، بعد الطلب الذي قدمته تهاني وكيلة المدرسة الإعدادية إلى المنطقة التعليمية.. مرزوق أيضًا وعدها أنه سيدفع كل ما تحتاجه وداد .. ولكن هي مازالت خائفة.. الحياة دون جابر تبدو صعبة.. ليته لم يمت.. ليته بقي حيًّا حتى إن لم يذهب إلى العمل.. ليته بقي مستلقيًا على الفراش، يحملق في سقف غرفته.. وجوده في البيت يشعرها بالقوة .. وجوده معها أمام محمود يشعرها بشيء من الأمان ، حتى إن لم يعد محمود إلى المدرسة ، وبقي يعمل مع هذا الدنيء خميس.. كانت نجية ستطمئن إن بقي جابر على قيد الحياة عاجزًا عاطلًا تائهًا.. وجوده يعني الكثير.. وجوده يعني ألا يرتفع صوت ابنها كما أصبح هذه الأيام.. وجوده يعني ألا يعود ، ورائحة الدخان تنبعث من كل قطعة في جسده..

لو بقي جابر لما مدت نجية يدها تأخذ من طفلها سبعة جنيهات كل صباح.. لكن جابر مات.. ومحمود سيبقى يعمل مع خميس ، وهي قد لا تحتاج العمل خادمة لأنها بالفعل تعمل خادمة لدى أم مرزوق.. ما عاد عملها هناك عرفانا بالجميل أو شهامة.. أصبحت تعمل وأصبح لها أجر تأخذه كل أسبوع.. ماذا لو ماتت أم مرزوق؟! ماذا لو أدمن محمود المخدرات ، التي

تعلم أن خميس يتعاطاها؟! ماذا لو طلبت وداد درسًا أو كتبًا خارجية؟! ماذا لو مرضت هي نفسها؟!

دقت نجية رأسها بكلتا كفيها في قسوة.. لماذا تحاصر نفسها بالكوارث؟! ألا يكفيها ما هي فيه؟! نهضت عن فراشها وألقت بساقيها أسفل سريرها في ألم.. ستذهب إلى مرزوق.. اليوم هو الجمعة.. ستذهب إليه قبل خروجه إلى الصلاة.. ستطلب نصيحته.. ستخبره بما قاله محمود ، وبرفضه التام للعودة إلى المدرسة.. ستطلب منه أن يرسم لها خطة واضحة تخطو عليها.. لا أحد لها سواه هو وأمه.. أسابيع وتعود وداد إلى المدرسة.. تريد أن تسمعه يطمئنها من جديد ، ويعيد على مسامعها أنه لن يتخلى عنهم .. في روحها ذعر لا تعرف له حدودًا ..

منذ مات جابر ، وهي تشعر بالخوف.. ترقب محمود ، وهو يخرج كل يوم ليعمل مع خميس وتشتعل مخاوفها أكثر.. ترقب وداد ، وهي تقرأ في صمت في كتب الصف الأول الثانوي ، التي أحضرتها لها تهاني ، وتنتظر في كل لحظة أن تخبرها أن منهج ثانوي صعب ، وأنها لن تجتازه بسهولة.. أحيانًا تتمنى لو تفشل وداد.. ستبقيها في البيت.. وداد أصبحت على مشارف السابعة عشرة وجميلة .. ستجد لها زوجًا ، بل هي تعرف أن عماد يريد الزواج منها .. لكنها تنتفض كلما فكرت في ذلك.. وداد هي أملها.. وأمل جابر..

وداد ستكمل تعليمها.. ستنهي المرحلة الثانوية وتلتحق بالجامعة.. شهقت نجية.. الجامعة.. ابنتها في الجامعة! أو ربما تكون الأولى في

الثانوية العامة ، ويطلبونها أيضًا للقاء الوزير.. مسكينة ابنتها لم تذهب إلى لقائه لموت جابر.. ترى هل تحيا نجية حتى تصل وداد إلى الثانوية العامة ، وتكون من الأوائل ، وتذهب إلى لقاء الوزير هذه المرة.. أحلام أم كوابيس؟! نجية لا تعلم.. هل يجب أن تبتسم وتترك الأحلام تدغدغها أم يجب أن تصرخ وتستغيث ولا تترك الكوابيس تخنقها؟! يجب أن يساعدها أحد.. أحد ما له قلب طيب وله قوة تثق فيها نجية.. قوة تساندها على تحقيق الحلم أو محاربة الكابوس..

ستذهب إلى أم مرزوق وتتحدث معها ومع مرزوق.. لا تطلب منهما أكثر مما يفعلانه.. ما يفعلانه كاف لأن تبقى المركب تسير بها وبأبنائها.. ستطلب منهما أن يخبراها أنهما سيبقيان معها على حالهم ، حتى إن ماتت أم مرزوقأو انحرف محمود ، أو سقطت نجية في المرض.. ولكن كيف تخبرهما بمخاوفها . .لا تعلم.. كل ما تعلمه أنها خائفة.. ليت جابر لم يمت.. ليت الرجل بقي دون عمل .. دون رجولة ، ودون أي شيء.. نجية الآن تعلم أن وجود رجل في بيتها وحده يمحو عن روحها هذا الخوف الرهيب!

* * *

ما تراهم يظنونها جاءت من أجله.. هي لا تحضر في أيام الجمعة أبدًا.. هل تعود؟! إنها حتى لا تعلم لماذا جاءت.. بل هي تعلم.. نجية هنا تقف على باب مرزوق هذا الصباح ، لأنها تريد أن تخبره بخوفها من خميس على محمود.. تريد أن تسأله هل من الصواب أن تترك وداد تخرج كل يوم بعيدًا عن صفط اللبن ، وتذهب إلى مدرسة الجيزة الثانوية التي نقل ملفها

إليها .. هل تستحق القصة أن تترك ابنتها الشابة تركب المواصلات ، بعد أسابيع مرتين كل يوم إلى هناك.. أم تبقيها في البيت حتى تتزوج ، أو على الأقل تذهب إلى مدرسة ثانوية في صفط اللبن.. وداد صغيرة جميلة بريئة.. قد يخدعها أحد ، وقد تحدث لها مشكلات كثيرة .. لكنها عاقلة كل ما يهمها الكتب والعلم.. نجية هنا على باب مرزوق ؛ لأنها تريد أن تلقي بكل مخاوف رأسها أمامه وأمام والدته.. تريدهما أن يؤكدا لها أنها وابنتها على خط الصواب وأن لهم رجلًا.. نعم .. يجب أن يعلم أنها تريده أن يكون رجلهم.. ورفعت كفها تدق الباب في تردد.. اليوم لن تضع المفتاح في باب البيت ؛ لأنها تعلم أن رجل البيت بالداخل ، ولأنهم يعلمون أنها لا تأتي أيام الجمع..

بعد لحظات فتح الباب ، وهو يرتدي جلبابًا أبيض كالذي يرتديه الجميع عند الاستعداد لصلاة الجمعة ، وأرخت عينيها في خجل قائلة:

- صباح الخير يا سي مرزوق..

عيناه بقيتا مفتوحتين في ذهول لا يصدق أنها حضرت ، وهو الذي كان في طريقه إليها بعد أداء صلاة الجمعة ، واستدار ينظر في صالة البيت إلى أمه ، التي تجلس على أحد مقاعدها ، كأنه يبحث في وجهها عن إجابة ، وعاد ينظر إلى القادمة في ذات الدهشة ، وجاء صوت أمه من الداخل يصيح قائلًا:

- ادخلي يا نجية.. ادخلي..

دخلت الزائرة ومساحة خجلها أكبر.. لابد أن حضورها سبب شيئًا من

الحرج والضيق لمرزوق ، وإلا لماذا لم يرد تحيتها ، ووقفت في منتصف صالة البيت الصغيرة ، تنظر إلى عيني أم مرزوق . .وعادت تبحث عن الكلمات فلم تجد .. لن تستطيع أبدًا أن تخبرهم بمخاوفها ورغبتها في المؤازرة.. ألا يكفيهم ما يفعلونه من أجلها ، وعادت تقول:

- هو أنت غريبة يا نجية اتفضلي يا بنتي..

كانت تبحث عن الكلمات.. أي كلمات ، عدا كل الكلمات التي أيقظتها من نومها ووضعتها داخل ملابسها ، وأحضرتها إلى هنا صباح الجمعة ، فقالت :

- أنا أصلي كنت رايحة السوق ، فقلت أعدي أشوف لو محتاجة حاجة اشتريهالك معايا.

أبدًا لن تشكو.. وممن تشكو؟! وإلى من تشكو؟! مرزوق وأمه يفعلان الكثير فكيف إذن تشكو لهما ! أليست شكواها تهمة لهما بالتقصير.. وداد ومحمود أبناؤها هي ومسئوليتها هي وحدها ، فكيف إذن تشكو منهم ؟!

لا أحد يملك منح الأمان والطمأنينة سوى الله وحده.. من مفاجآت الغد؟! ومن على الأرض يعلم بماذا يأتي الغد؟! لقد خرج جابر وفي لحظة مات ولم يعد.. ولم تجلس ، بل استدارت نحو الباب ، وهي تتمتم :

- طيب عشان الحق السوق .. أشوفك بكرة يا خالتي ..

هي جاءت تريده.. أي سوق تذهب إليه قبل موعد صلاة الجمعة بأكثر من ساعة.. ولكن لماذا اليوم.. لماذا اليوم بالتحديد؟! في اليوم ذاته ، الذي

ينوي هو أن يمر عليها فيه.. إنها رسالة من الله ليهدأ قلب أم مرزوق وليستكين ، ويعلم أن الله يقر ما أخبرها به بالأمس.. وفي استسلام رفعت أم مرزوق ذراعيها منادية نجية ، التي عادت إليها ، وأمسكت بأصابعها وجلست إلى جوارها لتسمعها تقول:

- ربنا هو اللي ساقك.. مرزوق كان حيعدي عليك في بيتك بعد صلاة الجمعة يا بنتي..

كان وجه الأم هادئًا .. حزينًا .. ورغم هذا قالت في هدوء:

- خد نجية يا مرزوق وادخلوا الصالون.. قولها يللا قبل ميعاد الصلاة.

انتفضت نجية في خوف ، وأصابعها مازالت بين كف السيدة.. في أي شيء يريدها؟ جاءتهم تتلمس عندهم الأمان .. جاءت تحاول أن تلقي بالخوف من على كتفيها ، فإذا بهم قد أعدوا لهم أمرًا ، كان مرزوق في طريقه إليها به.

ورأته يخطو نحو غرفة الصالون التي تقع في قلب صالة البيت ، وشعرت بأم مرزوق تربت على كفها ، وتمنحها ابتسامة صغيرة في ضعف نجية وشحوبها حيث نهضت في خوف وقبل أن تمضي ، استدارت لترى دمعة صغيرة تترقرق في عيني أم مرزوق ، وأشارت لها بيدها إلى غرفة الصالون، وهي تحاول أن تبتسم لتمضي وتدخل ، تاركة خلفها الباب مفتوحًا ، ثم جلست على أحد تلك المقاعد ، التي اعتادت أن تنظفها وتنفض عنها الأتربة، وتمسح أقدامها بالماء كل يوم ، وقالت في صوتها المبحوح :

- خير يا سي مرزوق.. فيه إيه؟!

حاول أن ينظر إليها.. حاول أن يرفع عينيه ويحدق في عينيها .. لكنه كعادته طوال الأعوام ، لا هو ينظر في وجهها ولا هي ترفع عينيها في وجهه، فقال وهو ينظر إلى حبات مسبحته الزرقاء:

- أم محمود.. تتجوزيني؟!

كل شيء كانت تتوقع سماعه.. كل شيء وأي شيء إلا هذه الكلمات.. الكلمات التي عاش يتمنى لو أن الأقدار جمعته يومًا بنجية ، قبل أن يتزوجها جابر ويحضرها إلى صفط اللبن حتى يقولها.. كلمات ما ظن هو الآخر أن الأقدار ستسمح له أن يقولها ، ولكن ها هو الريس مرزوق بهيبته وشبابه ورجولته لا يعرف كيف يقولها ، وها هي نجية مشدوهة الثغر شاحبة الوجه، لا تعرف كيف تفهمها أو حتى تترجمها.

وأطبق على شفتيه ورفع عينيه ينظر إلى وجهها ، وعاد يسألها إن سمعته، ورآها تلتفت إلى باب الغرفة كأنها تبحث عن أمه.. كأنها تشعر أن المرأة ستنهض على قدميها المشلولتين ، وتدخل عليهما لتصفعهما معًا في جنون.. وهمت للحظة بالنهوض والركض إليها .. لكنها عادت تسقط مكانها ، ولطمت وجهها في قسوة ، وقالت:

- أنا؟! طب ليه؟!

وتململ في مقعده.. الأمر ليس سهلًا.. الحديث مع أمه كان أسهل.. كان سهلًاأن يخبرها بحبه لنجية.. وبثقته فيها واطمئنانه إليها.. وأنه يشعر

أن وداد ابنته ، وأن محمود يناديه لينقذه ، وأن الله والدين يحثانه على ذلك.. ولكن كيف يخبرها هي نفسها بشيء من هذا.. قد نتحدث عن شخص ونشرح ونسهب في الشرح عنه وعن مشاعرنا نحوه ، ولكننا لا نستطيع أن نستحضر كلمة واحدة من خطبنا الطويلة ، إن كان حديثنا مع الشخص ذاته..

وأفاق عليها ، وهي تلطم وجهها من جديد ، كأنها تريد أن تفيق من شيء توهمت سماعه ، وعادت تسأله ذات السؤال : ليه ؟!

وفي هدوء قال ، وهو يحاول أن يهدئها :

- تصوري مرزوق الحلوجي طلع زي بقية الناس عدّى الأربعين .. لكن زي بقية الناس عايز ست وعيال حواليه.. عايز يتجوز.

ولأن نجية لا تملك سوى دهشتها ودمعاتها ، فعادت تنظر إليه من خلف دموع كثيفة ، تكونت في عينيها قائلة:

- إنت سيد الناس.. والله لو كنت طلبت وداد بنتي ، لكنت جبتهالك لغاية بيتك.. أنا اللي مش زي بقية الناس.. أنا ولادي طولي.. أنا خلاص يا سي مرزوق اتكسرت واتحنى ضهري .. وبعدين هو أنت غريب.. عايز عيال؟! منين؟! ما هو كان على إيدك.. دا إنت بإيدك اللي دفعت يوميها حساب الأدوية والحقن لما شالولي الرحم.. فيه إيه يا سي مرزوق.. نجية هي اللي مش زي بقية الناس ، والست الطيبة اللي خيرها عليّ وعلى ولادي تكسر قلبها وتجيبلها واحدة زيي ووافقتك إزاي.. أكيد فيه حاجة.. ورحمة

جابر تقول.. فيه إيه؟!

نهضت من على مقعدها وأمسك مرزوق بذراعها ، يمنعها من مغادرة الغرفة.. وسقطت دمعاتها الكثيفة وهي تنظر إليه ؛ لتلتقي عيناهما للمرة الأولى .. منذ أعوام طويلة ، اكتفى كل منهما بالنظر فيها تحت قدميه .. ورأت عيني مرزوق الواسعتين العميقتين ترجوانها أن تبقى ، ورأى عينيها العسليتين المشروطتين ، بعد أن اغتسلت بدمعاتها ، ترجوه أن يرحمها ، وترك كفها من بين أصابعه ، وقال:

- أنا عمري ما حلفت .. لكن وهذا اليوم الطاهر أنا بحبك وبحب عيالك وبحب جابر .. الله يرحمه ويغفر له..

تدلى رأس نجية وهي تخطو خارج الغرفة.. إنه يشفق عليها.. إنه يريد أن يجد طريقة ينفق بها عليها وعلى أبنائها ، دون أن يجرح كبرياءهم ، ودون أن تطالهم الألسنة .. مسكين مرزوق الحلوجي لو انتظر لحظات لأخبرته أنها تقبل ما ينفقه وترضى به ، بل جاءت تستحلفه أن يبقى العمر يفعل.. ولكن .. لقد أقسم بالله.. أقسم بصلاته ووضوئه أنه.. أنه يحبها.. نجية.. حب؟!

وفي طريقها إلى باب البيت ، قالت أم مرزوق بصوت هادئ ، ولكنه حاسم قوي:

- تعالي يا نجية.. اقعدي.. مرزوق حينزل للصلاة ، وأنا كمان عايزة أتكلم معاكي!!

لوزة ليست عاهرة!!

لوزة فتاة جميلة بسيطة مازالت في السادسة والعشرين من عمرها.. منذ أربعة أعوام فقط كانت مخطوبة ، وكانت أحلامها أحلامًا صغيرة بسيطة ككل أحلام بنات حي "بولاق الدكرور" الذي تحيا فيه.. يوم أن حصلت على دبلوم تجارة .. ويوم أن وضع عادل دبلة ذهبية رفيعة في أصبعها الأبيض الرقيق.. كان هذان اليومان أجمل أيام عمرها .. ومازالت تحتفظ بالثوب الوردي الذي ارتدته ليلة خطوبتها.. في قاع دولابها الخشبي القديم ، وستبقى تحتفظ به حتى تذوب خيوطه ، كما ذابت براءتها بين أذرع رجال غرباء ، لم تعد حتى تتذكر ملامحهم أو أسماءهم..

كيف أصبحت عاهرة؟!

تنهدت في ألم.. نعم هي عاهرة صغيرة .. لا تعلم كيف أصبحت ، ولكنها تذكر جيدًا متى أصبحت.. بعد رحيل محمد أبو الوفا والدها عامل الرخام.. بعد مرضه الذي استمر عامين.. عامان وعطيات أمها تنفق كل ما ادخروه لتجهيزها للزواج على مصروفات علاجه.. رحل محمد أبو الوفا ليتركهم لا يملكون شيئًا حتى ثمن الكفن.. كان عادل خطيبها ، آنذاك ، ووحده تكفل بمصاريف تكفينه ودفنه ، الذي اكتشفت معه أنهم عائلة بلا مقبرة خاصة.. لقد دفنوا والدها في مدافن الصدقة..

عطيات كانت تلطم وجهها في جنون ، وهي تركض خلف جثمان زوجها.. لوزة كانت في الواحدة والعشرين من العمر.. منة أختها كانت في العاشرة، أما هبة الصغيرة فكانت في السادسة من عمرها .. أمسكت لوزة بها يومها .. لكنها أفلتت من يديها لتركض بعيدًا عن الجنازة ، وتلعب في أحد الأزقة التي اعتادت هي ومنة قضاء اليوم بأكمله فيها ، بعد عودتهما من المدرسة.

كم شهرًا حاولت عطيات أن تصمد فيه.. أربعة أو ربما خمسة شهور لوزة لا تذكر.. كانت حزينة على والدها .. خائفة على مصيرها هي وعادل، الذي بدأ يسأل كيف يمكن أن يتزوجا ، بعد أن أصبحا لا يملكان ثمن مقعد أو سرير يضعانه في فراش الزوجية .. أخبرته حينذاك أنها ستقوم بالاشتراك في جمعية ، تضع فيها مرتبها بأكمله ، الذي تقبضه من عملها في مستوصف العائلة ، ولكن عطيات لطمت وجهها عندما عرفت.. المائتا جنيه ، التي تحصل عليها لوزة كل شهر من عملها "تمرجية" ، هي أملها في الإنفاق على البيت وعلى الطفلتين.

حاولت عطيات أن تعمل.. كانت تجلس على قمة أحد الشوارع كل صباح ؛ لتبيع بعض الخضراوات الورقية ، ولكنها لم تفلح .. ذهبت بعدها للمستوصف الذي تعمل فيه لوزة ، وطلبت منهم أن يسمحوا لها بتنظيف أرضية المستوصف ودرجات السلالم كل صباح ، ولكنهم أخبروها أن لديهم عاملة نظافة.

منة وهبة بعد رحيل أبيهما ، زاد جنونهما لتصبحا أكثر جنونًا وعصيانًا

لأوامرها .. في اللحظة التي تعود فيها الفتاتان من المدرسة ، كانتا تلقيان بحقائبهما المدرسية ، وتنطلقان إلى الأزقة والحواري لتلعبا فيها مع الصبية والبنات..

لوزة كانت مشغولة هي الأخرى .. كانت تستيقظ في الصباح لترتدي ملابسها وتضع حجابها على رأسها وتصطحب الفتاتين إلى المدرسة ، ثم تذهب هي إلى المستوصف .. وبعد المستوصف تلتقي عادل ، الذي بدأ يهرب منها كثيرًا ، كأنه قد اتخذ قرارًا بداخله على تركها .. لكن كيف لها أن تلومه.. كان مسكينا هو الآخر.. كان يعمل مندوبًا لمبيعات إحدى الشركات ، وكان يملك شقة صغيرة على سطح إحدى بنايات دار السلام ، والتي ورثها عن والديه.. أوشك على الثلاثين عند وفاة أبيه ، وكان يقضي اليوم بأكمله يجوب الشركات والمنازل ليقوم بتسويق بضائعه.. يريد أن يتزوج ليجد فتاة ترعى بيته.. لم يكن يملك وقتًا أو جهدًا فائضًا ، يحارب به مع لوزة أو يبحث به مع أمها عن عمل لها ، أو حتى أن يحاول فيه السيطرة على الصغيرتين.. كان يريد فتاة تضمد ألمه..

لوزة ألم كبير.. وحدها تعمل في المستوصف حتى الخامسة عصرًا.. وتعود كل يوم لتجد أمها تصرخ في جنون.. تصرخ من عجزها عن كل شيء إلا الصراخ والصياح في وجه لوزة ، التي تركض خلف الصغيرتين ؛ لتعود بهما إلى المنزل ؛ لتأمرهما بالاغتسال ومحاولة الاستذكار ، ولكن حتى هي بدأت تفقد سيطرتها عليهما.. ما عادت نظراتها تخيفهما وما عادت دمعاتها تخجلهما.. أصبحت جدران بيتهما الصغير تتشقق من صيحات عطيات ،

ولوزة تبكي وتصيح ، وهي تخبر أمها أن عادل سيضيع من يديها إن لم تبدأ في شراء مستلزمات بيت الزوجية ، وعطيات تصيح ، وهي تلعنها لأنها تفكر في الزواج ، وهي تعلم أن مرتبها هو ما يحيون به.. بدأت أمها تجن أكثر كلما أخبرتها لوزة أنها تريد الزواج في أقرب وقت ، بل تصيح في جنون أكبر ؛ لأنها لا تحتمل الحياة وحدها مع الصغيرتين.

عندما اعتدت منة بالضرب على إحدى بنات جارتهم ، وجذبت من عنقها سلسلتها الذهبية ، جن جنون أم الفتاة ، وأقامت الدنيا على رأس عطيات .. مازالت لوزة تذكر ذاك المساء ، حين عادت مع عادل إلى البيت لتجد سكان حارتهم جميعًا أمام بيتهم وداخله.. أم الطفلة اعتدت بالضرب على منة وعطيات ؛ حيث اشتعلت إحدى الحرائق المعتادة في تلك الحارة.. ولكن عادل رفض أن يتدخل ، وأخبرها أنه بدأ يمل تصرفات أختيها الصغيرتين ، وبدأ يكره عجز أمها عن إصلاحهما.

تركها أمام باب بيتها بعد أن حكت له إحدى النساء القصة ومضى وحده.. بعد أن أخبرها أن أمامها أسبوعًا ، إما أن تتزوجه وإما أن تنساه .. كأنه ما كان يومًا في حياتها.. هي أيضًا أصابها الجنون في تلك اللحظات ، واندفعت كالقذيفة إلى داخل البيت.. كانت عطيات تنتظرها لتساعدها، ولكن لوزة كانت ككلب جريح ، لم تجد أحدًا سوى أمها تصب عليه خوفها ولعناتها..

انفض الجمع من بيتهم ، بعد أن أوسعت عطيات ابنتها منة ضربًا أمام الجميع ، وأيضًا بعد أن اعتذرت لوزة لجارتهم عن تصرف أختها ، وتعهدت

ولوزة تبكي وتصيح ، وهي تخبر أمها أن عادل سيضيع من يديها إن لم تبدأ في شراء مستلزمات بيت الزوجية ، وعطيات تصيح ، وهي تلعنها لأنها تفكر في الزواج ، وهي تعلم أن مرتبها هو ما يحيون به.. بدأت أمها تجن أكثر كلما أخبرتها لوزة أنها تريد الزواج في أقرب وقت ، بل تصيح في جنون أكبر ؛ لأنها لا تحتمل الحياة وحدها مع الصغيرتين.

عندما اعتدت منة بالضرب على إحدى بنات جارتهم ، وجذبت من عنقها سلسلتها الذهبية ، جن جنون أم الفتاة ، وأقامت الدنيا على رأس عطيات .. مازالت لوزة تتذكر ذاك المساء ، حين عادت مع عادل إلى البيت لتجد سكان حارتهم جميعًا أمام بيتهم وداخله.. أم الطفلة اعتدت بالضرب على منة وعطيات ؛ حيث اشتعلت إحدى الحرائق المعتادة في تلك الحارة.. ولكن عادل رفض أن يتدخل ، وأخبرها أنه بدأ يمل تصرفات أختيها الصغيرتين ، وبدأ يكره عجز أمها عن إصلاحهما.

تركها أمام باب بيتها بعد أن حكت له إحدى النساء القصة ومضى وحده.. بعد أن أخبرها أن أمامها أسبوعًا ، إما أن تتزوجه وإما أن تنساه .. كأنه ما كان يومًا في حياتها.. هي أيضًا أصابها الجنون في تلك اللحظات ، واندفعت كالقذيفة إلى داخل البيت.. كانت عطيات تنتظرها لتساعدها، ولكن لوزة كانت ككلب جريح ، لم تجد أحدًا سوى أمها تصب عليه خوفها ولعناتها..

انفض الجمع من بيتهم ، بعد أن أوسعت عطيات ابنتها منة ضربًا أمام الجميع ، وأيضًا بعد أن اعتذرت لوزة لجارتهم عن تصرف أختها ، وتعهدت

بألا يتكرر منها هذا السلوك ، وأن تبتعد تمامًا عن مخالطتها واللعب معها.

انفض الجمع ، لكن بقيت الحرائق مشتعلة بين عطيات ولوزة تلك الليلة.. عطيات اتهمتها بالجحود ولوزة اتهمتها بالقسوة والجنون.. حتى خيوط الصباح الأولى وصياحهما لم يتوقف.. حتى خيوط الصباح ، وعطيات تصيح وتلطم وجهها وتلعن نفسها وتعلن ندمها ؛ لأنها أنجبتهم جميعًا.. حتى خيوط الصباح الأولى ، لم تخلع لوزة حجابها الذي وضعته على رأسها في السابعة صباحًا ، قبل توجهها إلى المستوصف.. تعبت من الصياح والبكاء.. تعبت من النظر إلى وجه هبة الخائف من كل ما شاهدته وسمعته.. تعبت من حيرتها في تصديق أمها في اتهاماتها لها بالجحود والسفالة ، وبين إيمانها بأن لها حقًّا فيما تكسبه وعليها واجب تجاه خطيبها.. تعبت وهي ترى أمها تجذب طرحة رأسها السوداء وتضعها عليها ، وتنطلق خارج البيت ، وهي مازالت تلعنهم جميعًا.

سقطت لحظتها على الأرض خلف الباب الذي صفقته عطيات في جنون وبكت.. بكت كثيرًا ، ورأت هبة تنظر إليها من بعيد وهي تبكي ، وتسألها هل ماتت منة بعد أن ضربتها عطيات .. ونهضت لوزة إلى حيث استلقت منة نائمة ، وعلى وجهها آثار أصابع عطيات ولطماتها.. غفت هبة على يديها وغفت هي أيضًا معهما ؛ حتى أفاقتا على تلك الطرقات المجنونة على باب البيت..

عطيات ماتت.. أخبرها البعض أنها هي من ألقت بنفسها أمام القطار الذي يمر خلف بيتهم ، وأخبرها البعض الآخر أنها كانت تركض كالمجنونة

ولم يستطع أحد أن يوقفها ، رغم شارات التحذير الصوتية والضوئية وإغلاق بوابة المزلقان.

جثتان من البيت ذاته ، في شهور قليلة ، دفنتا في مدافن الصدقات.

منة لم تحزن لموت عطيات وهبة الصغيرة أصابها ما يشبه الذهول عندما رأتهم يحملون جثمان أمها..

ماتت عطيات ، وبعد أيام العزاء سألها عادل عما تنوي فعله.. حاولت لوزة معه كثيرًا.. كادت تقبل قدميه لكي يقبل أن يحيا معها ، ومع الصغيرتين في بيته أو بيتها .. لكنه رفض..

منة وهبة.. أصبحتا حديث الحارات كأنهما لعنتين لا فتاتين، عادل خلع الدبلة الذهبية أمام عينيها وأرخى عينيه ، ومضى .. كانت لوزة آنذاك في الحادية والعشرين من عمرها.. كانت فتاة جميلة صغيرة لها أحلام بسيطة ككل بنات حي بولاق الدكرور ، ولكن في شهور أصبحت أمًّا لصغيرتين لا أمل لها في إصلاحهما ، ولا قدرة عندها أيضًا للتخلي عنهما..

بعد أيام العزاء ، وبعد أن خلع عادل الدبلة الذهبية ، عادت إلى المستوصف .. وعادت كل مساء تعود بالفتاتين من الأزقة إلى داخل البيت الصغير ؛ ليأكلا أي شيء تستطيع تحضيره أو شراءه..

كان من الممكن أن تستمر الحياة رغم كل هذا ، دون أن تصبح لوزة ما أصبحت عليه.. كان من الممكن أن تترك منة لتبحث عن عمل ، وإن كان خادمة لو شاءت.. كان من الممكن أن تجد رجلًا غير عادل ، يرضى بها

وبأختيها الصغيرتين ويحيا معهم في بيتهم.. لكن بعد ستة أشهر وفي صباح غائم لم تشرق شمسه ، وحين كانت لوزة كعادتها في المستوصف الطبي ، الذي تعمل به دخلت إحدى الطبيبات تناديها ؛ لتخبرها أن هناك أمرا عاجلا..

عندما خرجت إلى بهو استقبال المستوصف ، رأت هبة محمولة على أذرع بعض رجال الحي.. لم تفهم أبدًا في بداية الأمر حقيقة ما حدث.. كانت منة معهم ، وكانت تبكي في صمت.. هبة لم يكن بها خدش واحد ، ولكنها كانت صامتة ، كأنها ورقة سقطت من إحدى أشجار الخريف.

كان صباح جمعة ، وكعادة الفتاتين خرجتا إلى الحواري والأزقة يركضان ويلعبان وحدهما.. منة أخبرتها أنهما كانتا تلعبان لعبة "الاستغماية" ، وأنها أغمضت عينيها لحظات ، وعندما فتحتهما لم تجد هبة .. بحثت عنها كثيرًا وفجأة سمعت صوتها ، وأيضًا لم تجدها .. لكن بعد دقائق رفعت رأسها لتجدها تقف على أسطح إحدى تلك البنايات العشوائية التي تم وقف بنائها.. الصغيرة دخلت لتختبئ فيها .. وعندما لم تجدها منة ، صعدت إلى سطح المنزل ، ووقفت على حافته تناديها ؛ لتخبرها أنها هي من كسبت اللعبة، وصاحت تطلب منها النزول ؛ لتختل قدما الصغيرة ، وتسقط تحت أقدام أختها أشبه بجثة هامدة..

منة كانت تحكي في بهو المستوصف وهي تبكي.. حاولت النهوض بهبة التي كانت في كامل وعيها .. لكنها كانت كلما ساعدتها على النهوض تسقط من بين يديها.. قالت إن البعض رأى ما حدث.. وأحضروا الفتاتين

إلى المستوصف الذي تعمل فيه لوزة . .الطبيبة الموجودة أجرت كشفًا سريعًا على الصغيرة ، ولكن لم تستطع أن تصل إلى حقيقة ما أصابها.. هبة لم يكن فيها خدش واحد.. لا شيء سوى بعض الأتربة على ثوبها ووجهها .. لكن أيضًا لا شيء فيها يتحرك..

لوزة كانت تصرخ وتبكي ، والطبيبة تخبرها أنها ربما كانت صدمة عصبية أصابت الصغيرة بعد سقوطها.. مازالت تذكر ذاك الصباح جيدًا.. منحوها اليوم إجازة ، وحمل شبان الحي هبة على أذرعهم إلى البيت.. المستوصف حتى لم يضعها ليلة تحت الملاحظة.. المستوصف ليس مجانيا ولوزة فقيرة .. حتى مرتبها الشهري بأكمله لا يكفي لمبيت الصغيرة ليلة واحدة فيه.

شباب الحي وجيرانها حضروا لزيارتهم ، وجميعهم طلبوا منها أن تشكر الله لأنه أنقذ هبة إكرامًا لروح والديها.. جميعهم طمأنوها أنها ستنهض في الصباح التالي من فراشها ؛ لتلعب من جديد وتركض في الحارات ، كما كانت بالأمس .. بل مازالت تذكر كيف همست إحدى الجارات في أذنيها ، مؤكدة لها أن هبة تدعي الذهول وترفض الحركة ؛ هربًا من عقاب لوزة واستدرارًا لعطفها.. أخبرتها أن هبة ومنة من عفاريت الجن ، والعفاريت لا تموت ولا يصيبها شيء.. ولكنها لم تكن عفريتًا من الجن.. إنها فتاة حقيقية .. بل طفلة جميلة صغيرة.

بقيت لوزة معها تدلك لها يديها وقدميها ، وتضع لها أكواب الماء على شفتيها وتخبرها أنها لن تعاقبها ، وتستحلفها بالله أن تنهض أو حتى ترفع

يدها وحدها .. لكنها بقيت مفتوحة العين ، تسمع وتتحدث ، وتقسم أنها لا تستطيع أن تشعر بأصابعها أو أي جزء من جسدها..

وجاء الصباح التالي ، ولم تنهض هبة من فراشها.. وجاء صباح آخر وآخر ومات الأمل في أن تنهض أو تتحرك.. منذ لم تذهب إلى المدرسة بعد ذاك الصباح.. أصبحت تلازم هبة صباحًا ، ولوزة تعود من المستوصف هي وأي رجل من رجال الحي ليحمل لها هبة ويجوبوا بها المستشفيات.. مستوصف العائلة أخبرها أن تذهب بها إلى قصر العيني .. وفي قصر العيني ، تم حجز الصغيرة أيامًا ، أخضعوها فيها لبعض الفحوصات والأشعات والتحاليل ليصدر القرار.. الصغيرة أصيبت بكسر في فقرتين من الفقرات العنقية لا علاج له.

أخبرها الطبيب أنه كان يجب التنبه إلى هذا الأمر في الساعات الأولى لسقوطها.. لوزة لم تفهم ، بل إنها حتى الآن لا تفهم شيئًا ، سوى أن هبة الصغيرة تم إجراء جراحة دقيقة لها.. ورغم هذا ، لا شيء يتحرك فيها سوى لسانها وعينيها.. أطباء قصر العيني أخبروها أنها يجب أن تخضع لجلسات علاج طبيعي مكثف ؛ حتى تتمكن من تحريك أصابعها ، أو أن تخطو بمساعدة .

هبة لن تركض في الحارات.. لن تلقي بحقيبة مدرستها ، وتركض وتلعب وتصرخ في حواري بولاق.. ما عادت جنية صغيرة ، بل أصبحت جثة تأكل وتشرب إن أطعمها وسقاها أحد ، وتموت إن تركوها وحدها دون مساعدة

.

منة تغيرت كثيرًا بعد مصاب هبة.. منة هي التي تطعمها وتسقيها ، وتقلب جسدها الصغير على الفراش..

قضت لوزة أيامًا طويلة تفكر فيما يجب أن تصنعه.. لوزة ليست امرأة كبيرة.. هي أيضًا مثلهم صغيرة ، تحتاج من تستند إليه ويحمل مسئوليتها.. ولكن عطيات كانت ذكية يوم ألقت بنفسها أمام القطار ، أو ربما كانت تقية محظوظة ، فأرسل لها الله ذاك القطار ليخلصها من كل هذه الآلام والمسئوليات.

حاولت أن تهرب.. أن تترك لهم البيت وتركض إلى محافظة أخرى.. منة وهبة ليستا بنتيها ولم يعد بيدها شيء تقدمه لهما.. حاولت لكنها لم تستطع .. حاولت حتى أن تقف أمام القطار ، الذي التهم عطيات وتموت.. لكنها أيضًا لم تستطع . .هناك شيء خفي يربطك بأخوتك.. ليس الحب لكنه الدم.. نعم.. الدم الذي يسري في العروق أقوى من الحب.. أقوى من الضعف..

ذابت قدماها وهي تجوب المستشفيات وعيادات الأطباء.. العلاج الطبيعي ليس بالمجان.. بل يحتاج نقودًا ، وقصة لوزة أصبحت قديمة في منطقة بولاق.. شهامة الجيران ذابت بعد شهور من سقوط هبة ، وإجراء العملية.. حتى المستوصف ما عاد مسئولوه يرحمون لوزة إن غابت يومًا أو تأخرت .. هبة ما عادت تثير شفقتهم.. ما عادت أبدًا تجعلهم يمنحون لوزة يوم أجازة تقضيه إلى جوارها ، أو تبحث فيه عن مركز جديد للعلاج الطبيعي ، أو حتى السقوط على فراشها كالميتة بعد طول الركض والإحباط..

كيف أصبحت عاهرة؟!

لم تسقط بسهولة.. أبدًا.. قاومت كثيرًا .. بل إنها حتى لم تفكر يومًا في أن تصبح ما أصبحت عليه.. لقد باعت أساور عطيات التي خلعوها من ذراعها قبل دفنها.. إسورتين نحيلتين من الذهب .. هما كل ما كانت تملكه ، وهما ما احتفظت بهما لوزة ، علها يومًا تجد رجلًا سوى عادل ، وعلها بثمنهما تستطيع شراء ما يلزمها للزواج.

باعت الأساور ودفعت ثمنها بالكامل ، تحت حساب علاج هبة ، في مركز خاص في منطقة إمبابة للعلاج الطبيعي ، وبدأت الجلسات وبدأت الصغيرة تحرك أصابعها.. لوزة كادت يومها أن تطير فرحًا ، وأخبرها الطبيب أن العلاج يجب أن يستمر ، وأنه إن استمر ستحقق هبة تقدمًا أكبر.. كل ما كانت تحلم به هو أن تنهض هبة من فراشها ، وتخطو وحدها ، حتى خطوات قليلة .. لقد أنهكها حملها كل صباح ومساء ..

بعد شهرين من العلاج الطبيعي ، كانت هبة تحرك كفيها معًا .. ولكن كان المركز بحاجة إلى دفعة أخرى من النقود.. طبيب المركز عندما بكت أمامه - وهي تقسم أنها لا تملك في حقيبتها أجرة تاكسي ، تعود به بهبة إلى البيت - تقدم نحوها وتحسس ظهرها بكفه ، وأخبرها أنه سيساعدها إن هي فقط تعاونت معه.

تعاونت معه.. تعاونت معه بعد أسبوع من التفكير الطويل.. وبعد أن رأت عيني هبة ، تتوسلان إليها ألا تتوقف عن أخذها إلى المركز.. تعاونت معه في مكتبه الخاص بالمركز.. بعد أن خلع ثوب الطبيب وأخرج لها جسد الرجل العاري من الرحمة.. كانت هبة في إحدى غرف المركز يخضعونها

للعلاج ، وكانت هي في الوقت ذاته تحت جسد الطبيب تتعاون معه.

كان كريمًا ذاك الطبيب.. كان ثمن بكارتها وجسدها شهرًا من الجلسات المجانية لهبة.. في نهاية الشهر أخبرها بوضوح أنه اكتفى ، وأنها في المرة القادمة عند دخولها المركز لن تحضر إلى مكتبه.. بل عليها أن تذهب إلى مكتب الاستقبال ؛ لتدفع نقودًا لا جنسًا.. وأن عليها أيضًا أن تختار إما اصطحاب هبة إلى غرفة الجلسات الكهربية والتدليك ، أو انتظارها في الاستقبال.. لم تقل لوزة كلمة واحدة بعد ما سمعته منه .. عادت بهبة إلى البيت ، وعادت تفكر من جديد..

هكذا أصبحت لوزة امرأتين.. في الصباح هي التمرجية التي تعمل في مستوصف العائلة، وفي المساء تخرج بعيدًا عن منطقة سكنها .. وبالتحديد إلى شارع جامعة الدول العربية .. تخرج وهي تحمل كيسًا من البلاستيك به ملابس أخرى ، تدخل بها إلى أحد الفنادق الموجودة أو المطاعم الكثيرة المتناثرة على الشارع الكبير ، وتبدل ملابسها.. وفي الكيس البلاستيكي ذاته ، يرقد حجابها وبنطلونها الحريري الواسع ، وقميصها الذي تخرج به.

لا شيء تفعله سوى أنها تخطو على الجزيرة الوسطى بشارع جامعة الدول.. أو على أرصفته حيث السيارات ، التي تقف بجوارها ويناديها من يقودونها ويتم الاتفاق.. في الصيف ، تصبح الأمور أفضل كثيرًا.. هناك سواح وعرب كثيرون .. لكن المنافسة تكون أكبر.. في الصيف ، ترى فتيات أكثر منها أناقة وجمالاً.. يحملن مثلها في أيديهن أكياس البلاستيك ، وتقف إلى جوارهن السيارات ويتم الاتفاق.

من سيرها إلى جوارهن ، تحدد لوزة سعرها .. كانت في البداية تطلب خمسين جنيها ، ولكن من استماعها إلى اتفاقاتهن ، علمت أنه ، وفي الصيف ، يمكنها أن ترفع أتعابها إلى خمسمائة جنيه!

هكذا أصبحت عاهرة.. وهكذا أصبح لها عملاء يطلبونها بالاسم، ومنهم خميس عبد العال.. أربعة أعوام تقريبًا .. ولوزة تضع الحجاب صباحًا ، وتخلع ملابسها ليلًاتحت جسد رجل ، قد لا تعرف اسمه ، وقد لا تراه مرة أخرى ..لكنه في نهاية اللقاء يمنحها ، بكل الاشمئزاز ، ورقة مالية أو ربما عدة أوراق!! كل هذا يتحدد بالتوقيت ، الذي يتم فيه الاتفاق ، وحسب مظهر ونوع سيارة العميل .. أصبحت أكثر خبرة ودقة في تحديد ما تعلم أنه لن يرفض..

عادل تزوج وأنجب فتاة صغيرة وزوجته حامل للمرة الثانية.. أما هي فقد نسيت موضوع الزواج.. إلى متى سيستمر هذا الحال؟!

هذا الحال لن ينتهي إلا بنهاية حياتها.. امرأة اختارت أن تكون عاهرة .. تبقى كذلك حتى الموت..

ماذا لو تم القبض عليها ذات ليلة.. إنها تدخل بيوتًا وشققًا مفروشة موبوءة ، بل إنها تمارس الجنس أحيانًا في السيارات والأماكن المظلمة.. لا تعلم.. لا خيار آخر أمامها .. في كل الأحوال هي ميتة.. الفارق الوحيد أنها تطيل في عمر منة وهبة شهورًا وربما أعوامًا..

انتفضت لوزة من فراشها تبحث عن هاتفها الصغير ، الذي أخرجها

من ذكرياتها ، ونظرت إليه وهزت رأسها في ألم.. إنه استدعاء.. إنه عمل.. خميس عبد العال يحادثها.. وأمسكت بهاتفها بين أصابعها ، وتمنت لو يحضر معه محمود مرة أخرى!

أغلقت خلفها الباب في هدوء ؛ لتجلس على الأريكة الوحيدة الموجودة في صالة البيت الصغيرة ، وهي تتمتم "يا رب".. لقد خرجت وداد إلى يومها الأول في المرحلة الثانوية.. رفضت تمامًا أن تصطحبها نجية إلى المدرسة مع محمود ، الذي أصر على أن يكون معها ؛ ليطمئن على سلامتها ، ويعرف طريق مدرسة الجيزة الثانوية.

كل المشاعر تتلاطم في صدر نجية ورأسها .. كل الصور تتلاحق وكل الأحداث تتشابك ، وتبقى هي فقط في مكانها كمسمار صدئ قديم.. ابنتها في زي المدرسة الجديد ، تبدو كقطعة من بدر الشهور العربية ، وهذا يخيفها ويسعدها وأيضًا يحزنها.. محمود بأعوامه السبعة عشرة يبدو في عينيها رجلًاكبيرًا ، تخجل منه بل وتخاف تعنيفه وتفشل ، كلما حادثته في موضوع عودته إلى الدبلوم ، أو حتى العمل مع مرزوق.

مرزوق!!

أصابتها كلماته بالجنون.. ما عادت نجية أبدًا ، كما كانت قبل أسبوع واحد فقط من هذا الصباح.. منذ جلست معه في صالون بيتهم كسيدة

وليست كخادمة ، وكل شيء في رأسها تغير.. منذ جلست إلى جوار أمه بعد خروجه إلى صلاة الجمعة وسمعتها تقسم لها أنها سعيدة بقراره ، وتستحلفها أن تقبل به.. بدأت تشعر أن شيئًا في عينيها زاد بريقه.. شيئًا في جسدها علا دبيبه.. تشعر أنها امرأة.. تنظر إلى وداد ومحمود ، وتكاد لا تصدق أنهما ابناها.. هي تشعر أنها مثلهما.. تريد أن تتزوج مرزوق وتنتقل إلى بيته .. تريد حقًّا أن تغفو على فراشه الذي ترتبه كل صباح .. مرزوق يدعوها إلى الجنة.. يدعوها إلى بيت له شرفة ، وبه غسالة كهربية.. إلى ذراعين قويتين ، بإمكانهما أن يصدا ذراعي محمود ، وتستند إليهما ذراعا وداد حتى تذهب إلى الجامعة.

سيدة أقسمت أنها لا تمانع.. أخبرتها أن وداد بمثابة حفيدتها ، وأنها تعلم أن مرزوق قد لا ينجب إن تزوج من عذراء صغيرة مازال في جسدها رحم.. نجية تصبح زوجة الريس مرزوق.. جابر نفسه لن يعترض.. تشعر به نجية من قبره ، يرسل لها ألف رجاء أن تقبل.. سيدة أخبرتها أنه ليس بالضرورة أبدًا أن يتم زواجهما الآن .. لكن هي فقط تريدها أن تفكر وتطمئن إلى مصيرها ومصير ابنيها.. تريدها أن تعلن موافقتها ، وليتما زواجهما متى يريان الوقت مناسبًا..

نهضت نجية عن أريكتها الخشبية لتدخل إلى المربع الصغير المسمى "المطبخ" ، وأخرجت إناء الشاي الذي نظرت بداخله .. أصبح لونه قريبًا للأسود من كثرة غليان حبيبات الشاي فيه.. هل يتغير لون كل الأشياء التي يطول استخدامها.. هل تصبح مثيرة للاشمئزاز ، وأنت تجد نفسك مضطرًا

إلى استخدامها.. هي مثل إناء الشاي هذا.. تسعة عشر عامًا زوجة وأم.. هل أصابها الصدأ أو "أكلتها البارومة" ، كما كان جابر يقول أحيانًا.. هل بإمكان امرأة مثلها إن تكون عروسا.. كيف لها أن تكون عروسًا من جديد؟!

صبت الشاي ، وهي تمسك بالكوب الزجاجي مبتسمة في مرارة.. حتى الزجاج تغير لونه من كثرة حبيبات الشاي ، التي اقتحمته على مدار الأعوام.. مرزوق كعلبة من الشاي البكر ، الذي لم يستخدم من قبل .. لكن ستبقى هي الكوب المتسخ ، الذي تستحيل إعادته يومًا كما كان.. لكن أيضًا سيبقى الشاي حبيبات لا نكهة فيه ولا رائحة أو طعم ، إلا إن صبوه في الكوب القديم..

هل تتزوج مرزوق وتخلع جلبابها الأسود ، وتستبدله بملابس جديدة وتغفو على ذراعيه.. هل تمنح جسدها لرجل سوى جابر؟! شيء في رأسها يصرخ أنه عيب ، وأشياء في قلبها وجسدها تتوسل إليها أن تقبل .. لم لا ؟! أقسم أنه يحبها .. وأنها في عينيه صبية صغيرة.. هي أيضًا تشعر أنها مازالت بضة.. مازال صدرها يقف في شموخ ، ومازال جلدها ناعمًا رقيقًا.. حتى ملامحها مازالت جميلة.. لم تغز رأسها شعرة بيضاء واحدة.. كلما تحسسته وهي تغسله ، وجدته غزيرًا ناعمًا في لونه البني ينسدل حتى أسفل كتفيها..

كم عامًا ضاجعها جابر وشعرها تحت منديله.. كم عاما لم تمر كفه على رأسها ، أو تنزع عنها منديل رأسها ليسقط شعرها على وجهها، وهي تمنحه جسدها. .أعوام طويلة.. لقد نسيت حقًّا كل تلك الأشياء.. كان في

الأعوام الكثيرة الماضية كلما أرادها ، أخذها بملابسها .. أخذها بمنديل رأسها .. لا يومًا أطلق شعرها ولا يومًا منحته نفسها عارية ، بل هي حتى لا تذكر جسد جابر ، ولم تتحسس صدره أو كتفيه منذ أعوام طويلة.. شيء ينبض في جسدها يرجوها أن تتزوج مرزوق .. وشيء ينبض في ضلوعها يخبرها أنها حقًّا تريد أن تطلق شعرها وتخلع ثوب حزنها ، وتتنفس من أنفاس مرزوق على فراشه وفي بيته..

في عصبية ، وضعت كوب الشاي إلى جوارها ، ثم التقطت طرحة رأسها السوداء .. يجب أن تذهب إلى أم مرزوق .. يجب أن تذهب إلى المرأة التي منحتها الأمل في أن تعود امرأة وعروسًا وكائنًا ، يشعر بالأمن والأمان..

حتى إن رفضت وخافت أن تعلن لأبنائها عرض مرزوق ، فهي الآن أصبحت تدين له ولأمه بأكثر مما كانت تدين لهما به.. أصبحت تدين لهما بهذه القوة التي تشعر بها.. تدين لهما بهذه الثقة التي منحاها لها..

نجية ليست خادمة لأم مرزوق وليست مسكينة ، يتصدق عليها مرزوق بالنقود ، بل هي امرأة يتمنى لو يتزوجها.. مازالت امرأة شابة ، ومازال هناك من يحبها.. من يريد نجية ليس جابر جديدًا.. يريدها رجل يتبعه ألف جابر..

من يريدها هو مرزوق الحلوجي!!

وقف كل منهما فاغرًا فاه في دهشة.. محمود لا يعرفها ولم يلتق بها من قبل ، رغم أنه سمع اسمها يتردد كثيرًا ، على لسان وداد التي لم تصدق عينيها، وهي تراها على باب المدرسة ، وحينما أفاقت من دهشتها .. رمت بنفسها بين ذراعيها وبكت مرددة:

- "أبلة تهاني"!!

ضمتها تهاني إلى صدرها في حنان ، وهي تخبرها أنها تنتظرها لتدخل بها إلى ناظر المدرسة ؛ لتوصيه بها فهو ابن عم زوجها ؛ ولهذا رشحت لها مدرسته ؛ لأنها ستتمكن من متابعة أخبارها ومساعدتها ، إن احتاجت المساعدة.. تهاني حيت محمود في اقتضاب ، فهي تعرف قصته وابتعاده عن الدراسة ، وهي تكره كل من يتعثر في دراسته أو يتركها ، وتراه لا يستحق أبدًا شيئًا من الحب والاحترام .. لكنها رغم هذا رأت في ملامحه المتجهمة شيئًا من الرجولة.. وخوفًا على وداد .. وفخرًا بها .. ومدت كفها تصافحه، وهي تخبره أن بإمكانه الانصراف ؛ لأنها ستدخل بوداد إلى المدرسة ..

وداد نظرت إلى محمود تشكره على اصطحابها ، كأنها ترجوه أن يكون مهذبًا مع تهاني ، وأرخى رأسه ، وهو يخبرها أنه سيحاول العودة إليها في موعد انصرافها ؛ ليعود بها إلى المنزل..

وضعت وداد كفها بين أصابع أبلة تهاني ، وانطلقت إلى داخل المدرسة.. وهي ، تؤكد لها أنها دومًا ستزودها بكل ما تحتاجه من كتب

ومساعدة ، طالما بقيت تحافظ على المستوى الدراسي ذاته ، الذي عهدتها عليه طوال مرحلة الإعدادية .

محمود وقف يرقبهما حتى اختفتا داخل سور المدرسة ، وذاب جسداهما بين مئات من أجساد الفتيات في يومهن الأول.. كلهن في عينيه جميلات .. وكلهن يرتدين ملابس جديدة نظيفة رغم بساطة حالها.. حتى وداد أخته، زيها المدرسي كان جديدًا نظيفًا ، وكان حذاؤها الرخيص نظيفًا لامعًا.. وتنهد في غيظ.. متى يأتي اليوم الذي يشتري فيه هو كل شيء لأمه وأخته.. اليوم الذي تتوقف فيه نجية عن الذهاب إلى بيت الريس مرزوق لرعاية أمه المريضة.. بإمكانه أن يحضر لها ممرضة .. لكن أمه يجب أن تبقى في البيت.. الجنيهات العشر ، التي أصبح خميس يضعها في يده لا تكفي أبدًا لكل مصروفات الحياة اليومية ؛ خاصة أنه يريد أن يدخر جزءًا منها حتى يتمكن من ... من...

ونفض رأسه وهو يركل بقدمه أحد الحجارة الصغيرة التي رآها قدماه.. يجب أن يتوقف عن التفكير فيها.. منذ وضعت لوزة في كفه رقم هاتفها ، وهو يتمنى أن يحادثها ويطلبها .. لكنه حتى إن استطاع توفير ثمن اللقاء ، فمن أين له بالمكان ؟! خميس قد لا يقبل أن يمنحه السيارة ، وإن منحها له ، فهذا يعني أن يقتسما جسد لوزة.. هو يريد لقاءها وحده دون خميس ، ودون أن يقف خلف باب السيارة ، يطلق ضحكاته وتعليقاته كالمرة السابقة..

لماذا منحته رقم هاتفها ؟! أعجبها محمود .. لقد أبدع في مطارحتها

الغرام ؛ لهذا لا يجب أبدًا أن يحادثها ، وهي تعلم أنه لا يملك مكانًا يلقاها فيه.. يجب أن يجد عملًاآخر .. أي عمل سوى أعمال البناء ، وسوى العمل مع مرزوق واعظ الحي..

يكرهه كثيرًا.. يكره تلك النظرة التي يراها في عينيه كلما التقيا.. دومًا ينظر إليه كأنه طفل صغير ، بحاجة إلى من يعيد تربيته.. دومًا يتحدث إليه كأن له عليه حقًا ، وعلى محمود له واجب الطاعة.. يكره خوف والده رحمه الله منه وإصراره على النهوض ، كلما مر من جواره إن كان يجلس.. يكره حديث نجية عنه ، وكأنها تتحدث عن رئيس وزراء .. يكره حتى كلمات وداد عنه ، كلما زارت والدته في الأعياد والمناسبات ، وهي تصف حنانه وكرمه.. حمقى وأغبياء.. مرزوق يصفهم خلفه وأمامه بالنقود .. ومحمود يجب أن يجد طريقًا يصل به إلى نقود.. عندها سيرفع حاجبه في وجه مرزوق.. عندها لن تذهب حتى نجية إلى تمريض أمه وتنظيف بيتهم .. عندها سيشتري جسد لوزة وحده إن أراد خميس أن ينال جسدها .. يجب عليه هو أن ينتظر ، حتى يفرغ منها هو ، ولكن كيف؟! ماذا يعمل؟!

لا شيء يعرفه سوى خميس عبد العال.. لا شيء يستطيع أن يفعله سوى الوقوف على درجة سيارته ومناداة الركاب وتحصيل الأجرة منهم.. ربما كان من الواجب أن يتعلم القيادة ، ويبدأ هو الآخر في قيادة ميكروباص.. هناك الكثيرون ممن يملكون الميكروباصات ، يبحثون عمن يقودها لهم .. لكنه لن يتمكن أبدًا من استخراج رخصة قيادة ، قبل إتمامه الثامنة عشرة على الأقل.. فليتعلم القيادة أولًا ، وعندها سيجد ميكروباص ، يقوده داخل منطقة

صفط اللبن نفسها.. لا أحد هناك يهتم بما يسمى رخصًا أو أوراقًا رسمية..

يجب أن يعود الآن إلى خميس حيث حان موعد دورته الصباحية ، وسيطلب منه أن يعلمه القيادة.. لو استطاع في ظرف شهر أن يفعل سيصبح له دخله ، ويصبح له مكان يدعو إليه لوزة ، ويصبح في جيبه أجرتها وأجرة نجية ، التي تأخذها من أم مرزوق ليمنعها من الذهاب إليها .. هذا هو الحل الأمثل.. اشتاق إلى لوزة.. في كل ليلة يحلم بها ويحلم بجسدها مرة أخرى بين ذراعيه..

كان خميس في انتظاره عند وصوله إلى صفط اللبن .. حيث قفز القادم من السيارة ، التي كان يركبها إلى السيارة التي يعمل بها.. ووقف يجمع الأجرة من الركاب ، بعد أن ألقى التحية على خميس .. وصاح الأخير وهو يدير محرك السيارة قائلًا:

- اعمل حسابك.. الطريق الأبيض النهاردة بالليل!

وانتفض جسد محمود.. الطريق الأبيض يعني لوزة ، أو ربما يدعوه خميس إلى امرأة أخرى .. ليتها حقًّا تكون امرأة أخرى .. إنه يقتطع من نقوده جزءًا يدخره ليحادث لوزة ويلتقي بها وحده.. وحده دون أن يشاركه فيها خميس.. وحده دون أن يتلصص عليه.. يعلم أنها لن تمانع ، فهي من وضعت رقم هاتفها في يده.. هي أيضًا تريده وحده ، أو ربما تفعل مع كل من تلتقيه ليكون لها عملاء كثيرون.. أيًّا كان ما تريده ، وأيًّا كان ما تعنيه .. محمود يريدها له وحده.. اقترب ثمنها من الاكتمال في جيبه ، ولكن بقيت مشكلة المكان..

أين يلقاها؟! أين يأخذها دون خميس وسيارة خميس؟!

* * *

هي لوزة.. عندما رآها محمود عض على شفتيه في ألم ، وهو يمد يده يلتقط كفها لتصعد إلى السيارة ، منطلقين إلى الطريق الأبيض المظلم.. لماذا شعر أنها أيضًا انتفضت في سعادة ، عندما رأته داخل السيارة .. لأنها تريده؟! أم لأنها سعيدة أنها ستقبض أجرتين لا أجرة واحدة؟! لا يعلم .. لكنْ هناك صمت ما يخيم على الثلاثة هذه المرة.. لم تكن لوزة أبدًا تطلق كلماتها الماجنة ، أو حتى تستجيب لنكات خميس .. كانت تسترق النظر إلى وجه محمود بين كل لحظة وأخرى ، كأنها تسأله : لماذا لم يحادثها أو لماذا جاء مع خميس..

عندما وقف محمود خلف باب السيارة المغلق ، يقوم بالحراسة ، ومنتظرًا انتهاء خميس منها ، وجد نفسه يتلصص عليهما.. كان يبحث عن صوتها وكلماتها.. كلما سمع خميس يهينها أو يأمرها بشيء ما ، ويتمنى لو كان باستطاعته أن يحررها من يديه ، ويمنحها أجرتها كاملة ، ويطلب منها العودة من حيث أتت ، وانتظاره حتى يذهب إليها وحده .. لكن خميس قد يقتله ويقتلها إن فعل .. أولا يكفيه أنه دعاه إلى اقتسامها للمرة الثانية، وظهر خميس من خلف باب السيارة ، وهو يحمل قطعًا من ملابسه في كفه، وأخذ يصيح:

- خش يا بني.. المزاج مش عالي النهاردة .. بس لو البت دي ما بسطتكش ، حتاخد حساب زبون واحد بس..

صعد محمود إلى السيارة ، وهو يبحث عنها بعينيه ، وعلى المقعد الخلفي ذاته وجدها ، وسمعها تهمس في ألم :

- ليه ما كلمتنيش يا محمود؟!

كيف يخبرها أنه مازال يحتفظ بالورقة التي وضعتها في كفه ، بل كيف يخبرها أنه حفظ رقم هاتفها ، وأنه يقتطع من ثمن سجائره وطعام أمه وأخته جزءا ليدفع أجرها وحده .. لكنه لا يملك سيارة كهذه يدعوها إليها ، ولا يملك غرفة يأخذها إليها.. كل ما يملكه هو جسد غير جسد خميس وشهوة طفل وجنون مراهق .. تفتح جسده وتفجرت رجولته بين ذراعيها.. شهوة لا يعرفها خميس أو أي رجل آخر على الأرض ..

اقترب محمود منها وانحنى عليها يخلع عنها ما تريده ، وأخذ ينظر إلى كتفيها القمحيتين وصدرها الصغير ، وسقط على أرض السيارة ليضع وجهه بين نهديها قائلًا:

- وحشتيني يا لوزة .. وحشتيني قوي!!

في هدوء دخلت وداد إلى مكتب ناظر المدرسة الأستاذ جمال الحسيني ، الذي طلب لقاءها بعد نهاية اليوم المدرسي ، وابتسم الرجل ابتسامة كبيرة حانية ، وهو ينظر داخل عينيها العسليتين الواسعتين ، وأشار لها بالجلوس قائلًا:

- اقعدي يا وداد..

وجلست على حافة المقعد في هدوء ، ليكمل هو قائلًا:

- إمبارح كان كتب كتاب مشيرة بنت أخت تهاني .. يعني بنت خالة ابني وبنت أخت مراتي الله يرحمها .. المهم تهاني طلبت مني أوصلك الكتب دي..

وأخرج الرجل من مكتبه مجموعة من الكتب مد بها يده إلى وداد ، التي أخذتها ، ونهضت في هدوء ، لتسمعه يقول:

- المذاكرة الأول يا بنتي.. أجازة نص السنة قربت ، وممكن تقري فيها.. أنا فخور بيكي جدًا.

ابتسمت وداد في حنان.. ثلاثة شهور تقريبًا منذ بداية العام الدراسي.. في مدرسة الجيزة الثانوية .. لم يبق معلم أو معلمة ، لا يراهنون على عبقريتها وتفوقها.. إنها سعيدة.. تهاني كانت على حق .. مدرسة الجيزة أفضل من كل مدارس صفط اللبن.. رشا تعاني في مدرستها الكثير.. وداد هي التي تشرح لها الدروس ، وتساعدها على فهم المناهج وأداء الواجبات..

تهاني مازالت تهتم بها ، والأستاذ جمال زوج أختها الراحلة أيضًا أصبح يهتم بها كثيرًا ، ويتابع تحصيلها الدراسي بحب كبير.. لكن هي اليوم متعبة.. اليوم تترنح ورأسها ثقيل .. مشغول بما أخبرتها به أمها بالأمس بعد صلاة الجمعة.. مازالت لا تستطيع أبدًا أن تحدد هل هي

سعيدة أم غاضبة أم خائفة أم هي حزينة.. كانت تتقلب في فراشها طوال الليل ، مثل سمكة صغيرة ألقوها في زيت ساخن.. نجية أخبرتها أن مرزوق طلبها للزواج ، وطلبت رأيها ومشورتها.. كانت تبدو سعيدة ، رغم أنها حاولت كثيرًا ألا يظهر ذلك على وجهها أو صوتها .. لكن وداد ليست غبية ولم تعد طفلة أبدًا..

لقد تحدثت عن مرزوق.. هيبته.. نقوده.. أهمية وجوده في حياتهم.. عن محمود ورائحة الحشيش والنساء ، التي تفوح من ملابسه كل يوم.. عن الجامعة والثانوية العامة.. تحدثت عن كل شيء في حياتهم ، وصورته بأنه كارثة كبيرة .. لكنها كارثة بإمكانها أن تتحول إلى جنة ونعيم.. قالت إنها لا تفكر في الزواج ولا تريده .. لكنها تفكر في الحياة وتريد أن تأمنها.. الحياة الآمنة والجنة الغناء هي في الزواج من مرزوق.. دخول وداد إلى الجامعة، وربما وصولها إلى مركز رئيسة وزراء البلاد ، وإقلاع محمود عن النساء والحشيش وخميس ، وإصلاح أمره أيضًا يتحقق بمرزوق.

ماذا يعنيه كل هذا سوى أن نجية تريد أن تتزوجه..

لم لا؟! وداد تحبه.. وداد حقًّا تحبه ، وتعلم أن حياتهم مازالت مستقرة ؛ لأنه وحده ، هو وأمه ، يدعمان نجية ويساعدانها.. إذًا لم الحزن الذي تشعر به ؟ ولم الغضب الذي تشعر به.. هل تغار على أمها؟! هل تعتبر زواجها خيانة لذكرى جابر.. هل هي خائفة من رد فعل محمود؟!

مازالت لا تعلم ، ولكن أيضًا كيف بعد كل هذا كان يمكن أن تفهم شيئًا من كل ما قيل في الفصل هذا الصباح.. ستحمل الكتب التي أرسلتها

أبلة تهاني ، وتعود إلى البيت .. ستغفو قليلًا وتستيقظ لتفكر وتحسم هذا الأمر.. يجب أن تعود إلى صفائها وكتبها وأوراقها.. ستفكر وتصدر قرارها وتخبر نجية رأيها..

وأفاقت على صوت الحسيني يقول:

- مالك يا وداد؟ في حاجة.. بقالك عشر دقايق واقفة ساكتة..

ابتسمت ابتسامتها الناعمة الرقيقة ، ومدت كفها تصافحه ، وهي تضم كتب تهاني إلى صدرها بيدها الأخرى ، ثم توجهت إلى باب المكتب لتغادر وقبل أن تفتح الباب شعرت به يفتح في وجهها ، وشهقت شهقة صغيرة ، وهي تبتعد عن الباب الذي كاد يصفع وجهها ، وركض جمال من خلف مكتبه يصيح:

- إيه دا؟! مراد؟!

والتقط مراد بعينيه أحد الكتب ، التي تضمها إلى صدرها ، وقال في مرح:

- أنت حتقري كتاب "السِّر" ؟!

نظرت وداد إليه في انبهار.. كان يرتدي زيه العسكري .. كان واضحًا أنه طالب في كلية الشرطة ، إلى حد كبير يشبه جمال الحسيني ، الذي تقدم يفسح لها الطريق للخروج قائلًا:

- مراد.. ابني.. كان لازم يروح الكلية إمبارح .. لكن كان واخد إذن

عشان فرح بنت خالته.. عايز إيه؟!

وقالت وداد ، كأنها تفيق:

- أنا سألت أبلة تهاني عليه لما سمعت عنه..

وعقد مراد حاجبيه الكثيفين .. كأنه لا يفهم ما الذي يجعل طالبة في مكتب والده ، تتحدث عن تهاني خالته ، وعاد جمال يقول:

- يللا يا وداد.. المدرسة كلها زمانها روحت.. يللا يا حبيبتي..

وعاد مراد يمد كفه إليها ليصافحها ، وهو يبتسم ابتسامة كبيرة قائلًا:

- فرصة سعيدة يا وداد؟!

وابتسمت في خجل ، وهي تسمع اسمها يخرج من بين شفتيه العريضتين، وقالت:

- أنا أسعد..

سحبت كفها من بين أصابعه ، ورفعت عينيها إليه مرة أخرى ، كأنها تريد أن تسجل كل ملامحه في رأسها ، وعادت ترخي عينيها في خجل ، ومضت وهي تضم كتب تهاني إلى صدرها ، وآثار كفه مازالت تنبض بين أصابعها!!

لقد انتهت من أداء واجباتها ومراجعة كل الدروس ، التي ظنت أنها لم تفهمها ، بل إنها حتى اتخذت قرارها بشأن الموضوع الذي أخبرتها به نجية بالأمس.. نجية تريد الزواج من مرزوق ، ومرزوق رجل تحبه وداد وتحترمه ودونه قد تتعرض حياتهم جميعًا إلى الضياع.. ستساعد نجية على إتمام زواجها.. هي التي ستحادث محمود وتخبره.. لا تظن أنه سيمانع ، وإن كانت تعلم أنه قد يعارض قليلًا.. محمود جاهل ، والجاهل بحاجة إلى صبر حتى يتم إقناعه.. ووضعت كتبها في حقيبتها المدرسية ، وحملت كوبًا من الشاي دخلت به إلى محمود ، الذي وجدته يرتدي ملابسه ، وقالت في هدوء:

- أنت خارج تاني؟!

أخبرها أنه سيذهب إلى لقاء أحد ، ممن يملكون سيارات الميكروباص والذي وعده أن يمنحه السيارة ليقوم بقيادتها في وردية المساء داخل صفط اللبن ، دون حاجة إلى رخصة قيادة.. أخبرها أنه سيعمل صباحًا مع خميس الذي علمه القيادة ، وفي المساء سيعمل داخل صفط اللبن على سيارة الميكروباص هذه ، وأخبرها أن هذا سيجعله يكسب المزيد من النقود..

وبعد لحظات من الصمت ، قالت وداد ، وهي تنظر في وجهه النحيل:

- إيه رأيك في عم مرزوق؟!

ألقى بالحذاء الذي كان يوشك على ارتدائه ، ونظر إليها في دهشة ، ثم قال في غضب:

- ماله عم زفت؟! هو أنا باعمل كل دا ليه.. ماهو عشان ربنا يتوب علينا

منه ومن خدمة أمك لأمه..

ومضت تكمل:

- عم زفت دا هو اللي فتحنا عنينا عليه في صفط.. عم زفت هو اللي كان بيشغل أبونا .. وهو اللي دفنه ... وهو اللي...

وقاطعها في عصبية قائلًا:

- .. وهو اللي قتله كمان..

فتحت عينيها في ذهول لتكمل بعد لحظة صمت:

- حرام عليك يا محمود..

وعاد يضع حذاءه في قدمه ، ثم انحنى يبحث عن الفردة الأخرى تحت فراشه قائلًا:

- خلاصته.. بيت الشعر دا في عم زفت إيه لزومه دلوقت؟!

ومن أعماقها سحبت نفسًا طويلًا، وهي تقول:

- عم مرزوق عايز يتجوز أمك.

نظر إليها في ذعر ، كأن أفعى اقتحمت مقلتي عينيه ، واقتلعتهما بسمها ، وعادت وداد تقول:

- طلب يتجوزها.. عايز يلمنا كلنا.. عايز..

وانتفض من مكانه ليمسك بذراعها بين كفيه في قسوة ، وهو يسألها

من أخبرها ومتى وكيف حدث كل هذا ؟! كانت تحاول أن تتحدث .. لكنه انحنى يلتقط فردة حذائه ، ودفع بوداد بعيدًا عن طريقه ، صائحًا:

- يعني اللي في دماغي صح.. قتل أبوكِ عشان يتجوز أمي..

اندفع محمود تاركًا البيت ، ووداد مازالت غارقة في ذهولها .. لم تكن أبدًا تتخيل أن يكون هذا رد فعله.. المجنون لماذا يظن أن مرزوق قتل أباها.. هل أخطأت عندما فاتحته في القصة.. هل كان من الأفضل أن تترك أمها أو مرزوق يفعلانها.. وسقطت وداد على الأريكة الخشبية في صمت.. نجية تأخرت اليوم.. هل تراها تنتظر عودة مرزوق على غير عادتها ؛ لتخبره أنها فاتحت ابنتها في موضوع الزواج ، وهل تذهب إليها ، أم أن محمود ذهب إليها .. لكنه أخبرها أن لديه موعدًا مع مالك السيارة التي تحدث عنها..

يجب أن تهدأ.. ستعود أمها وتخبرها بما حدث.. محمود لن يترك موعده.. هو لن يترك فرصة كهذه تجعل منه خميسًا آخر.. فلتهدأ.. كل شيء سيتم إيجاد حل له..

عادت برأسها على الأريكة الخشبية المتآكلة ، وأغمضت عينيها في ألم، ثم فتحتها في ذعر.. عندما أغلقت عينيها لم تر صورة نجية أو محمود أو مرزوق.. لقد رأت وجه مراد جمال الحسيني!!

* * *

كان محمود ينطلق كقذيفة حمقاء لا يعنيها من تصيب .. لكنها تبحث

عمن تستقر في قلبه وتفتته بشظايا لهيبها.. لهذا أصبحت نجية تتأخر في بيت مرزوق إذًا .. في حياة جابر ، كانت تترك المشلولة وتعود إلى بيتها ظهرًا ، ولكن منذ مات جابر ، وهي لا تحضر قبل حلول الغروب .. كانت تخبرهم أنها تحاول أن ترد كل ما يدفعانه لها ، وأن تشعرهما أنها أصبحت تقوم بأعمال أكثر.. ولكن إن كان مرزوق يفعل شيئًا مع نجية لم يطلبها للزواج.. ولم لا؟! يفكر هو أحيانًا بأن يتزوج لوزة..

وشعر بدمائه تفور أكثر.. نجية ليست لوزة.. تطعمهم وتنفق عليهم مما يمنحه إياها مرزوق لقاء جسدها؟! سيمزقه محمود.. سيمزقه قطعًا صغيرة.. إن كانت لوزة تبيع جسدها للعشرات ، فهي تفعل بإرادتها .. لكن أمه لم يكن أمامها سوى أن ترضخ لاستغلال هذا الوغد لها ، وربما كانت تتزوجه رغمًا عنها.. نعم.. هو يريدها خادمة لأمه ولوزة أخرى له وحده ، وثمن هذا بعض القروش وقطع من اللحم ، يلقيها في جوفها وجوف أبنائها.. كان يركض كالمجنون .. وفي الطريق ، التقط عماد بعينيه وصاح يناديه ، وهو يسأله:

- عماد.. مرزوق الكلب رجع؟!

انتفض عماد في ذهول ، وهو يراه يصيح وينعت مرزوق بالكلب ، وأخبره أنه لا يعلم ، فأمسك محمود بعنق عماد بين كفيه ، وهو يصرخ:

- أنت كنت هناك يوم أبويا ما مات.. مرزوق هو اللي قتله.. مش كدا؟!

كان عماد مذهولًا لا يفهم .. لكنه كان يحاول أن يفهم ، إلا أن محمود

أطلقه من بين ذراعيه ، وهو يركض من جديد في اتجاه الشارع ، الذي يقطنه مرزوق.. وركض عماد خلفه يناديه.. وفي لحظة سمع عماد يصيح قائلًا:

- ريس مرزوق.. الحق يا ريس..

التفت محمود خلفه في جنون ، وهو يرى مرزوق يغادر سيارته ، وعماد يركض حوله ؛ حيث وقف ينظر حوله في دهشة.. وانطلق محمود يصيح ليجتمع حول صياحه الكثيرون من سكان الحارات.. كان يصيح في جنون متوعدًا إياه ، ويأمره بالابتعاد عن أمه، واقترب أحدهم ليمسك بذراعه صائحًا :

- اتلم يا واد يا محمود..

وتقدم مرزوق نحوه في ألم وغضب ، وصاح:

- محمود.. الكلام ما يبقاش في الشارع !!

لكن محمود لم يمهله كثيرًا ، بل عاد يصيح:

- ابعد عن أمي ، ومن بكرة تشوف لامك واحدة تانية تقعد بيها.. كفاية قتلت أبويا.

ورفع مرزوق كفه ، يريد أن يصفع به محمود ليسكته.. يؤلمه أن يذكره بجابر ويلقي عليه تهمة هو لا زال يعاني منها ، وتطوع البعض بالتدخل إلا أن محمود تقدم في جنون نحو مرزوق ، الذي علت صيحة منه ركض بعدها

محمود بعيدًا ؛ حيث أدرك الجميع بعد لحظات أن مرزوق يسقط بين أيديهم غارقًا في دمه..

لم يلحق أحد بالهارب أو يحاول الإمساك به .. الجميع كانوا يحملون مرزوق ، ويركضون به إلى المركز الطبي القريب ، وركض عماد وحده إلى بيت مرزوق الحلوجي ، وصعد سلالم البيت ، وهو يلهث في ذعر ؛ لتفتح له نجية الباب بعد طرقات كثيرة وعنيفة ، وهي تصيح:

- عماد.. فيه إيه؟!

إنها تتشاءم من رؤيته.. منذ ذاك اليوم ، الذي جاء يحمل لها نبأ موت جابر، وهي تكره أن تراه .. فما الذي جعله يحضر هنا؟ وصاح وهو يقف داخل صالة البيت ، وسيدة تجلس على مقعدها تنظر إليه في الخوف ذاته ، قائلًا:

- الحقي يا أم محمود.. محمود ضرب الأسطى مرزوق بالمطواة وهرب..

لطمت نجية وجهها وصاحت سيدة في ذعر ، وقالت كلتا المرأتين معًا:

- ابني جراله إيه؟!

* * *

كانت العاشرة مساء ، حين فتح مرزوق عينيه على فراش المستوصف ، الذي أحضره إليه أهالي صفط .. مازال حيًا إذًا .. لم تقتله طعنة محمود.. وأغمض عينيه في ألم..

محمود يطعنه ؟!.. محمود الذي ولد على يديه.. ابن نجية؟! الذي كان يعد مرزوق لحياته معه ألف خطة ، ولإصلاحه ألف خطة أخرى.. وحاول أن يعتدل .. لكنه لم يستطع من الألم ، وشعر باستيقاظه وليد ، مالك المحل أسفل بيته ، وصاح يقول:

- خليك يا ريس ما تتحركش عشان الجرح..

عاد مرزوق إلى وضعه وأغلق عينيه في ألم.. ليس الجرح ما يؤلمه.. ما يؤلمه اليد التي فتحت في أمعائه الجرح.. محمود! الأحمق يطلب منه أمام سكان الشارع أن يبتعد عن أمه.. ما تراها الأقاويل الآن؟! ماذا سيظن الناس.. لو أقسم مرزوق ألف ألف قسم لسكان صفط الآن أنه كان يريد الزواج بنجية ما صدقوه.. سيظنونه إما أنه يحاول التستر على علاقة آثمة اكتشفها محمود ، أو أنه ، على أحسن الفروض ، يحاول إنقاذ سمعتها ، بعد أن مرغها محمود في الوحل..

الأحمق.. ليته وضع سكينه في قلبه ، دون كلمات .. دون اتهامات وتهديد.. هل يتهمه بقتل والده؟! نعم هو يشعر أنه قتل جابر في ذاك الصباح ، حين تحدث معه عن عجزه ، ولكن أما كان جابر ميتًا قبلها بشهور..

لماذا فعل محمود ما فعله بأمه ومرزوق..

وعاد يفتح عينيه في ألم وهو يقول:

- أمي.. أمي يا وليد.. مين معاها؟!

وكأنما تنبه وليد إلى شيء نسيه.. الجميع من سكان شارع الحلوجي قاربوا على نسيان سيدة.. منذ أصابها الشلل ، وهي لا تفتح بابها للجيران كثيرًا.. فقط في الأعياد والمواسم .. كأنها اكتفت بملازمة نجية لها كل يوم.. نجية؟! من يصدق؟! وعاد وليد ينظر في وجه الريس مرزوق في تشكك ، كأنه يتمنى لو يقرأ فيه الحقيقة.. هل تعدى مرزوق على نجية؟! هل حاول؟! الريس مرزوق الذي يؤمهم أحيانًا في الصلاة؟!

وتنهد وليد في ألم ، ثم قال:

- حالًا يا ريس.. حاكلم الجماعة في البيت يروحوا يطمنوها.. أمين الشرطة دخل عليك ، كذا مرة عشان ياخد أقوالك..

وفي فزع سأله مرزوق:

- حد قال حاجة؟! هما مسكوا محمود؟!

وأومأ وليد رأسه بالنفي.. محمود ركض ، ولم يركض خلفه أحد.. وهنا لم يسأل أمين الشرطة أحدًا منهم.. في صفط اللبن تحدث هذه الأمور كثيرًا.. كل الناس تتشاجر .. وفي معظم الأحيان تنتهي المشاجرات بخروج هذه الأسلحة ، التي أصبحت تسكن الجيوب والصدور ، حتى وليد في جيب جلبابه ترقد مطواة صغيرة ، ولكن لم يكن يصدق أو يتخيل أن يأتي اليوم ، الذي يشهد فيه ، بعينيه ، من يرشق مطواة في جسد مرزوق ومن يفعلها؟! محمود.. الصبي الصغير الذي كثيرًا ما دخل بيت مرزوق ، في يد أمه أو بصحبة أبيه رحمه الله .. ولكن معذور محمود إن كان ما قاله

صحيحًا..

مرزوق كان صامتًا غارقًا في ألمه ، يفكر فيما يقوله إن جاء أمين الشرطة يسأله عن الجاني؟! أبدًا لن يقول إنه محمود .. وأبدًا لن يكذبه أحد.. هذا هو نظام الحي بأكمله.. يتشاجرون ويطعنون أحدهم الآخر، وإن جاءت الشرطة تسألهم ، تظاهروا بالبراءة ليستأنف كل منهم عراكه وقت يشاء وكيف يشاء.. هو فقط يجب أن يجد قصة مقبولة يقدمها.. قصة تتماشى مع سنه ومكانته في صفط ، وعاد ينظر إلى وجه وليد ، وهو يحادث زوجته على الهاتف ، يطلب منها التوجه إلى أم مرزوق... مازال وليد يذكر فضل مرزوق ومساندته له ولأبنائه .. ولكن لماذا نسي محمود كل شيء؟! محمود ذبح نجية، فكيف يحزن إن وضع مطواة في أمعاء مرزوق..

وفي اللحظة التي أغلق فيها وليد هاتفه ، وقبل أن يخبره بما قالته زوجته.. رفع مرزوق عينيه لينظر إلى باب الغرفة الذي فتح ، وأطلت منه سيدة على مقعدها المتحرك ، وإلى جوارها كانت نجية وخلفها وداد ، تدفع مقعدها المتحرك.. وكتم ألمه ، وهو يعتدل قائلًا:

- أمي.. إيه اللي جابك بس؟!

واقتربت وداد بمقعد سيدة المتحرك من فراشه ؛ حيث أمسك بكف أمه يقبلها ؛ لتقول نجية:

- كان لازم أرجع لخالتي سيدة ، وكان لازم أجيبها عشان تشوفك بعينيها.

واقتربت وداد من مرزوق في خجل ، وانحنت تقبل رأسه ، وهي تقول:

- عم مرزوق.. سامحني وسامح محمود..

وضمها إلى صدره في حنان.. إنه يحبها ، وكلما رآها أو ضمها إلى صدره شعر أنه يضم نجية.. مسكينة نجية.. لكنها أصيلة ورآها تمسح دموعها ، وقال:

- محمود عيل يا نجية.. بكرة يعقل.. بكرة كل حاجة تتصلح .. ما تخافيش أبدًا!

عشرة أيام مرت منذ عودة مرزوق إلى بيته بعد خروجه من المستشفى.. عشرة أيام لم يظهر فيها محمود أو تعرف عنه شيئًا.. عشرة أيام تغير فيها كل شيء.. كل شيء.. مازالت تذهب إلى بيته كل صباح ، بعد خروج وداد إلى المدرسة ، وهي تحمل في يديها الخضراوات التي تطهوها لهم .. لكنها تشعر أن كل العيون تتبعها ، وهي تخطو نحو منزلهم .. تشعر أن في العيون ضحكة ساخرة ، أو سؤالا ، أو ربما اشمئزازاً يخترق ثيابها.. هي لا تملك ألا تذهب.

لا أحد يرعى سيدة.. حتى مرزوق مازال يتعافى من جرحه الغائر.. هي لا تدخل غرفته أبدًا ، وإن التقته يومًا يخطو نحو الحمام ، ألقت عليه التحية وابتعدت حتى يعود إلى غرفته.. سيدة حزينة .. لكنها مازالت تخبرها

أنها تحبها وتحب محمود .. لكن نجية تعلم أنها غاضبة.. تتمنى لو تحرقهم جميعًا.. لو كانت مكانها لتمنت أن تفعل.. الحاجة والخجل هي ما أصبح يربطهما معًا..

سيدة ونجية كلاهما يحتاج الآخر .. وكلاهما يخجل من إعلان رغبته في ابتعاد الآخر عنه.. هي أيضًا تتمنى ألا تراهما .. تتمنى ألا تواجه سيدة كل صباح ، وألا تنظر في عينيها ، وهي تشعر أن سؤالًاواحدًا لا يتغير يطل منها ..أهذا هو جزاء الخير والإحسان؟!

كل شيء تغير.. بالأمس منحتها سيدة بعض النقود .. بكت وهي تخبرها أنها لا تريدها ، وأنها تتمنى لو تبقى العمر تقوم برعايتها دون مقابل ، بعد كل ما حدث .. لكنها في النهاية ، مدت يدها ووضعتهم في جلبابها.. وداد ستعود من المدرسة ، ويجب أن تجد طعامًا.. محصل الكهرباء سيأتي ويطلب نقودًا.. ملابس وداد التي تذهب بها إلى المدرسة بحاجة إلى الماء والصابون والكهرباء لإعادة فردها من جديد بالمكواة القديمة ، التي منحتها إياها سيدة يومًا.. طوق حديدي مغلق حول عنق نجية.. مثل الطوق الذي يسوقون به الكلاب الضالة.. طوق اسمه الحاجة.. نجية مشلولة بحاجتها إلى سيدة .. وسيدة مشلولة بحاجتها إلى نجية.

كل شيء تغير.. حتى وداد منذ تلك الليلة ، وهي أكثر صمتًا وانكسارًا.. رشا لم تزرها مرة واحدة ، رغم أنها كانت تفعل كل يوم لمراجعة الدروس والاستذكار.. عبير التقتها نجية بالأمس ، وعندما همت بسؤالها عن رشا ، تظاهرت بأنها لم ترها ، وأسرعت بالاختفاء بعيدًا عن عينيها.

حارة الرحمة وسكانها يجلدونها بنظراتهم ، بعد ما فعله محمود..

محمود؟! أين هو الآخر؟! تتمنى لو تراه وتطمئن عليه.. مازال صغيرًا.. مازال أحمقًا أرعن.. خميس يعلم أين هو.. يجب أن تذهب إلى خميس وتسأله عنه .. ولكن كيف يعود محمود؟! وإن عاد هل تبقى تذهب إلى سيدة ومرزوق.. وإن توقفت عن الذهاب إليهما ، ما الذي سيظنه الجيران وسكان الحي.. إنها تائهة.. الألم يمزق كل قطعة في جسدها وروحها..

منذ عشرة أيام فقط كانت امرأة أخرى .. امرأة تحلم بأن تصبح زوجة وسيدة بيت هي خادمته أعوامًا ، واليوم هي كسيرة ذليلة تتمنى ألا تدخل البيت ذاته ، الذي سمعت فيه يومًا إعلان مولدها كأنثى ، وعاشت فيه حلمًا غير كل الأحلام.. أخبرتها سيدة أن مرزوق سيخرج إلى العمل في الغد ، وأنه سيبحث عن محمود ويعود به إلى صفط .. لكنها كانت حزينة وهي تفعل ، كأنها تتمنى ألا يعود محمود.. كأنها تتمنى لو يمحى اسمه من على وجه الأرض بأكملها.. نجية تعذرها ، وتعرف أن سيدة أيضًا تعذرها.. محمود سيبقى ابنها وقطعة من قلبها..

ومرت بخطواتها من الطريق ذاته ، الذي تمر فيه كل صباح ، ووقفت أمام عربة مسعود ، الذي يجرها حماره المسكين ، لتشتري ما تطهوه لمرزوق وأمه ، وعندما جمعت ما تريد وذهبت إليه ؛ ليقوم بوضع الأشياء على الميزان ، لكزها في صدرها قائلًا:

- بت يا نجية.. أنا عايش لوحدي.. ما تيجي يابت النهاردة بالليل تعمليلي لقمة وتسيقيلي المطرح..

سقطت حبات الطماطم من يدها في ذعر ، وهي تسمع كلماته.. منذ متى يناديها باسمها.. منذ متى يطلب منها مسعود أن...

وانحنى مسعود يجمع حبات الطماطم ، التي سقطت على تراب الحارة الضيقة ، ونهض يقول:

- مرزوق عنده حق.. والله ما كنت واخد بالي.. دا انت لسه زي الملبن!!

وقفت كاللصوص خلف إحدى الأشجار القليلة المتهالكة ، أمام مدرسة السيدة خديجة الثانوية ، تنتظر وصول رشا.. تعلم أن هذا معناه أن تصل إلى مدرستها في الجيزة متأخرة لكن وداد اتخذت القرار.. يجب أن تراها وتحادثها.. لقد انتظرت أن تأتيها رشا ، كما اعتادت كل يوم .. لكنها لم تطرق بابها منذ ذاك اليوم .. ذهبت هي إليها مرتين .. لكن عبير أمسكت بباب البيت ، وهي تخبرها أن رشا غير موجودة .. بل لم تدعها حتى إلى الدخول.. وداد يجب أن تعلم لماذا وأيضًا هي اشتاقت إليها..

أطلت رشا قادمة من بعيد ؛ لتخرج وداد من خلف الشجرة وتناديها لتقفا الواحدة أمام الأخرى ، كأنهما خصمان ، وما كانتا منذ أيام أغلى صديقتين.. انتفضت رشا ، وهي تنظر إلى وجه وداد ، وترى في عينيها شيئًا كالدمعة وشيئًا كالعتاب .. وبعد لحظة واحدة كانت تضمها إلى ذراعيها .

سألتها ورشا أخبرتها أن عبير هي التي تمنعها عن زيارتها ودخول منزلهم.. رشا قالت إن الحي بأكمله يردد العبارة الشهيرة "لا دخان دون نار".. عبير لا تريدها أن تعرف وداد.. وداد مرفوضة ، فهي ابنة نجية وإن كانت بريئة ، وكاد ابنها يقتل الرجل الذي أحبه واحترمه سكان صفط زمنًا .. حتى إن كاد يقتله لرعونته وحماقته التي يعرفها الجميع ستبقى أخته.. عبير لا تريدها.. عبير أصبحت نجية قصتها اليومية مع كل الجيران.. ونجية أصبحت لقصتها رائحة صدئة ، لا تريد لرشا أبدًا أن تطالها..

ضمتها وداد إلى صدرها في حنان.. يجب أن تدخل رشا إلى المدرسة.. بدأت طوابير الصباح ، وقبل أن تمضي في طريقها .. أخبرتها أنهما سيجدان طريقة ما يلتقيان بها.. أخبرتها أن سكان صفط يشعلون الحرائق ويلقون فيها جثث الأبرياء ، ثم في لحظة تهدأ الأمور ، وينسون كل شيء ، ويبحثون عن حرائق جديدة وجثث جديدة .. أخبرتها أن صداقتهما فوق هذه الأشياء، وأنها هي أيضًا تحتاجها وتريدها ولكن يجب أن تذهب وليلتقيا في نهاية الأسبوع.. قبل صلاة الجمعة.. رشا يجب أن تجد سببًا تقدمه لأمها لتخرج صباح الجمعة ، ووداد ستأتي إليها ويكملان حديثهما وعناقهما ، ويستأنفان صداقة وحبًّا وأسرارًا يجب أبدًا ألا تتركاها تضيع..

دخلت رشا مدرستها ، وأسرعت الأخرى بخطواتها تبحث عن سيارة ، تأخذها إلى مدرسة الجيزة..

نجية ووداد أصبحتا محرمتين على بيوت صفط وسكانها.. أصبحتا علكة أفواه نساء ورجال هذا الحي.. محمود أراد أن يحميهما ، فإذا به يلقي

بهما تحت أقدام الجميع..لقد قرأت وداد يومًا أن العقل البشري يحتفظ فقط بالحدث الأخير.. ينسى كل الصور والأحداث ، ولا يبقى عالقًا فيه سوى الحدث الأخير..

محمود الجاني الهارب .. لا يذكر له أحد كيف كان منذ أعوام صبيًا صغيرًا يلعب مع أطفال الحي.. نسيت عبير أن محمود منذ أعوام ذهب إليها يعرض التبرع بدمه ، حين كان زوجها مريضًا.. لا شيء يذكره أحد اليوم ، سوى أنه فاشل وصديق خميس ، وحاول قتل مرزوق..

وهزت كتفيها في سخرية ، وهي تنهض لمغادرة السيارة.. نسي سكان صفط تقوى مرزوق وشهامته مع الجميع ، وكرمه مع صغار وكبار حواري صفط وشوارعها.. ولم يتبق في ذهنهم سوى اتهام اخيها ، الذي يكرهونها بسببه.. نسي الجميع طيش وحماقة محمود ونقاء نجية ومرزوق..

لا شيء على ألسنتهم سوى عبارة "لا دخان دون نار"..

النار مثواهم.. النار مثوى الجهل والجهلاء!!

بعمره وخبرته بهدوئه وحكمته لا يعلم ماذا يفعل ، ولا يعلم حتى كيف يفسر؟!

عاد إلى العمل.. عاد يجمع العمال ويضعهم في سيارته ، ويقود بهم

إلى موقع العمل .. لكنه يشعر أن شيئًا في العيون حوله تغير.. يتمنى مرزوق لو يجمع سكان كل حارات وشوارع صفط اللبن ، ويخبرهم أنه طلب نجية للزواج ، ومازال ، رغم ما حدث ، يريد أن يتزوجها .. لكن قد يفسر هذا تفسيرًا خاطئًا.. يتمنى لو يذكرهم بحماقة محمود وجنونه وطيشه ، ولكن هل هم لا يعلمون؟!

محمود رشق مطواة في قلبه.. هل يصدق حقًّا أن شيئًا يدور بينه وبين أمه.. أم تراه يغار عليها من فكرة الزواج نفسها؟! ذبح أمه بهذيانه ، وذبح سيدة وجعلها لا ترفع رأسها أبدًا من على صدرها.. هي تحاول أن تبتسم في وجهه ووجه نجية .. لكن مرزوق يشعر بها.. يعلم أنها لو لم تكن في عجزها ، لما جاءت بنجية ، وما أصرت على حضورها بعد كل ما حدث..

هو لا يعلم ماذا يفعل.. إنه تائه.. في بعض الأحيان ، يشعر أنه من الأفضل أن يترك الوقت يداوي كل شيء .. في أيام أو شهور ستصبح القصة وكأن لم تكن .. سيعود محمود إلى أمه ، أو قد لا يعود .. ولكن ماذا لو تحول إلى خميس آخر.. ربما لم يذهب إلى خميس ، ولكن إلى أين يذهب أيضًا؟! هو يعلم أنه مع خميس ، رغم انه لم يظهر يومًا في سيارته ، ولم يره أحد من أبناء الحي.. ولكن ليعترف مرزوق أنه يشعر بشيء من التشفي والسعادة ؛ لأن محمود يختبئ كالفأر في مكان ما.. مرزوق ليس ملاكًا.. إنه غاضب وحانق على محمود ، ليس فقط لأنه كاد يقتله ، ولكن لأنه - ودون وعي منه - لوث أمه وأخته وقتل حلمه الكبير..

نعم.. ضاع الحلم الكبير.. لن يستطيع الزواج بنجية ، بل حتى إن

دارت عجلات الزمن ، واهتدى محمود واعتذر وتزوجها هو ، ستبقى آثار ندبات المطواة على أمعائه ما بقي العمر.. ستبقى رأس سيدة متدلية في ألم ؛ لأنها ستضطر إلى قبول محمود وعناقه ، وهو يومًا كاد يقتل وحيدها ، وأثار حوله الشبهات..

حماقة محمود دمرت كل شيء .. ولكن لماذا صاح يتهمه بقتل جابر.. هل يكرهه إلى هذا الحد؟! يشعر أنه هو من أصبح يكره نفسه ، ويكره كل هذه الوجوه التي اعتاد رؤيتها وأحبها أعوامًا.. حتى نجية ما عاد يطيق النظر في وجهها.. يشعر أن شيئًا في وجهها اختلف في فترة نقاهته .. كان كل منهما يتحاشى ظهوره أمام الآخر .. وحتى في المرات القليلة ، التي رآها في صالة البيت ، لم ترفع عينيها يومًا تنظر إلى عينيه ..

ما الذي أصاب مرزوق؟! لا يعلم كأن ألف سكين أخرى تمزق صدره.. يشعر أنه كره صفط بأكملها.. حملوه على أذرعتهم إلى المستشفى لإنقاذه ، واليوم يشعر بأعينهم تسأل في تشكك من هو؟! نعم من هو؟! قرابة العشرين عامًا على أرض صفط اللبن.. عشرون عامًا لم يتطاول فيها يومًا بكلمة على أحد.. كم رجلًامن رجالها ساعد.. كم شابًّا من شبابها ، ألحقه بالعمل معه ، أو قام بإيجاد عمل له ، من خلال مهندسي المواقع والمشاريع التي يعمل بها.. كم امرأة لجأت إليه تشكو من الفقر أو اضطهاد زوجها ، وقام بإعادتها إلى بيتها ومساندتها..

واليوم ينظرون إليه جميعًا في شك.. حتى من يجمعهم للذهاب معه إلى مواقع العمل.. لا يملكون ألا يذهبوا.. مرزوق يكرههم جميعًا.. لو أن أحدهم

يسأله .. لو أن أحدهم يواجهه .. لكنه يعلم ماذا يدور في رؤوسهم وقلوبهم.. لا أحد يحبه حقًّا.. وحدها سيدة تحبه ، ولهذا يتدلى رأسها فوق صدرها في صمت كبير.. طعنة محمود ليست طعنة طفل أو شاب أحمق .. لكنها طعنة حي بأكمله.. حي نسي سكانه من هو مرزوق الحلوجي..

أرخى ساقيه عن فراشه في هدوء ، وهو يستغفر الله.. إنه لا يستطيع النوم، وأيضًا لم يعد يطيق الاستيقاظ.. لا يريد أن ينام ليصحو في الصباح ويخرج، قبل أن تحضر نجية ، ولا يريد أن يبقى ليراها تدخل ، وهو يشعر أن الذل والخجل أحضراها.. لم تشعر كم يحبها حقًّا.. لم ولن تعرف.. كيف ظن أن ابتسامة ما ستطفو على وجه أقدارهما معًا.. هناك أقدار ، ليس مقدرًا لها أن تبتسم.. ليته ما أحبها يومًا.. ليت جابر لم يمت .. بل ليته لم يقتله.. نعم مازال يشعر أنه هو من قتله بتلك الكلمات ، التي سكبها في أذنيه ، قبل صعوده إلى السقالة المشئومة.

نهض عن فراشه في غضب.. لن ينسى ولن تنسى نجية ، ولن ينسى هذا الحي أو سكانه ما حدث.. هم فقط نسوا تاريخ مرزوق معهم.. وماضيه.. لم يعد يريد أن يحتمل.. نعم.. لقد فقد الرغبة في الصبر والاحتمال .. ولماذا يصبر ، ومن أجل من يحتمل.. هذه الأرض موبوءة.. لا تحمل إلا ترابا ملوثًا يتنفسه سكانها ؛ لتصبح رؤوسهم خاوية وقلوبهم قاسية.. مرزوق لا يريد أن يحتمل القسوة ؛ لأنه لا يجد لها سببًا أو مبررًا.. لا هو رسول ولا هو عاشق.. حتى نجية التي عاش أعوامًا يحبها في صمت ، يشعر أنه حانق عليها.. يكفيها أعوامًا عاش فيها يعشقها في صمت

ويكفيها ما منحها وأعطاها.. مرزوق الحلوجي بلا قيود .. فلِمَ يقيد نفسه ، ومن أجل من؟!

فتح باب غرفته ، وخرج منها متجهًا إلى غرفة سيدة في هدوء.. لابد أنها نائمة.. لن يوقظها .. يريد فقط أن يجلس بالقرب من فراشها .. وحدها تحبه .. وحدها من أجله قست على نفسها كثيرًا.. ألا يكفيه أنها قبلت بزواجه من نجية ، وهي تعلم أنها لن تمنحه طفلًا.. أو لا يكفيه أنها غفرت لها ما صنعه محمود ، وفتحت لها بيتها وذراعيها وكيس نقودها من جديد.. سيدة لم تفعل هذا لأنها تحتاج نجية ، أو لأن الأخرى تحتاجها.. هي تعلم أن مرزوق كان سيترك كل شيء ، ويبقى هو إلى جوارها ، يرعاها إن أعلنت رفضها لنجية بعد ما حدث.. أمه غفرت وضحت ومنحت من أجله هو..

جلس إلى جوار فراشها ، يرقب رأسها وشعيراته البيضاء.. كان وجهها يقابل الجانب الآخر المقابل للحائط ، ورغم هذا مد كفه يمسح على شعيراتها البيضاء الناعمة ، وشعر بدمعات كثيفة تسقط من عينيه.. إنه يتألم.. لم تؤلمه سكين محمود .. لكن يقتله جحود وتشكك من أحبهم.. ليت سيدة تفيق وتستدير ؛ ليرتمي على صدرها ، وتمسح بأصابعها دمعات حيرته وألمه وزهده .. وانتفض جسده بعد لحظات ، وهو يسمعها تقول ، في صوت هامس:

- أنا مش نايمة يا مرزوق..

وقال كأنه يستجديها:

- ممكن تتدوري ناحيتي..

وفي اللحظة التي أدارت فيها سيدة رأسها نحوه ، وجد على وجهها هي الأخرى دمعات كثيفة.. كان كل منهما يبكي في فراشه إذًا .. وأمسك بكفيها بين يديه ، وانحنى يقبلها في حنان ، ثم قال بعد لحظات:

- أم مرزوق.. مافيش غير حل واحد.. حل واحد بس!!

يا رب.. لا تجعل أحدًا يراها .. لقد حاولت التأخر قدر ما تستطيع.. بقيت تخفي وجهها وتتظاهر بالإجهاد في سيارة الميكروباص ؛ حتى لا ترفع رأسها من بين كفيها.. أخذت دورتين كاملتين في السيارة من بداية الخط حتى نهايته .. ليس بإمكانها أن تتأخر أكثر من هذا.. لا تريد أن تثير حولها الأقاويل.. الجميع يعلم أنها تعمل ليلًاممرضة خاصة ، لدى أحد المعوقين في منطقة الزمالك ، كما أخبرتهم .. لكن يجب أيضًا أن يبقى موعد عودتها ثابتًا.. هي أيضًا لا تحتمل التأخر أكثر من هذا.. تريد أن تدخل إلى حمام البيت لتغتسل وتبكي وتلطم وجهها ألف لطمة أخرى..

كل ما تريده أن تكون الفتاتان نائمتين.. في هدوء ، فتحت لوزة باب البيت الصغير ودخلت.. يومًا كانت تدخل بعد أن تفتح لها أمها الباب بعد عودتها هي وعادل.. وهي خائفة ، تتمنى ألا تلحظ أمها آثار قبلاته على شفتيها.. ويومًا كانت تعود لتسمع صراخ وعويل أمها وشكواها من أختيها الصغيرتين ، لتخرج لوزة وتبحث عنهما في الحارات ، وتعود بهما ، وهي أيضًا خائفة من ثورة أمها وضربها لهما..

رحلت أمها وما بقي سوى الخوف وحده!!

أصبحت خائفة من خروجها في الصباح ، وخائفة من خروجها ليلًا ، وخائفة من عودتها كل ليلة .. وجدت عميلًايأخذها أو لم تجد..

ولكن في كل ليالي العمر ، لم تذق خوفًا كخوف هذه الليلة.. ولم تذق إهانة كهذه الليلة ..يبدو أن الله استجاب لها.. لا صوت يخرج من غرفة هبة ومنة.. لا شيء سوى صوت جهاز التلفاز.. لوزة حتى لن تدخل لتطفئه مثل كل ليلة.. قد تشعر بها إحداهما..توجهت إلى الغرفة الأخرى ، على أطراف أصابع قدميها ، والتقطت قميص نومها ، وقبل أن تدخل الحمام ، سمعت صوت منة من خلفها يقول:

- أبلة لوزة.. جبت حاجة حلوة معاكي؟!

لم تلتفت إلى منة.. لا تريدها أبدًا أن ترى وجهها ، وأخبرتها أنها لم تحضر شيئًا .. لكن منة صاحت قائلة:

- استني.. أنا سايبة هدومي في الحمام..

وأشاحت لوزة بيدها ، تحاول أن تخبرها أن تبتعد .. إلا أن الصغيرة في أقل من لحظة كانت تخرج من باب الحمام ، وهي تحمل بعض الملابس في يدها، ورأت لوزة تستدير فركضت تواجهها ، وهي تردد:

- ليه مش عايزة تبصيلي؟! أنا عملت إيه؟!

وأغمضت لوزة عينيها في ألم.. كم تحولت منة.. كم اختلفت!!

كانت لوزة تضع المنشفة القديمة على وجهها ورأسها ، وقالت وهي

تحاول إزاحة الصغيرة من طريقها:

- أوعي بس.. عايزة أروح الحمام.. روحي أنت نامي.. بكرة الضهر عندنا جلسة.. روحي نامي..

حين أغلقت خلفها الباب ، استندت عليه بظهرها .. كأنها تخشى أن تدخل منة عليها الحمام الصغير ، ورفعت المنشفة عن رأسها ، واستدارت تنظر إلى مرآة الحمام الصغيرة الملصقة على الحائط ، أعلى الحوض الصغير المشنوق على الحائط المجاور لبابه ، وشهقت في ذعر وجنون..لم تكن تعلم أن وجهها يبدو بهذا السوء .. ولكن كان يجب أن تعلم من الألم الذي يقتلها أنه بهذا السوء ، وأكثر ، من نظرات كل من مرت بهم.. وعادت تحدق في المرآة الصغيرة المكسورة.. وجنتاها زرقاوان ، وكدمة هائلة تحت عينيها اليمنى .. آه الكلب.. ما ذنبها هي فيمن سرقوه؟!

كيف تذهب غدًا إلى المستوصف ، وكيف تعود بعدها ، وتصطحب الفتاتين إلى جلسة العلاج الطبيعي.. بماذا تفسر لهما ولكل من سيراها هذه الآثار والألوان ، التي على وجهها.. بكت في ألم وضعف ، ووضعت كفها على فمها ؛ حتى لا تسمع منة أو هبة صوت بكائها.. إن الحمام صغير والبيت أصغر ، والحوائط كأنها بلا وجود.. ومدت يدها تفتح الماء ؛ علّ صوته يحجب صوت بكائها.. خلعت ملابسها ، وانحنت تلتقطها ، وتضعها في الحوض الصغير ستغسلها.. رغم أنها ليست ثياب العمل ، ولم تمتد أصابع ذاك العربي الحقير نحوها .. وقفت تحت الماء تغتسل ، وهي تستعيد ما حدث..

كعادتها دخلت إلى أحد فنادق شارع جامعة الدول العربية .. خلعت حجابها ، وأطلقت شعرها بعد أن مشطته ، ووضعت بعض المساحيق الصارخة على وجهها ، وبدأت رحلتها .. عندما شعرت بسيارته تقترب منها ، هدأت خطواتها ، وهو يناديها يدعوها للركوب معه .. عندها نظرت إليه لتجده شابًّا يرتدي زيًا عربيًّا ، وعلى سيارته الفارهة لافتة جمارك.. ركبت وهي تبتسم ، عندما سألها كم تريد أخبرته أنها تريد خمسمائة جنيه.. ضحك وأخبرها أنه لن يدفع أكثر من ثلاثمائة جنيه فقط ؛ لتهز رأسها بالموافقة في سعادة كبيرة..

اعتادت أن تصعد البيوت والشقق ، قبل أو بعد العميل.. أن تسأل عن اسم أحد السكان لتدعي زيارتهم ، بل اعتادت أن تخرج من حقيبتها عشرين أو ثلاثين جنيهًا لبعض حراس العقارات ، الذين يخبرونها أنهم يعلمون إلى أي شقة بالتحديد ستتوجه .. اليوم لم يستوقفها أحد.. صعدت، كما أخبرها ، إلى الدور العاشر في إحدى بنايات شارع أحمد عرابي.. وما أن خرجت من باب المصعد ، حتى وجدته يقف على أحد الأبواب لتدخل ويغلق خلفها الباب..

اللعين.. طلب منها أن ترقص فرقصت.. طلب منها أن تخلع ملابسها وتخلع عنه ملابسه ففعلت.. فعلت كل الأشياء المقززة التي طلبها منها.. إن المبلغ الذي سيدفعه ليس قليلًا ، ويستحق أن ترضيه به.. استلقت على الفراش وتركت نفسها له ، وتظاهرت ككل مرة بالألم والانبهار والنشوة .. وانتظرت طويلًا حتى يهدأ ، بعد أن وصل إلى قمة نشوته .. ونهضت إلى

الحمام لترتدي ملابسها ، وعادت وهي تضع حجابها على رأسها.. كانت سعيدة.. لا تريد زبائن آخرين اليوم.. المبلغ كبير وكأن الله أرسله ؛ لأنه يعلم أنها غدًا ستدفع جلسة هبة ، وتحضر لهم بعض اللحوم والأطعمة ، بعد أن انتهى كل ما لديهم..

وقفت أمام فراشه وأخبرته في هدوء أنها ستمضي .. بل لقد سألته في أدب إن كان يريدها أن تحضر له ملابسه الملقاة أسفل الفراش .. لكنه مد يده إلى الدرج المجاور له ، وأخرج ورقة بعشرين جنيها ، مد يده بها إليها في سكون.. لم تفهم لكنها أخذتها ، وهي تتمتم أنها مازالت تنتظر مائتين وثمانين جنيها.. نهض الشاب العربي من فراشه عاريًا ؛ ليخبرها أن رجلاً مصريًا هذا الصباح احتال عليه ، وأخذ منه ثلاثمائة جنيه ، وأنه قرر أن يستردها أيضًا بعملية نصب صغيرة..

لوزة لم تفهم لكنها جنت.. أخبرته ألا ذنب لها ، فقال إنه هو أيضًا لا ذنب له.. قالت إنه سيصبح نصابًا حقيرًا مثله ، فأجابها إنها أيضًا نصابة وحقيرة مثله ، وثمن من هم مثلها لا يتجاوز المائة جنيه.. فقدت لوزة وعيها وشعرت بالجنون ، فصرخت وهددته ، فأخبرها أنه لا يبالي.. هو سائح.. هو عربي.. هو ثري .. لن يمسه أحد هي التي دخلت بيته ، وإن أرادت سيطلب هو الشرطة ، ولتشرح لهم القصة ، ولترى ما يصنعون بها لا به.. وصاح يقول ، وجسده العاري يهتز أمامها:

- أنا سائح أما أنت فـ.......

نشبت أظافرها في كتفيه ، تحاول الوصول إلى وجهه .. لكنه في لحظة

عاجلها بلطمات كثيرة وبلكمة عنيفة في عينيها.. ضربها في وجهها ضربات كثيرة عنيفة ، وأمسك بذراعها بين كفيه ، وفي طريقه إلى باب البيت رفع سماعة هاتف معلقة ، صاح فيها ينادي أسماء لا تعرفها..

ماتت رعبًا وهي لا تستطيع الإفلات من كفه ، الذي بقي مطبقًا به على ذراعها ، حتى انطلق صوت الجرس وسحبها بين كفيه ، وهو عار ليفتح الباب صائحًا في وجه اثنين من البوابين ، لم ترهما عند صعودها ، يخبرهما أنها لصة حقيرة جاءت تسرقه ، وألقى بها إليهما في جنون ، وصفق خلفه الباب، الذي عاد يفتحه بعد لحظات ليلقي لها بحقيبتها ، وألقى في وجهها بالورقة النقدية فئة العشرين جنيها ذاتها ، وهو يصيح أنه كريم ومن بلد كريم .. لهذا سيمنحها فقط ما تستحقه!

كان وجهها متورمًا وعيناها لا ترى بهما شيئًا ، وكان أحد الحراس يؤنبها في قسوة ، وهو يردد أنه يتمنى لو يفتك بها ويمزقها ، لأنها تبيع جسدها لأمثال هؤلاء.. كانت تتألم وترتعد ، وهي لا تعلم ماذا سيصنعون بها ، إلا أن الآخر صاح يطردها ، ويفتح لها باب المصعد ، وهو يقسم أنه لو رآها تأتي إلى هذا العقار ، فسوف يقتلها ثأرًا لمصر وشرف بناتها!

كيف ستفسر ما حدث لها.. كيف تشرح للطفلتين ما سيرونه على وجهها؟! لا تعلم.. هي تريد فقط أن تستلقي على فراشها وتنام.. كادت تموت.. كادت لوزة تموت .. وارتمت على فراشها في سكون ، وعادت دمعاتها تسقط على أطراف عينيها.. هي بلا ثمن..

انتفضت في رعب ، عندما أشعلت منة ضوء الغرفة.. لقد سمعت بكاءها

في الحمام.. حاولت أن تنام كما أخبرتها ، ولكنها لم تستطع.. جاءت تعتذر لها إن كان هناك ما يغضبها منها أو من هبة.. جاءت منة تخبرها أنها ستبحث عن عمل ، هي الأخرى ، إن شاءت لوزة من الغد..

أشعلت الضوء لتتحدث معها .. ولكنها صاحت في ذعر ، عندما رأت وجهها المتورم ، ورمت بنفسها على صدرها ، وهي تصيح قائلة:

- أبلة لوزة.. إيه اللي حصل؟!

تجيد تهاني صنع صينية القرع العسلي بالكراميل .. بل لقد تعلمت إجادتها من أجل عيني مراد.. وابتسمت في حنان ، وهي تحملها ، خارجة من المطبخ؛ لتجد مراد يندفع نحوها ، ويأخذ من يدها ما تحمله ، وانحنى يقبلها على وجنتها ليسرع ، ويقطع قطعة كبيرة .. جلس إلى جوار والده على المائدة يلتهمها في فرحة كبرى ، وصاح والده يقول:

- قرع تاني..

وضحك مراد ، وهو ينظر في عيني خالته ، قائلًا:

- قرع تهاني لا يقاوم..

ابتسمت تهاني في حب ، وهي ترسل له قبلة على الهواء ، ورمت طرف عينيها تنظر إلى دعاء ابنتها.. هي تعلم أن دعاء تعشق مراد .. ولكنها تعلم

أيضًا أنه يراها فقط أخته ، وابنة خالته الحبيبة التي يتنسم فيها بقايا رائحة أمه.. كوثر.. رحمها الله.. ومن لا يبحث عن رائحتها الطيبة في كل شيء وأي شيء... جمال الحسيني أيضًا مازال يذكرها ، ويتحدث عنها ، كأنه تركها في البيت هذا الصباح.. كأنها ما رحلت منذ ستة أعوام كاملة..

كانت كوثر رائعة وجميلة وأيضًا جمال الحسيني.. رجل رائع وسيم.. لا شيء عبث بوسامته وخفة ظله القديمة ، سوى رحيل زوجته والتحاق مراد بأكاديمية الشرطة.. حاول كثيرًا أن يثني مراد عنها ، ولكن ما استطاع.. مراد ورث عن كوثر عنادها ، وعن جمال وسامته ورجولته..

انتفضت تهاني لتمد يدها ، وتقطع جزءًا آخر من القرع العسلي ، مدت يدها به نحو مراد ، الذي صاح يقول:

- كفاية يا خالتي.. كالعادة حاخد باقي الصينية معايا.. مش لاقية لنا واحدة كويسة يا خالتي تطبخ ، بدال طبيخ سيادة الناظر.

وفي غضب مصطنع ، قال جمال:

- ماله طبيخ الناظر يا حلو؟!

ونهض مراد هو ودعاء يضحكان ، ليصبا أكواب الشاي ، ويوزعاها على خالته وزوجها وأبيه ، وقال مراد كأنه يتذكر شيئًا:

- آه يا خالتي.. الشنطة دي فيها أربع كتب.. أنا جبتهم عشان تديهم لوداد من فضلك..

وفي دهشة قالت تهاني:

- وداد مين؟!

وابتسم جمال الحسيني قائلًا:

- وداد جابر..

عادت تهاني تسأله كيف يعرفها ، وأخبرها محمود بقصة لقائهما في مكتب والده بالمدرسة ، وكيف انتقى لها بعض الكتب .. منها كتب خارجية تساعدها على الاستذكار ، وأخرى مناسبة لعمرها لتقرأها في الاجازة القادمة..

وابتسمت تهاني ، وهي تسأله في دهشة لم لم يمنح الكتب لوالده ، فهو أقرب منها إلى وداد .. لكنه أخبرها أن والده رفض ، ويرى أنه من الأفضل أن تمنحها تهاني الكتب ، فمن غير اللائق أن يمنح الناظر بنفسه تلميذة عنده كتبًا ، يخبرها أن من أرسلها لها هو ابنه الشاب ، بالإضافة إلى أنه لا يريد أيضًا أن يشعرها أنهم جميعًا يتصدقون عليها بالكتب ، وانطلقت تهاني تحكي عن وداد وأخلاقها وتفوقها الدراسي ، وقال مراد في تردد:

- هي يتيمة يا خالتي؟!

عندما أجابته بالإيجاب.. قال في ألم:

- تصدقي اليتيم في عينه نظرة مش ممكن تختفي ، مهما كان حتى

قوي أو غني ..

وقالت تهاني في حسرة كبرى:

- قوي وغني.. البنت دي حكاية يا مراد.. أبوها لسه ميت من كام شهر ، كان عامل محارة غلبان ، وقع من عالسقالة ومات.. راح فطيس ماحدش حس بيه .. أخوها ولد صايع ، لسه من قريب برضه ضارب واحد جارهم بالمطواة وبيتهم أمه والله ما عارفة يا مراد.. المهم البنت دي أنا في حياتي ما شفت في أخلاقها ولا ذكائها.. الله يحميها .. وريني كدا الكتب اللي جبتها..

ولاحت في عيني مراد نظرة مترددة .. ولكنه أحضر الكتب ؛ ليضعها بين يدي تهاني التي قلبتها ، ثم قالت:

- دي كتب خارجية يا مراد.. أنت اشترتهم عشانها..

وأرخى عينيه في خجل ؛ لتكمل هي قائلة:

- الله يباركلك يا حبيبي.. حنية أمك الله يرحمها..

وشعر جمال بالألم ، الذي دق صدر مراد ، فقال:

- والله يا تهاني.. كل المدرسين في المدرسة بيحلفوا بالبنت دي.. إنت بتجيبي أخبارها منين !!

ابتسمت تهاني وهي تشعر بالندم على كلماتها عن كوثر رحمها الله ، وقالت فيما استطاعته في مرح:

- رشا.. صاحبة وداد الأنتيم بتجيلي وتحكيلي.. قوم يا جمال نقعد في الصالة .. حاعملك قهوة..

أغمض مراد عينيه وهو يستعيد وجه وداد الجميل ، وعينيها العسليتين الواسعتين اللتين يكسوها الحزن والرقة.. وأطلق تنهيدة صغيرة.. متى تأخذ وداد الكتب وهل تقرأها ، وهل ستتنبه لما يريدها أن تراه بين طياتها !

تأخرت وداد في الحضور.. لقد مضى عليه ما يقارب الساعة ينتظرها.. أكثر من شهر لم يرها أو ير نجية.. أتراها مازالت حانقة عليه ، أم تشتاق إليه كما يشتاق إليها؟! ليته يستطيع الذهاب إليها .. لكنها ليست في المنزل الآن.. لابد أنها في بيت ذاك اللعين ، هو وأمه المشلولة..

وتململ محمود في وقفته.. إنه متعب ، لم ينم منذ أكثر من ثماني وأربعين ساعة ، ومازال الطريق أمامه طويلًا ليعود إلى منطقة العمرانية.. أكثر من شهر منذ تلك الليلة ، التي حاول فيها قتل مرزوق.. لكنه لم يمت.. خميس يخبره أنه عاد إلى العمل بعد أقل من أسبوع.. وعادت أمه إلى الذهاب إليه كأن شيئًا لم يكن.. لِمَ لا يعود محمود إذًا هو الآخر؟! لا يعلم.. منذ تلك اللحظة التي ، دون وعي منه ، أخرج فيها المطواة التي منحه إياها خميس ذات يوم ، ورشقها في صدر مرزوق أو بطنه ، وهو يكره العودة إلى صفط اللبن بأكملها..

مازال يذكر صرخة مرزوق وسقوطه على الأرض.. مازال يذكر خطوط الدم التي تفجرت من جسده ، وكيف أخذ يركض في جنون بعيدًا عنه ، وعن كل من حوله .. لم يركض أبدًا هربًا منهم أو خوفًا من أن يقتادوه إلى الشرطة أو حتى حبل المشنقة.. كان يركض خوفًا من خطوط الدم التي رآها.. وخجلًا من عيني مرزوق ، التي اتسعت تعاتبه كأنها تسأل لماذا يطعنه؟!

طعنه لأنه قتل أباه.. طعنه لأنه يريد أن يتزوج أمه.. لأنه في لحظة شعر أنه يريد أن يقتل شخصًا ما.. أن يفجر دماء وبراكين ، لكنه هرب ، عندما رأى الدم يتدفق من جسد مرزوق.. ركض عندما سمعه يصيح ويسقط على الأرض.. نعم محمود لم يحتمل أبدًا موت مرزوق.. مازال يذكر قطع الحلوى ، التي كانت سيدة تضعها في كفه ، كلما زارها وهو طفل ، ونقود العيدية التي كان مرزوق يمنحه إياها بعد صلاة كل عيد.. لماذا طعنه إذًا ؟! لماذا كره أن يتزوج أمه؟!

انتفض محمود في وقفته من جديد.. نجية ليست للزواج.. لن يخلع ملابسها أو يلهو بجسدها أحد ، ولكن كان أبوه يفعل.. جابر ليس مرزوق.. جابر أبوه.. محمود حقًّا لا يعلم ، ولكن إن عادت الأيام ، وعادت تلك الليلة سيفعلها من جديد.. نعم سيرشق سكينه في قلب مرزوق مرة أخرى..

هزمه مرزوق مرة أخرى.. نعم.. لم يمت.. عاد إلى العمل ، وعاد الجميع يركضون خلفه ، كما كان جابر نفسه يفعل، بل عادت هي أيضًا تذهب إليه كل يوم.. تحمم أمه وتمسح بلاط بيتهم ، وربما ما فعله محمود جعلها أكثر

ذلاًّ وانقيادًا وخضوعًا.. هو لا يكره مرزوق ، بل هو يكره قوة مرزوق.. يكره ضعفه هو وضعف عائلته كلها أمامه..

ركض إلى خميس يومها ، يرجوه أن يخبره ما الذي يجب أن يفعله.. خميس صفق طربًا عندما أخبره بما فعل.. أخذه إلى العمرانية حيث ورشة أحد أصدقائه.. ورشة صغيرة للحدادة أصبحت هي مأواه.. يقود إحدى سيارات "التوك توك" طوال الليل ، وفي الصباح يذهب إلى الورشة ليرتمي على أرضها وينام بجوار الفئران والصراصير ، بينما يغفو مرزوق على فراشه الذي تعده نجية.. ينام بعد أن يأكل وجبة العشاء التي طهتها نجية.. وابنها هارب يلعنه الجميع ، وربما كانت هي أيضًا تفعل..

بالأمس لم ينم.. بالأمس اكتمل ما ادخره من الشهر مائة جنيه كاملة ،قرر أن يمنحها لوداد.. أنهى وردية التوك توك ، وفي الصباح أعاد السيارة إلى صاحبها ، وجاء يقف بباب مدرستها .. سيمنحها النقود ، ويضمها إلى صدره ، ويخبرها أنه يومًا سيأخذهم بعيدًا عن صفط.. بعيدًا عن مرزوق وأمه..

محمود ليس قاتلًا ولا شريرًا .. لكنه لا يريد أن يقتل مرزوق أمه بالنقود.. لا يريد أن يستولي على جسدها بالنقود.. جسد نجية ووداد أجلُّ من أن يشتريهما مرزوق أو أي رجل آخر.. أخيرًا رآها.. رأى أخته تقترب من سور المدرسة ، التي وقف مستندًا إلى إحدى الأشجار العتيقة ، التي تقف أمام بابها ، وتقدم نحوها ، وهو يهمس باسمها ، ورأته وانطلقت نحوه في جنون تضمه إلى صدرها ، وهي تصيح:

- محمود.. أخويا!!

ضمها إلى صدره ، وهي تبكي في حزن ، وتسأله في لهفة لماذا فعل كل هذا؛ وأين كان ؟ ولماذا جاء إلى هنا ، ولم يذهب إلى البيت؟!

كان يربت على ظهرها في حنان ، وعندما سمعها تسأله سؤالها الأخير أبعدها عن صدره في رفق قائلًا:

- أمي ما كرهتنيش يا وداد.. حقيقي!!

ضمته إلى صدرها مرة أخرى ، وهي تبكي قائلة:

- مين اللي يكرهك يا عبيط .. إحنا لينا غيرك يا محمود! دا حتى عم مرزوق نفسه بيدور عليك.. لازم تروح تستسمحه!!

وبعيون حائرة مترددة ، وبوجهه القمحي الوسيم ، عاد ينظر إلى وجهها الجميل المضيء ، كأنه يرتوي منها ، ويشتم فيها رائحة نجية ، ثم قال بعد لحظات :

- والله أنا مش باكره عم مرزوق .. لكن أمي لأ.. كفاية أبويا.. خلاصته .. خدي دول..

وأخرج من جيبه النقود.. كلها ورقات ذات فئات صغيرة جمعها من عمله على التوك توك ، وعندما رفضت أن تأخذها ، عاد يضمها إلى صدره قائلًا:

- حلال والله العظيم..

وقاطعته قائلة في لوم:

- برضك خميس؟!

وقال في ألم:

- والله لأ.. باشتغل على توك توك في العمرانية .. اديهم لأمي.. مش عايزها تحس أبدًا أن مرزوق هو اللي بيصرف عليكم .. اديهم لأمي ياوداد.. دا العيد كمان كام يوم ، تشتري بيهم حاجة ليكي ، ولا حتى تعملوا لحمة وفتة بدل لحمة الصدقة..

لاحت في عينيه دمعة صغيرة ، وعاد يضمها إلى صدره ، وهو يخبرها أنه سيحاول أن يحضر صباح العيد.. سيأكل معهم قطع اللحم ، ولكن فقط إن اشتروها من هذه النقود.. وداد أمسكت بيده ، وهي تخبره أنها ستعود به الآن إلى صفط .. ستأخذه إلى نجية في بيت مرزوق ، حتى إن لم يكن هو في البيت.. سيدة هناك.. سيدة ستغفر له.. أخبرته أن هذا التصرف وحده سيعيد لأمها كرامتها المهدورة ، ويخرس ألسنة من بدأوا يطالونها هي وابنتها ، بالتعليقات والتجريح بعد فعلته.. لكنه أخبرها أنه متعب لم ينم ، وبقي ساهرًا طوال الليل حتى يراها قبل دخولها إلى المدرسة.. وضع النقود في يدها ، ووضع على وجنتها قبلة ، ثم قال:

- سكان صفط كلهم كلاب.. قريب قوي حاخدك أنت وأمي من هناك ، وخلي مرزوق يبيع ويشتري فيهم بفلوسه.. أنت وأمي مش للبيع!

اختفى محمود وذاب في الكتل البشرية ، التي تمتلئ بها الشوارع ،

وبقيت وداد وحدها تقف على باب المدرسة ، تنظر إلى الأوراق الكثيرة والقديمة التي وضعها بين يديها..

محمود!! تمنت لو تحكي له عن رشا.. عن عبير.. عن كل ما تسمعه نجية وتسمعه هي من تعليقات ، وعن كل الوجوه التي تتشفى ، وكل الشفاه التي تتلوى كلما مروا من أمامهم .. لكنها تشفق عليه.. بدا أكثر نحولاً وإرهاقًا.. ملابسه التي خرج بها يوم حاول قتل مرزوق ، هي ذاتها على جسده .. لكنها قذرة ، تنبعث منها رائحة عرق وألم وخوف..

ضمت النقود إلى صدرها.. ترى كم تعب حتى يحصل عليها .. وكم هو حقًّا يحبهما ليبقى ساهرًا طوال الليل ؛ حتى يتمكن من أن يضعها في يديها ويمضي..

مائة جنيه لن تسعد بهم نجية ، رغم أن وداد تعلم أن ثمن حصول محمود عليها كان كبيرًا جدًّا!!

إنه الخميس آخر أيام الأسبوع والأسبوع القادم بأكمله أجازة عيد الأضحى المبارك.. كل الفتيات في مدرسة الجيزة الثانوية ، وقفن في نهاية اليوم يتبادلن القبلات والتهنئة.. البعض يبرم اتفاقات عن لقاءات في أيام العيد ، والبعض يتواعدن للذهاب معًا لشراء مستلزمات العيد وملابسه.. وحدها وداد ألقت التحية من بعيد على مجموعة فتيات من فصلها ، ومضت في هدوء..

شهور طويلة منذ بدأت الدراسة ، دون أن تصبح لها صديقة واحدة من هذه المدرسة .. لا أحد يحبها ولا أحد يكرهها .. جميعهن فقط ينظرن إليها على أنها التلميذة النجيبة ، التي تحصل دومًا على الدرجات النهائية.. والتي يهتم بها ناظر المدرسة شخصيًّا ، ويستدعيها إلى مكتبه على فترات متباعدة ؛ لتعود إلى فصلها ودومًا على وجهها ابتسامة..

هي أيضًا لا تريد صداقات.. الصداقة لها ثمن لا تستطيعه.. الصداقة معناها أن يجتمعوا.. وأن يتزاوروا وأن يتبادلوا الهدايا والساندويتشات.. هي تعلم أن بيتها لا يحتمل أن يجتمع فيه أكثر من أفراد عائلتها.. وأن مطبخهم الصغير بالكاد فيه حبيبات من الشاي ، تكفي الكوب الصباحي الذي تشربه نجية.. هي تعلم أن هناك من الفتيات من هم في فقرها ، وربما أكثر .. لكنها مازالت لا تريد بل أنها حتى لا تملك سوى بنطلونين ، أحدهما كاد أن يذوب من كثرة ما غسلته والآخر يكاد يخطف الأبصار من كثرة لمعته ؛ لكثرة ما كوته أمها ..

وتحسست جيبها ، وهي تخرج من سور المدرسة.. في جيبها اليوم مائة جنيه ، باستطاعتها أن تشتري بجنيهين منها ساندوتش "كبدة إسكندراني" من هذه العربة ، التي تقف إلى جوار باب المدرسة.. إنها تتعمد المرور من جوارها كل يوم ؛ لتملأ أنفاسها برائحتها ، ولكن هل تشتري ساندوتش كبدة ، وهي تعلم أن كبد نجية ينفطر على غياب محمود.. فلتحمل لها نقوده وتخبرها أنه بخير.. ستأكل ما اعتادت أكله كل يوم مع أمها ؛ إذ مازال عليها أن تمر على أبلة تهاني كعادتها كل خميس ، وأيضًا لتودعها

حتى عودة المدارس بعد أجازة العيد.. لن تدع رائحة الكبدة تفوح في فمها وملابسها.. وقفزت إلى إحدى سيارات الميكروباص المتجهة إلى صفط ، وهي تستعيد وجه محمود من جديد.. لم تشعر أنه كبر ؟! مسكين.. ليته يعود إلى التعليم.. هو يستحق شيئًا أفضل من التخبط في دروب خميس والعمرانية ، ولكن ستبقى هي في عينيه الحمقاء ، الصغيرة التي لا تعرف شيئًا سوى الاستذكار والتفوق.. لا هو سعيد بما تحاول الوصول إليه .. ولا هي ترى فيما يفعله طريقًا يأخذه إلى أي مكان ، سوى مزيد من الألم والضياع..

محمود.. رغم ملابسه المتسخة.. رغم رائحة العرق .. إلا أن رائحة عناقه كانت جميلة.. كم مرة عانقها في حياته مرات قليلة ، لا تكاد تذكرها ، ولكن ستبقى العمر تتذكر دفء عناقه هذا الصباح.

ضمتها تهاني في حنان ككل خميس .. وككل مرة ، جلست تسألها عن تفاصيل التفاصيل في أسبوعها المدرسي .. الدرجات والمدرسين والطالبات.. وككل مرة ، سألتها ألف مرة إن كان هناك شيء بإمكانها أن تفعله من أجلها.. لكن وداد غير كل مرة كانت ساهمة شاردة ، وبعد أن كررت تهاني سؤالها عشرات المرات ، أخبرتها في تردد عن لقائها بمحمود.. عن شوقها له وشعورها بالدفء ، عندما رأته ، رغم أنها كانت غاضبة وحانقة عليه..

أخبرتها أن مشاعرها تتلاطم.. جنون محمود وطيشه واندفاعه جلبوا على نجية الألم والخزي.. ألا يكفي أنها أصبحت تلتقي رشا خلسة.. ألا

يكفي أنها في كل مرة تذهب إلى سيدة والدة مرزوق ، تشعر في عيني المرأة بلوم لا حدود له .. ألا يكفي أنها أصبحت تتمنى ألا تلتقي بمرزوق ، رغم حبها له ومساعدته لهم.. ألا يكفي كل هذا لتغضب منه بل وتكرهه .. لكنها هذا الصباح ، شعرت بأن مرزوق وأمه ورشا وأمها والعالم بأسره لا يعنون لها شيئًا أمام لحظات عناقه وبين ذراعيه.. إنها لا تفهم..

ابتسمت تهاني وهي تخبرها أن هذا هو رباط الدم.. هذا هو الحب الذي نولد به ونفطر عليه.. أخبرتها أن محمود ضحية للفقر والجهل ، وأنه هو الآخر يتألم .. وأنه بحاجة ماسة إلى مساعدة نفسية ، تجعله يرى الأمور كما هي عليه ، دون أن يضخمها شعوره بالعجز والفقر وضعف الحيلة.

أخرجت تهاني من درج مكتبها ، الكتب التي أعطاها إياها مراد ، لتلتقطها وداد ، وهي مازالت غارقة في حزنها وأفكارها ، وجاءها صوت تهاني يقول :

- في كتابين حينفعوك جدًّا في الدراسة .. واحد تمارين رياضة ، والثاني نحو .. والاتنين التانيين روايات..

وابتسمت وداد ، وهي تشكرها قائلة:

- والله كنت محتاجة بتاع النحو دا.. زمان كنت باخلي رشا تجيبه ، ونقعد سوا نشتغل فيه..

وفي عفوية قالت تهاني:

- مراد ابن الأستاذ جمال لو فاكراه هو اللي جابهم.. كلنا بنحبك

وواقفين جنبك .. وبرضة عشان كدا لازم نساعد أخوك ونقف جنبه.

نظرت وداد إلى وجه تهاني في ذهول ، ورأسها بأكمله يردد كلمة "مراد".. ضمت الكتب إلى صدرها ، ووقفت تضم تهاني وتهنئها بالعيد القادم ، وانطلقت كالمجنونة إلى فناء المدرسة الخالي ، وهي تكاد تصيح ذهولاً وفرحًا .

وداد تضم إلى صدرها كتبًا اشتراها مراد.. اشتراها لها وأرسلها.. مراد يتذكرها.. لم ينس تلك اللحظات القليلة التي رآها فيها.. هي ما سقطت من ذاكرة مراد ، ولكن هو ليس في ذاكرتها.. مراد جمال الحسيني في رأسها وقلبها، وعلى سطور كراريسها ورؤوس أقلامها!!

* * *

عمَّ تبحث.. عمَّ تفتش في كل ورقة ، وكل سطر ، وكل حرف.. لماذا لا تقف عيناها ، وتثبت على سطر واحد.. لماذا لا تقرأ.. إن كانت لا تريد حل المسائل الرياضية ، ولا تريد القيام بالتمارين النحوية .. فلتطو الكتب ولتقرأ رواية.. أو حتى فلتذهب إلى أمها ، وتساعدها فيما تفعله في بيت مرزوق الحلوجي.. عينا وداد الواسعتان لا تهدأ ، وأصابعها تقلّب الصفحات صفحة صفحة تبحث عن شيء.. هل تتوقع أن تجد رسالة حب من مراد.. أو ربما تبحث عن زهرة جافة وضعها بين الصفحات..

هو ليس أحمق أو مستهترا.. بل لو فعلها يجب أن تغضب .. لماذا

تغضب؟! لماذا هذا الشعور الدفين في صدرها الذي تهرب منه.. لماذا تشعر أنها لا تستحق حبًا أو صداقة أو ثوبًا ، أو حتى ساندويتش كبدة كذاك ، الذي تشتم رائحته كل يوم.. لماذا يسكنها شعور أنها ضئيلة؟! إنها جميلة.. ذكية.. أنها أجمل وأذكى من كل بنات مدرسة الجيزة الثانوية .. والله لو رسمت عينيها بقلم كحل أسود ، كما يفعلن أو مرت بقلم روج رخيص على شفاهها المكتنزة ، وأطلقت سراح شعرها البني الغزير الطويل كما يفعلن ، لأصبحت أجمل من جميلات السينما..

لماذا حتى ترى الحلم أكبر منها.. وهل حقًا هي تذاكر وتتفوق ؛ لتثبت أنها أذكى وأجمل ، ولمن تريد أن تثبت : للآخرين أم لنفسها؟! "مراد الحسيني" طالب بأكاديمية الشرطة ، وابن ناظر الثانوي ، وابن أخت تهاني وكيلة مدرسة صفط الإعدادية ، يضع لها رسالة حب في صفحات الكتب.. حمقاء وداد.. حمقاء.. من هي ليهيم بها شخص مثل مراد بعد تلك اللحظات.. ألم يسأل والده عنها ليخبره قصتها ، وكيف تتصدق عليها خالته بالكتب والاهتمام والشفقة؟!

ربما أرسل لها هذه الكتب ، كنوع من الصدقة هو الآخر.. ولكنها لا تستطيع ألا تضم الكتب إلى صدرها.. وأن تسيطر على أصابعها ، أو توقف عينيها عن البحث بين السطور.. فلتبحث كيف شاءت ، وستعلم أنها خاطئة. فلتحلم.. بالأمس مشطت الروايات جميعها .. لكن نجية ما تركتها تبحث في كتاب الرياضيات والنحو.. أخبرتها أنها يجب - ككل جمعة - أن تغسل الملابس وتمسح البيت.. وألقت كتاب الرياضيات جوارها على الأريكة ،

والتقطت كتاب النحو الخارجي تمشطه هو الآخر ، صفحة تلو الصفحة ، وفي منتصف صفحات الكتاب كادت أنفاسها تتوقف ، عندما رأت شيئًا ما مكتوب على هامش السطور.. كاد قلبها يقفز خارج صدرها .. ليست هناك رسالة ولا زهرة .. لكنها وجدت عشرة أرقام.. إنها أرقام هاتف..

وأطبقت الكتاب تغلقه بسرعة دون وعي ، وعادت تفتحه من جديد .. نعم مازالت الأرقام موجودة.. لا تتخيل.. هي لا تحلم.. مراد أرسل لها رقم هاتفه.. ربما كان هذا بطريق الصدفة والخطأ..

نعم هو خطأ غير مقصود وصدفة غير محسوبة .. ولكن لو كان هذا الرقم على صفحة إحدى الروايات .. لربما كان خطأ ، ولكنه على كتاب النحو الخارجي.. اشتراه من أجلها وحدها ، والرقم بالتالي لها وحدها.. ستخرج.. ستذهب إلى أقرب محل وتطلب الرقم.. هو الآخر في إجازة العيد.. ليس في كليته العسكرية.. ينتظر أن تتصل به ، ولكن ماذا تقول له؟!

ستشكره.. نعم ألا يستحق أن تقول له شكرًا.. لقد تمنت أن تسأل تهاني عن رقمه لتشكره لكنها خجلت .. وها هو الرقم بين يديها .. أرسله ووحده يريدها أن تحادثه.. ستحادثه وتقول ببساطة "صباح الخير.. أنا وداد".. ماذا لو سألها كيف عرفت رقم هاتفه.. ماذا لو.. فلتهدأ إنه ابن الناظر.. إنها ابنة نجية وجابر وأخت محمود.. لا لن تذهب.

التقطت قلمًا صغيرًا كي تمحو الرقم ؛ حتى تغلق في وجهها باب الجنون والاندفاع ، وفتحت الصفحة ونظرت إلى الرقم في جنون ، ومرت بقلمها الأسود عليه مرات عديدة حتى أصبح بلا ملامح ، وأغلقت الكتاب

واتسعت عيناها ، وهي تسمع بداخلها صوتًا يردد لها الأرقام ، التي شطبتها بكل الوضوح.. وداد حفظت الرقم فكيف من رأسها تمحوه!!

أمضت الجمعة بأكمله تفكر وتحدق في الفراغ.. كيف تلتقي محمود إن جاء صباح العيد.. هل تضمه إلى صدرها ، وتخبره أنها ذهبت أكثر من مرة إلى حيث يقف خميس بسيارته ؛ لتسأله عنه وما استطاعت.. هل تصفعه على وجهه ألف صفعة ، وتخبره عن الهمزات واللمزات التي تراها وتسمعها، منذ صاح هو في وجه مرزوق ، يطلب منه الابتعاد عنها.. هل تخبره أن مسعود بائع الخضر تطاول عليها ، وعرض عليها أن تذهب إلى غرفته.. هل تمزق أوراق المائة جنيه فوق رأسه ، وتطرده من بيتها؟!

كل المشاعر تتلاطم في صدرها ، منذ عودة وداد بالنقود والأخبار يوم الخميس.. نجية لا تعلم سوى أنها ستخبر سيدة عن كل شيء.. ستطلب مشورتها.. ستقسم لها أنها ستحضر محمود إن جاء صباح العيد ؛ ليقبل يديها وقدميها هي ومرزوق ليصفحا عنه.. وحدها تعلم أنها منذ جاءت صفط لا أحد لها سواهما .. ألا يكفي أنها ما تخلت عنها بعد كل ما حدث..

العيد سيأتي بعد أربعة أيام.. لو صفحت سيدة ، وهي تعلم أنها ستفعل .. ستخبر محمود ألا طريق أمامه ، سوى أن يذهب معها وأمام الجميع إلى بيت مرزوق ، ثم يعود ليحيا معهم.. إن كانت قصة زواجها القديمة هي ما تثيره فلن تفعلها.. لن تفعلها ؛ لأنها تعلم أنه ما عاد من الممكن أن تفكر فيها من جديد مرة أخرى.. قد يصفح مرزوق .. وقد تبتسم

سيدة في وجه محمود ، وتضع كفها على رأسه ، وهو يقبل يديها .. لكن لا أحد منهم جميعًا سيعاود التفكير في قصة الزواج هذه..

وبألم شق صدرها ، انحنت تلتقط حذاءها الأسود القديم من تحت الأريكة الخشبية المتهالكة في صالة البيت ، ووضعت طرحة رأسها السوداء ، واستدارت تحادث وداد ، التي كانت تقف في المطبخ قائلة:

- ما تخرجيش وإن زهقت تعالي عند خالتك سيدة .. بس اقفلي الباب كويس.. سكيه بالمفتاح سكتين..

ومالت وداد بجسدها من خلف باب المطبخ ، وابتسمت ، وهي تقول:

- من امتى يا أم محمود؟! خايفة على إيه.. المية جنيه؟!

وفي حيرة أجابتها:

- لأ.. إحنا بقينا من غير راجل.. سكي الباب زي ما قلتلك لو حتيجي..

وهزت وداد رأسها وهي تخبرها أنها لن تخرج.. ستقرأ.. لديها كتب تريد أن تقرأها وتضمها وتشمها وتراقصها.. كتب أرسلها لها مراد الحسيني..

سارت نجية في طريقها خارج حارة الرحمة ، متجهة إلى منزل مرزوق، وهي مازالت غارقة في أفكارها.. لماذا مازال يراودها الأمل في أن.. أن يتزوجها مرزوق .. لقد أقسم لها ذاك اليوم أنه يحبها.. هل مات الحب من

طعنة محمود له؟!

وانتفضت وهي تراه يقف بحماره على مدخل الحارة الضيقة ، وبلا وعي منها بصقت نجية على الأرض ، وهي تمر من جواره.. تدعو الله ألا تسمع صوته .. لو قال كلمة لخلعت حذاءها القديم ، وانهالت به على رأسه.. ولم ينطق مسعود شيئًا ، رغم أنه رآها تبصق بجواره.. ومضت في سكون حتى دخلت بيت مرزوق ، ووقفت أمام بابه ، تخرج مفتاح البيت من صدرها، كما تفعل كل يوم وأدارت المفتاح .. المفتاح يدور .. لكن الباب لا يفتح، وعادت تنظر إلى المفتاح .. نعم هو ذاته.. مفتاح بيتها تضعه داخل كيس نقودها الصغير.. ورفعت عينيها تنظر إلى الباب ؛ لترى أحدهما مشنوقًا أعلاه والآخر مشنوقًا أسفله.. وصرخت نجية صرخة كبيرة مذبوحة في جنون ، وهي لا تصدق عينيها !!

* * *

إنها أقفال سوداء حديدية.. من رشقها ومتى ؟! ما غابت سوى الأمس ككل جمعة.. أين ذهبا وأين ذهبت سيدة.. مريضة.. أخذها مرزوق إلى المستشفى .. ماتت؟! لا شيء مثل هذا يحدث في هذه الشوارع الضيقة ويخفى على أحد من سكانها فلم يضع هذه الأقفال الحديدية الكبيرة على باب البيت.. نجية لا تفهم.. لا تفهم أبدًا واستدارت تنظر حولها ، ولكن إلام تنظر وعمَّ تبحث؟! بيت الحلوجي من طابق واحد ، ليس به سوى شقتين إحداهما مهجورة ومغلقة منذ بناء البيت ، والأخرى هي ما تقف على بابها..

وصرخت من جديد.. أين ذهبا؟! أين ذهب مرزوق الحلوجي ، وأين تذهب هي الآن؟! هبطت سلالم البيت ، وهي في ذهولها مازالت تغرق ووقفت تنظر إلى الشرفة ، التي حلمت يومًا بالسكن خلفها ولطمت وجهها في ذهول ، وبعد لحظات أفاقها صوت ، وهو يستعد لفتح المحل الذي منحه إياه مرزوق منذ أعوام ليصبح مصدر رزقه هو وعائلته.. سمعت صوت وليد يأتيها من بعيد ، وهو يقول:

- أم محمود.. مالك.. هي أم مرزوق تعبانة؟! فيه حاجة..

نظرت إليه في ذهول ، وبعد أن أعاد عليها السؤال مرات كثيرة ، أخبرته عما رأته وتركها ليهبط بعد لحظات ، ولتسأله هل رأى حقًّا ما رأته على باب البيت ، وأجابها في ذهول:

- مسمروا الشقة إمتى ؟ وراحوا فين ؟ وحيرجعوا إمتى يا ترى ؟!

أخفضت نجية رأسها ومضت في سكون.. مرزوق رحل ولن يعود.. لقد كرهها وكره كل شيء.. كان يتحاشى الحديث معها.. كان يتعمد أن يتأخر حتى لا يجدها .. كانت تظنه يفعل من أجل سكان الحي ، ولكنها الآن تعلم أنه أخذ سيدة ورحلا ، ولن يعودا..

كانت تسير وخطواتها تترنح.. كانت تخطو ، وهي تكاد تبكي ، ولا تعرف إن كان مازال بإمكانها أن تبكي.. كانت تتمنى أن تصرخ وتلعن ، ولكن من يسمعها ؟ ومن تلعن؟!

هل تلعن سكان الحي الذين جرحوها وجرحوا مرزوق ؟.. أم تلعن

محمود؛ الذي منحهم الفرصة ليشعلوا في قلبها وقلبه حرائق الألم ، ويطفئوا الأمل ، الذي ألقاه هو في ضلوعها يوم طلبها للزواج؟!

هل تلعن مرزوق؟! نعم تتمنى لو تصرخ في سماء صفط اللبن بأكملها، وتلعن مرزوق الحلوجي.. يوم أخذها خلف ظهره ؛ ليحميها من صفعات زوجها ، عندما كانت تحمل وداد في أحشائها.. يوم أوهمها أنه رجلها .. أنه أبوها وأخوها .. ويوم خرج بزوجها ، وعاد به جثة هامدة ليبكي ، طالبًا منها أن تسامحه.. لقد عبث برأسها وأخبرها أنه يحبها ، وهي أم لشاب وشابة.. يحبها ويريدها .. جعلها تحلم.. جعلها تنبض بالأمل والرغبة والشوق..

الحلوجي رشق في بابه قفلين من الحديد ، ورحل دون جملة دون كلمة واحدة ، وشعرت أنها تترنح ، وألقت بجسدها على أول رصيف مرت به ، ولطمت رأسها بكفيها.. ما عاد في حياتها رجال ، بل كل من عرفتهم لم يكن أحدهم يومًا رجلًا..

جابر لم يكن رجلًا.. محمود ليس رجلًا، وها هو مرزوق الحلوجي يعلن اليوم بأقفاله الحديدية أنه هو الآخر ما كان يومًا رجلًا.. لمن يتركها؟! لمن تركها؟! ومن خلف دموعها نظرت حولها تبحث ، فرأت على البعد مسعود، يرمقها بعينيه ، وحماره يقف إلى جواره!!

أخبرته تهاني أنها منحت وداد الكتب ، وأخبرته أنها قالت لها أن مراد

هو من أرسلها.. لماذا لم يكتب الرقم على صفحة إحدى الروايتين.. خشي أن تتصفحهما تهاني أو دعاء.. لن تفتح إحداهما كتاب نحو أو رياضيات.. ولكن من يقول إن وداد نفسها ستبدأ بهما ، وإن فعلت فهل تقرأ جميع الصفحات.. وفي الأيام الأولى من الأجازة؟!

لقد فكر مراد في كل شيء.. الرقم الذي كتبه على إحدى قطع دروس النحو ، لا أحد يعرفه .. إنها شريحة جديدة ، اشتراها ووضعها في هاتف والده القديم .. فعل ذلك تحسبًا أن تجد تهاني أو دعاء الرقم ، قبل أن تصل الكتب إلى يدها .. لن يعرفا أبدًا من صاحب هذا الرقم .. ولن يخطر في بال إحداهما أنه هو من كتبه ، أو أن لديه رقمين أو هاتفين.. ولكن وداد نفسها قد لا ترى الرقم .. وإن رأته ، فقد لا تفهم ، ولماذا يظنها تفهم إن كان هو نفسه لا يفهم ما الذي جعله يفعل كل هذا؟!

يوم فتح الباب باندفاع في مكتب والده ورآها .. رأى في عينيها الواسعتين شيئًا لم يره يومًا في عيني فتاة.. رأى حنانًا ، ورأى دمعة تبحث عن يد تلتقطها.. رأى دهشة .. ورأى جمالًاوضياء غمرا روحه..

إنه مجنون.. لم تلتق عيناهما سوى لحظات.. فلينتظر شهورًا أو أسابيع حتى تصل وداد إلى الصفحة ، وتجد الرقم .. وحتى إن وجدته لمَ يظنها تطلبه..

وتململ في مقعده.. إنها التاسعة صباحًا .. مازال يستيقظ باكرًا.. ظن عند عودته أمس الأول من الكلية أنه سينام حتى الظهيرة .. لكنه استيقظ اليوم وبالأمس ، كما كان يفعل في الكلية سيخرج.. فليذهب إلى السينما أو

إلى أحد أصدقائه ، أو ربما ذهب إلى تهاني.. واختار ملابسه التي سيرتديها ، بعد أن ألقى بالبيجاما ، التي كانت على جسده الطويل على حافة سريره ، وارتدى بنطلونه الجينز الذي اختار ارتداءه ، ومد كفه ملتقطًا القميص الكاروه ، الذي وجده ونظر إلى صورته في المرآة..

إنه وسيم في وسامة أبيه.. له أنفه المعتدل وشفتاه الواسعتان الممتلئتان .. عيناه فقط هي عينا كوثر المستديرتان الحانيتان.. رحمها الله.. كم يشتاقها.. لو كانت هنا ، لقص عليها قصته مع وداد ، وابتسم في سخرية.. متى كان له معها قصة؟!

انحنى يخرج حذاءه من خزانة ملابسه ، وسمع الهاتف يدق لينتفض واقفًا في ذهول.. إنه الهاتف القديم.. إنه الرقم الجديد الذي اشتراه ، وكتبه على صفحات كتاب النحو ، وأسرع يلتقطه من على وسادته ، ونظر إلى الرقم في ذهول.. إنه رقم هاتف أرضي.. من أي منطقة هذا الرقم؟! هل ينتظر حتى يقطع الاتصال ، وهو يفكر من أي منطقة هو ، أم تراه يخشى ألا تكون هي.. وأسرع يفتح الخط.. يجب أن يكون حذرًا.. ربما وجدت تهاني الرقم ، وتقوم بتجربته ، وسمعها تقول في صوت يقطر حيرة:

- آلو..

ليست تهاني.. الكلمة ليست كافية ليجزم .. لكنه لن ينتظر ، وعاد يسمعها تكرر نفس الكلمة ، وقال هامسًا:

- وداد؟!

كان واضحًا أنها تتحدث من شارع مزدحم.. أبواق السيارات وضوضاء الصباح تملأ أذنيه ، ورغم هذا سمعها تقول:

- أيوة.. أنا وداد!!

* * *

لا تصدق أنها حادثته.. لا تصدق أنه كان ينتظرها .. ولا تصدق أن أول كلمة قالها هي اسمها..

مضت في طريق عودتها إلى البيت ، وهي تحاول أن تسرع قبل أن يراها أحد ممن يعرفها.. إنها تشعر أن أي شخص ينظر في وجهها ، سيرى وجه مراد.. سيقرأ رقم هاتفه ويقرأ اسمه.. إنها لا تصدق.. ماذا قال لها؟! قال "كل عام وأنت بخير" ، وردت له التهنئة.. ليس هذا كل شيء.. طلب منها أن يلقاها في الغد أمام مبنى المدرسة.. ماذا قالت؟! بم أجابت هل سألته لماذا.. أبدًا.. أخبرته أنها ستنتظره هناك في مثل هذا الوقت..

ونظرت حولها في لهفة ، تبحث عن أحد المارة لتسأله ما هو هذا الوقت.. نظرت فلم تر أحدًا .. وأعادت التحديق حولها جيدًا ، فرأت وجه أمها تجلس على الرصيف المقابل لشارع بيتهم ، وأفاقها الذعر.. أفاقها وجه أمها ، ورأسها ملقى بين كفيها ، وأسرعت تركض نحوها لتقف أمامها ، وهي تبكي قائلة :

- أمي.. في إيه؟!

ورفعت نجية وجهها لتنظر في وجه ابنتها الشاحب ، ومن خلف دمعات كثيرة بدأت تزحف على وجنتيها ، قالت:

- وداد.. إيه اللي نزلك؟! في إيه؟!

عندما مدت وداد ذراعها لنجية ؛ لتنهض عن الرصيف مستندة إليها ، شعرت أنها تكاد تقع عليها ليتكورا معًا على الرصيف .. إلا أنها جمعت كل قوة صباها ، وأمسكت بأمها بين ذراعيها لتخطوا معًا نحو البيت..

كلاهما تائه حائر.. كلاهما ترتعش ساقاه ولا يفهم.. مرزوق خرج من حياة نجية.. خرج من صفط اللبن ولن يعود.. وعادت نجية تنفض رأسها في ألم.. لا بل سيعود.. ربما خرج إلى مكان ما أو زيارة ، أو ربما أخذ سيدة لقضاء مناسك الحج..

ومالت على ذراع ابنتها وهي تقاوم السقوط ، عندما تذكرت أقفال الحديد الصدئة المرشوقة على الباب.. هل يذهب في زيارة ويرشق بابه بأقفال الحديد .. بل هل يخرج دون أن تخبرها سيدة ، أو ترسل من يعلمها حتى لا تحضر؟! مازالت تذكر يوم خرجت لرؤية مرزوق في المستشفى .. لقد قالت يومها إن أعوامًا مرت دون أن ترى فيها الشارع.. كيف رحل.. ألم يفكر فيها !! ألم يفكر في هذه المسكينة التي تستند على ذراعها.. ولكن لم يفكر؟! هل صدقت حقًّا أنه عائلها.. هل صدقت أنه يحبها؟! ما بقي على الأرض حب أو صدق ، فليمت مرزوق .. ولكن كيف تحيا هي ووداد.. ماذا تفعل مع محمود عندما يحضر بعد الغد..

وبكفها الطليق ، دقت نجية رأسها لتنتفض وداد من شرودها ، وتنظر في وجهها ، وترقب جيوش الدمع تسيل عليه .. أخبرتها أمها وهي تنهض عن الرصيف أن مرزوق رحل إلى الأبد..

لماذا تكاد نجية تموت؟! لأن مرزوق وأمه ينفقان عليهما؟! أم لأنها حقًّا تحبه؟! أو ربما كان محمود على حق؟! مرزوق كره نجية وملّها.. ونفضت وداد رأسها هي الأخرى في ألم.. لابد وأن عنده سببا.. العم مرزوق الذي طلب أمها يومًا للزواج ، له كل الحق في أن يتخذ قرارًا آخر كبيرا.. قرارًا بأن يرحل.. لم تنته الدنيا.. هي وأمها لن تموتا.. محمود يعمل.. وداد ستحاول أن تعمل هي الأخرى .. ولكن كيف تعمل ودراستها؟! وشعرت أنها هي التي تكاد تسقط بين ذراعي أمها .. إنها تشعر بدوار يأكل رأسها .. لكنها لن تسقط.. ما بقي على البيت خطوات ، يجب أن تقطعهما ، وتصل بأمها إلى باب البيت ، وليسقطا معًا كيف شاءتا بداخله ، بعيدًا عن هذه الأعين.. أمها لن تخرج في صباح الغد.. لن تذهب إلى سيدة ، فكيف تخرج وداد إذًا وما عساها تقول؟! كيف تذهب إلى موعد مراد؟!

- مراد؟!

وخانتها قواها لتشعر بها نجية تسقط بين ذراعيها ؛ لتصيح وهي تجذبها قبل سقوطها ، وتمتمت وداد أنها بخير.. ودخلت إلى مدخل البيت الصغير المتهالك ؛ لتخرج نجية مفتاحها ؛ حيث ألقت وداد بعدها بجسدها على الأريكة ، وسقطت إلى جوارها ، وهي تلطم رأسها في جنون.. كانت تهذي بكلمات كثيرة ، وهي تسأل أين تذهب وماذا تفعل ، وكيف تمضي

الحياة؟! كانت وداد تنظر إليها في وجوم ، وهي تستعيد وجه مراد وصوته ، وتسأل ما الذي فعلته ، وهل حقًّا تلقاه وإن التقته ، ماذا تفعل وكيف تمضي الحياة؟!

لطمت الأم رأسها بكفوفها ، وجذبت غطاء رأسها ليسقط بعيدًا عنها، وانفجرت تبكي ، وهي تلقي برأسها بين كفيها .. وعندما أغلقت عينيها ، رأت صورته مرسومة على أصابعها ، وسكت دمعها ، وهي ترى وجهه على كفيها..

حقق الله أمنيتها.. تمنت يومًا أن تكون مثله ، وها قد أصبحت فعلًا! فتحت نجية عينيها ، وأخذت تنظر إلى راحتي كفيها ، ترقب وجهه الهادئ مرسومًا عليهما.. رأت وجه حمار مسعود على راحتي كفيها ، وأطلقت ضحكة صغيرة ساخرة ، كأنها تخبره أنه مازال أفضل منها .. إنه حمار في يد رجل.. رجل سيبقى مسئولًا عنه .. لكن هي أصبحت حمارًا تسوقه يد المجهول!!

لم تكره نفسها يومًا ، كما كرهت نفسها هذا الصباح..

هذا الصباح كان حزينًا جدًّا.. بقيت من السابعة ترقب وجه أمها في صمت ، وهي تحاول أن تفكر في شيء سوى موعد التاسعة ، ولم تستطع.. كانت تنظر إلى وجه نجية ، الذي شعرت أنه شاخ أثناء نومها ألف عام ،

وتبحث عن كلمة .. عن لمسة .. عن شيء ما تقوله فلم تستطع..

كل ما استطاعته وداد أنها ، في الثامنة والنصف ، ارتدت ملابسها ، وخرجت إلى نجية أو إلى ما تبقى منها وأخبرتها أنها ستخرج.. لم تسألها أمها أين تذهب ، أو متى تعود .. بل رفعت عينيها تنظر إليها في لوم ، كأنها تعاتبها لأنها تخرج وتتركها..

لم تكره نفسها يومًا كما كرهت نفسها هذا الصباح ، عندما قالت إنها تريد جنيهين.. قالتها في خجل.. في ذل .. لكنها لم تستطع ألا تقول.. هي بحاجة إلى الجنيهين ؛ لتذهب إلى مدرستها وتعود منها.. مراد ينتظرها هناك.. تركت أمها مصلوبة على أريكتها الخشبية ، غارقة في شحوبها وصمتها ؛ لتخرج إلى لقاء "ابن الناظر"..

أي جنون وأي دناءة.. أي قسوة وأي حماقة في قلبك يا وداد؟!

هل يساوي لقاؤه أن تأخذ الجنيهين من محفظة نجية الصغيرة ، وهي تعلم أنه قد تمضي أيام لا يعلمان فيها كيف يدبران مثلهما.. لم تضخم الأمور؟! محمود سيأتي في أول أيام العيد ، ويعلم برحيل مرزوق.. لقد أصبح يعمل.. أما منحها مائة جنيه ، فلماذا تشعر بكل هذا الألم ؛ لأنها أخذت لنفسها جنيهين؟! أخذت جنيهين للقاء مراد.. تركت أمها في يوم أسود بحثًا عن لقاء شاب ، تعرف أنه عندما ينظر إلى ملابسها الآن قد يصيبه الغثيان.. هذا البنطلون الأسود ، الذي أصبح كالحًا باهتًا في لون أيامها هي وأمها ، وهذا القميص الذي عفى على لونه وتصميمه الزمن سيخبر مراد من هي حقًّا ، ولكن هل هو لا يعلم؟!

ماذا تريد؟! لم يجبرها أحد على لقائه .. ولم يخدعها أحد أو يوهمها أنها ستأتي إليه أنيقة .. وحدها حادثته .. ووحدها قبلت لقاءه .. ووحدها تركت أمها شبه ميتة ، وجاءت وهي تعلم أنها لا تملك سوى هذا الحذاء ، وهذه الملابس.

وهبطت من سيارة الميكروباص التي كانت تستقلها ، وخطت نحو مدرسة الجيزة الثانوية للبنات ، وفتحت حقيبتها الجلدية المتهالكة ؛ لتلقي فيها بالقروش ، التي منحها إياها سائق الميكروباص وابتسمت في ألم..

ماذا جاءت تفعل؟! الحب ليس للفقراء!!

انتفض قلبها وهي تراه يقف بجوار تلك الشجرة ، التي وجدت محمود خلفها يوم رأته.. هو أيضًا لا يرتدي ملابس كليته العسكرية ، بل يرتدي ملابس لها لون وقماشها لا يصارع الموت.. وشعرت بخطاها تتبعثر ، عندما رآها ورأت على وجهه ابتسامة حانية سعيدة بحضورها ، وتقدمت نحوه لتقف أمامه ، في سكون طال لحظات ، ليفيقها صوته قائلًا:

- أول مرة أشوف بنت مواعيدها مضبوطة..

ورفعت عينيها الواسعة الجميلة ، ونظرت إليه في لوم.. رأى بنات كثيرات إذًا .. عم يبحث مع فتاة مثلها.. ربما يبحث عن انضباط المواعيد..

وابتسمت ابتسامة صغيرة مريرة ، وعاد يبتسم قائلًا:

- مش حنفضل واقفين كدا.. تعالي يا وداد ، نروح نقعد في مكان..

وأشار لها بيده وسار إلى جوارها وسمعت صوتًا كصفارة ، ورأت مصابيح سيارة صغيرة تنير وتُطفأ ، وتقدم مراد يفتح لها بابها ويدعوها للركوب .

إنها سيارة كحلية لا تعرف نوعها ، أو من أي بلد خرجت .. لكنها مازالت تعلم من أي حي خرجت هي.. خرجت من حي لا يملك قاطنوه السيارات الخاصة إلا القلائل ، ومن يملكها لابد وأن يأتيه يومًا يغادر فيه الحياة من الحي بأكمله..! لكنها رفعت رأسها ، وشحذت نفسًا عميقًا من صدرها ، ورفعت ساقها اليسرى لتدخل باب السيارة الأيمن ، الذي فتحه لها حيث ارتطمت عيناها بدائرة صغيرة على أعلى ركبتها.. دائرة لثقب قديم في بنطلونها.. ثقب حاولت يد "الرفا" سده .. لكن آثاره مازالت واضحة ، وأرخت ساقها على الأرض ، والتفتت تنظر إلى وجه مراد ، كأنها تحاول أن تعرف إن رأى الدائرة أم لا ، ولكنها وجدته يبتسم في دهشة كأنه يسألها لماذا عادت بقدمها إلى الأرض ، وسمعها تقول في صوت هادئ:

- آسفة.. مش حاقدر أركب عربيتك!!

لماذا استجابت له.. لم قبلت أن تلقاه.. لا تعلم.. إنه طفل.. إنه أصغر منها بحوإلى عشرة أعوام.. إنه حتى لا يريدها في لقاء عمل .. لقد طلب أن يلقاها على كورنيش النيل.. كورنيش النيل مكان لا تستطيع فيه أداء عملها!!

ابتسمت في سخرية.. كان عادل خطيبها يحب أن يسير بها على كورنيش النيل.. النيل الساحر!! لا شيء تراه لوزة ساحرًا في عينيها .. بل مازالت عيناها متورمة ومازال حولها آثار أصابع ذاك العربي الدنيء.. ماذا ستخبر محمود عندما يسألها عن هذه الكدمات.. هل تخبره ما أخبرت به منة ، ومن يعملون معها في المستوصف؟.. نعم ستفعل.. إن سألها ستخبره أن لصًّا حاول سرقتها ، وسدد لها بعض اللكمات ، ثم خطف حقيبتها وركض.. لماذا قبلت أن تلقاه ، بل لماذا يطلب لقاءها؟.. ربما كان يريد مضاجعتها بالمجان.. هي تعلم أن خميس وحده من يدفع له ثمن مضاجعتها في سيارته .. لكن ربما قام هو بادخار ثمنها.. لا تعلم.. كل ما تعلمه أنها في الطريق إليه.. لقد منحها المستوصف أجازة العيد يومين قبل العيد.. أخبروها أن زميلاتها لهن عائلات وأطفال وأبناء ، لهم أجازات مدرسية .. أما هي فلا ارتباطات لديها، ويجب أن تكون موجودة في المستوصف في أيام العيد..

لا فارق.. العيد عندها كالنيل.. حروف لا معنى لها ولا سحر فيها.. النيل ساحر لمن يخطون على ضفافه ، وهم في حالة حب أو سعادة.. هي لا حب ولا سعادة.. هي لا شيء سوى عاهرة صغيرة حمقاء ، قد تسقط في لحظة في يد رجل شرطة ؛ ليأخذها إلى السجن في قضية دعارة ، وقد تسقط في يد عربي جديد ، يقتص منها لقاء ما فعله معه لص ذكي أو نصاب ماهر..

لقد أقسمت ألا تتعامل مع العرب أبدًا.. ولكن من قال إن المصريين لن يفعلوا بها ما فعله ذاك الدنيء.. الطبيب الذي ساومها على شرفها ، لقاء

شهر من جلسات علاج لأختها كان مصريًّا.. عادل الذي هرب منها ومن مسئوليتها كان مصريًّا.. الدناءة ليست لها هوية أو جنسية .. وها هي في طريقها إلى لقاء دنيء من ذات الجنس.. محمود رجل.. وهزت رأسها في ألم.. ليس رجلًا.. إنه طفل ، ولكن ألا يكفيها ما لديها من أطفال؟!

منة وهبة طفلتان.. ماذا تريد من محمود؟!

انتفضت من مكانها في سيارة الميكروباص ، وهي تطلب من السائق أن يقف.. أخبرها محمود أنه سيلقاها أمام مبنى ماسبيرو .. ولقد تجاوزته السيارة منذ لحظات.. وهبطت ، وهي تنظر إلى النيل.. إنه ماء أسود داكن.. لا أمواج فيه ولا روح.. من يحب النيل ولماذا يحبوه؟!

رأته يقف بعيدًا يرقب النيل.. محمود وسيم .. كان واضحًا أنه تحمم وقام بحلاقة شعرة... لكن فقره واضح أيضًا.. قميصه الرخيص وحذاؤه البسيط.. ماذا يرى طفل مثله في النيل .. بل ما الذي يراه فيها ، هي ذاتها ؛ ليطلب لقاءها على ضفافه.

هو يرى جسدًا رخيصًا يناسب فقره وقروشه القليلة.. طفت على وجهها ابتسامة صغيرة ، وهي تتقدم نحوه .. تحاول أن تتنبأ بالرقم الذي سيعرضه عليها.. سيعرض عشرين جنيها ، وقد يطلب منها أن تدبر له المكان ، الذي يطلق فيه العنان لرجولته الوليدة ، والتي تعلم أنها أول من فجرتها فيه!! ستقبل بالعشرين جنيها .. لكنها ستخبره أن عليه وحده أن يدبر المكان ، إن كان يريدها وحدها ، قبل أن يلتهمها خميس..

ابتسم محمود .. هو يراها تبتسم ، وتمد يدها إليه تصافحه.. لم يقل شيئًا ولم تقل شيئًا.. سارا في هدوء معًا إلى جوار النيل.. وعند أول مقعد خشبي خالٍ ، أشار لها بكفه لتجلس ويجلس إلى جوارها ، ثم قال أولى كلماته.. قال لها "كل عام وأنت بخير"..

وهزت رأسها في هدوء ، دون أن ترد عليه التهنئة.. وعاد ينظر إلى وجهها.. عيناها مختبئتان خلف نظارة سوداء رخيصة ، وجهها خال من الأصباغ الكثيفة ، التي يراها عندما تلقاه هو وخميس.. حتى ثيابها مختلفة.. لم يكن يعلم أنها محجبة.. وشهق شهقة صغيرة.. لوزة بدت في عينيه كأنها وداد.. ملابسها.. حجابها.. وسكونها.. إنه لا يصدق أنها لوزة التي يسمع كلماتها الماجنة من خلف باب السيارة ، وهي تضاجع خميس ، أو عندما تخلع عنه ملابسه عندما يحين دوره.. لا يصدق!!

بعد أن طال الصمت ، استدارت تنظر في وجهه قائلة:

- إيه يا محمود؟ عايز إيه.. طلبت تقابلني الصبح ليه؟!

لو أقسم لها أنه لا يعلم.. هل تصدقه!! وأنها لم تغب عن رأسه يومًا أو ليلة .. هل يعني لها هذا شيئًا.. لو أخبرها أنه حائر.. يريد من يتحدث إليه ، ويخبره عن كل ما فعل وكل ما حدث ، ويسألها رأيها في زيارته بعد غد لأمه .. هل حقًّا تهتم.. وهل يعني لوزة شيئًا على الأرض ، سوى أن تمنح جسدها وتقبض الثمن.. لا يعلم .. لكنه لم يجد أحدا سواها يتصل به.. لم يشعر برغبة في الحديث مع أحد سواها.. بلا وعي أو تفكير ، مد يده في جيبه، وأخرج منها ورقة من فئة الخمسين جنيهًا ، ومدها إليها وابتسمت..

إنها الأجرة كاملة.. مدت أصابعها لتلتقط الورقة ، وقالت في مرارة ساخرة:

- فين؟! هنا عالرصيف؟!

لكن محمود أسرع يقول:

- دي عيديتك يا لوزة.. بعت لأمي مية جنيه ، وحا آدي وداد أختي ورقة زيها .. كل سنة وانتي طيبة..

اتسعت حدقتا عينيها في ذهول ، والورقة النقدية مازالت معلقة بين أصابعها .. كأنها لا تصدق ، وعادت تستوضحه قائلة:

- يعني دول مش تمن..

وعاد يقاطعها:

- والله عيديتك..

رأى دمعة صغيرة تسقط على خدها ، ومد أصابعه يمسح عن وجهها قطراتها ؛ لتنتفض في ذعر لم يفهمه .. وعندما سألها ، خلعت نظارتها الرخيصة لتبدو آثار الكدمة تحت عينيها ، ونظرت إلى النيل ، وانطلقت تحكي له عن كل ما كان .. وكل ما حدث في تلك الليلة ، وفي كل الليالي ، منذ كانت يومًا عذراء ، تخطو إلى جوار خطيبها على ضفاف النيل وكورنيشه الساحر!!

ألقت بحجابها على فراشها ، وهي مازالت تتحرك كدمية من خشب.. انتفض جسدها ، وهي تسمع آذان العصر ، ينطلق من الزاوية القريبة.. لا تصدق أنها كانت مع رجل من التاسعة صباحًا حتى الثالثة عصرًا .. ألقت وداد بجسدها المرتعش على الفراش .. لقد ركبت معه السيارة ، بعد أن أعلنت أنها لن تفعل..

مراد نظر في وجهها وابتسم ابتسامته الحانية ، ثم أخبرها أنه لا يقبل اعتذارها.. كيف أرخت رأسها ودخلت إلى جواره.. لا تعلم.. لكنها دخلت ترقبه ، وعيناها تتنقلان بين وجهه ، وآثار الثقب في بنطلونها.. الثقب الذي نسيته تمامًا ، بعد أن انطلق بسيارته في هدوء وصمت .. كأنه هو الآخر كان يبحث في داخله عن شيء يقوله ، أو عن إجابة السؤال الكبير لماذا وداد؟!

وكان هناك سؤال كبير آخر ، داخل وداد : لماذا؟!

ربما لكي ترى عالمًا ما عرفته يومًا.. ربما لترى شوارع ماظننتها موجودة.. عندما عبر بها باب نادي الشرطة بمنطقة الزمالك ، ابتسمت في سخرية.. كانت تظن أن كلمة نادي هي نفسها كلمة ثوب عار أو مايوه أو قنينة خمر.. جميعها أشياء مبتذلة مقصورة على الأثرياء والمدللين.. لكنها دخلت ناديًا ، وجلست أمامه على إحدى طاولاته لترى أشجارًا وأزهارًا.. وحمامًا كبيرًا للسباحة ، كالذي تراه على شاشة التليفزيون.. رأت نساء محجبات ، وفتيات مثلها ، في بساطتها ، وأخريات أنيقات .. لهن شعور مصففة ، وتفوح منهن رائحة عطور تسلب العقول.. وبحثت بعينيها عن ثقوب

في ملابسهن ، ولم تجد .. ربما كن يذهبن إلى "رفا" أكثر مهارة من عم صالح ، الذي تأخذ نجية إليه ملابسها وملابس محمود وجابر رحمه الله.. أو ربما كانت ثيابهن بلا ثقوب.. لكن وداد مثلهن!! إلى النادي ذهبوا بحثًا عن لحظات هدوء.. نسمة هواء نقية.. صحبة يستمتعون بها .. وقت يشعرون فيه أنهم بشر ، لا كلاب ضالة تركض في أكوام القاذورات ، وتلهث خلف القروش ولقيمات الطعام ؛ حتى يسقطوا قتلى من اليأس والجهل كما سقط والدها يومًا!

وداد تذكر كيف ارتخت كل أعضائها وابتسمت ، وهي تشعر أن عظام جسدها النحيل تهدأ ، وأن جفنيها يسقطان في كسل لذيذ ، وهي ترقب أجواء النادي .. مازالت تذكر أنها نسيت ثقب بنطلونها ، ونظرت بعينيها الواسعتين المشروطتين في وجه مراد ، وسألته بعفوية فقرها وسذاجة أعوام عمرها القليلة.. سألته دون تفكير: "ماذا تريد؟!" .

ابتسم وهو يجيبها أن كل ما يريده أن يكون معها ، وأن يراها هادئة تبتسم ، كما بدت في عينيه لحظة السؤال..

لقد عرفت عنه الكثير وسمعت منه الكثير عن نفسه.. عن والده.. عن أمه الراحلة.. أخبرها أنه بعد رحيلها كره الحب نفسه .. لكنه تعلم مع الأيام والألم أن الخطأ ليس في الحب.. الخطأ في قلوبنا ورءوسنا..

أخبرها أنه تعلم أن حب الأشخاص خطأ.. حب الأسماء خطأ.. حب الرمز وحده هو الصواب.. وأن هناك رموزا كبيرة ، يجب أن تكون هي عشقنا الحقيقي هي هدف حياتنا.. هناك رموز اسمها الوطن.. الحرية.. العدل، لو

عشق كل واحد منا رمزًا منها ، ووهبه وفاءه ... فإن خارطة الأرض ستتغير.

مراد التقط كفها النحيل ونظر في عينيها ، وسألها ماذا تحب ، ودون تفكير قالت: "أحب العلم".. ضحك وأخبرها أن العلم ليس رمزًا.. ليس هدفًا.. العلم قربان نقدمه لعشق أكبر!!

عينا مراد تحمل دعوة ، تريد أن تخلق منها شيئًا آخر.. شيئًا أجمل.. شيئًا لا يموت.. مراد جمال الحسيني ليس طالبًا وليس رجلًا.. رأته هذا الصباح رمزًا غامضًا تريد أن تفهمه ، وتريد أن تتعلم منه كيف تحب الرموز ، وأي رمز تختار..

رفعت وداد كفها أمام عينيها .. كأنها تبحث فيه عن أصابع مراد.. عن صوته.. عن إجابات لملايين الأسئلة ، التي تتمنى لو تسأله إياها.. هل هو مجنون .. أم هي التي جنت يوم ، تركت له رأسها وأصابعها ليسكب فيها أفكارًا لم تفكر فيها يومًا من قبل ، ويلقي بين أناملها ببذور صغيرة ، تشعر أنها ستثمر أشجارًا وغابات لا تملك حتى ثمن التجوال فيها..مازالت لا تصدق ومازالت لا تفهم .. لكنها تريد أن تكمل.. أن تفهم وأن تصدق .. وكل هذا لا طريق له سوى أن تلقاه ، كما طلب منها بعد أيام ، وقبل انتهاء الإجازة ، وعودة كل منهما إلى مقعد دراسته..

انتفضت وهي تشعر بكف أمها تنقض على كفها النحيل البض ، تجذبها من فراشها ، وهي تصيح في جنون:

- كنتِ فين يا وداد من الصبح لغاية دلوقتِ؟!

لا شيء على الأرض يعيد قلب امرأة ، وقعت في العشق ، أو أخرى خذلها الحلم والحب يومًا كما كان.. لا شيء.. حتى الزمن بكل قوته وجبروت عجلاته لا يفعلها.. عاد كل شيء في حارة الرحمة كما كان.. عادت اللامبالاة تغسل الذكريات .. وعاد سكان الرحمة وصفط يحيون محمود ، ويتبادلون معه النكات والحكايا وسجائر الحشيش ، بعد أن عاد إلى بيته..

عادت رشا تزور وداد ليستذكرا معًا دروسهما ، بعد أن علمت عبير أن وداد هي أرخص معلم خاص لابنتها.. هز الجميع أكتافهم في بلادة!! قصة مرزوق أصبحت قديمة ، ومن الحارات تخرج كل يوم قصة جديدة ، ترسمها أصابع العوز والفقر ، وتضخمها ألسنة ورؤوس الناقمين من العاطلين والفقراء والجهلاء..

وحده قلب نجية وقلب ابنتها ما عادا كما كانا يومًا.. وداد في عشق مراد غارقة ، ونجية من لوعتها وغضبها من مرزوق ، وخوفها من مواجهة الحياة دون وجوده ، أو وجود قروش أمه ، في الألم تحيا ولا تفيق أبدًا..

محمود أصبح يقود سيارة خميس طوال الليل داخل منطقة صفط وما حولها ، وينتظر أن يحصل على رخصة قيادة رسمية ؛ ليتمكن من الخروج خارجها.. هو يدخل البيت قبل خروج أخته إلى مدرستها ؛ ليغتسل ويسقط على فراشه نائمًا حتى العصر.. وحدها نجية تبقى في البيت ، تتخبط كنحلة على حوائطه في ذهول وغضب.. محمود يمنحها ما يمنحه إياه خميس كل

أسبوع.. جنيهات قليلة ، تعلم أنه يستقطع منها ما يكفيه لتدخين السجائر والحشيش ، ومجالسة خميس ورفاقه.. أصبح خميس حقيقة.. أصبح ذكر اسمه في البيت أمرًا طبيعيًا ، بل أصبح له احترامه ، فهو من يعمل لديه محمود ، ومن سواه يقبل به دون رخصة قيادة بالإضافة إلى ماضيه وفعلته..

نجية تمد كفها في نهاية كل أسبوعٍ ، وتأخذ من ابنها ورقاته النقدية في ألم كبير.. تأخذ نقودها من طفلها بدلًامن أن تعطيه.. تغمض عينيها عن أي شيء يقوله أو يفعله ، وكيف تفتحهما ، ويده أصبحت هي العليا.. رفعت نجية رأسها الملقى بين كفيها ونظرت حولها.. يجب أن تجد حلًاّ ما.. وداد تخبو وتتفتح أمام عينيها ، وهي لا تعلم لماذا أو كيف.. ابنتها تبكي ، وهي تعلن أنها بحاجة إلى ملابس ، والشتاء يزحف.. ابنتها أصبحت شابة وملابسها لن تدفئها ، حتى حذاء الكاوتش الذي أحضره لها محمود ، بدأ هو الآخر يتآكل.. تريد أن تشتري لابنتها حذاء وملابس ترتديها..

يجب أن تعمل!! نعم منذ رحيل مرزوق وهي تفكر.. في أطراف صفط مزارع للخضر والفاكهة.. ستذهب وتشتري بعضًا منها ، وتفترش به الرصيف كل صباح .. بل هي تفكر في تنظيف الخضر وبيعها لمن يشاء .. لكن محمود لن يقبل.. سيثير ألف حريق ، وهي أيضًا تخاف أن تفترش الرصيف.. قد لا يشتري منها أحد.. أين تذهب بما يتبقى لديها كل ليلة ، وكيف تحمله من المزارع إلى أرصفة صفط ، وأين تخزن ما يتبقى منه في المساء..

نجية تعلم أنها قد تكسب .. ولكنها تعلم أنها أيضًا قد تخسر وما تملكه

لا يحتمل أن تخسر أبدًا.. إنها تهذي وتتوهم وتهرب من خيار أوحد ، تعلم أنه لا أمامها سواه.. ليس أمامها سوى أن تكون كما كانت.. خادمة.. نعم ولكن حتى هذه لا تعلم كيف تفعلها.. هل تذهب إلى جارتها ، وتطلب منها أن تجد لها بيتًا تعمل فيه..

سينتشر الخبر وتذيع القصة.. حرائق محمود لا تعنيها قدر ما يعنيها انكسار وداد.. ستصبح ابنة الخادمة.. قد تحزن.. قد تتألم .. وقد يجعلها هذا تفشل في دراستها ، بل قد يجعلها هي الأخرى تترك التعليم.. نجاح وداد هو أملها وأمل جابر.. هو الحقيقة الوحيدة التي يجب أن تتمسك بها وتحافظ عليها.. ستجد حلًا.. ستصل بوداد إلى الثانوية العامة ، وستذهب إلى لقاء الوزير عندما يكرم ابنتها هذه المرة.. ستذهب ، ويدها في يد وداد ومحمود وأبلة تهاني.. لمعت عينا نجية وهي تتذكر أبلة تهاني.. نعم.. الحل عندها.. ستذهب إليها.. ستطلب مساعدتها ، وهي تعلم أن حبها لوداد سيجعلها تفعل.. غدًا صباحًا تذهب إليها..

انتفضت نجية واقفة عن أريكتها.. الآن وليس غدًا.. الآن ستذهب إلى تهاني وتلقاها في مدرستها.. ستخبرها أنها تريد العمل.. أي عمل وأي مكان وأي بيت .. أو ربما وجدت لها شيئًا تفعله سوى أن تكون خادمة.. فقط في مكان بعيد.. فقط دون أن يعلم أحد أنها نجية أم محمود ووداد!!

أغلق جمال الحسيني خط هاتفه الصغير ، واستدار بكرسيه الكبير إلى النافذة الصغيرة ، التي تقع خلف مكتبه ، ينظر إلى ساحة مدرسة الجيزة الثانوية.. إنه وقت "الفسحة".. وبحث بعينيه عنها.. هو لا يجدها بسهولة.. كل فتيات المدرسة يتجولن في كل مكان.. يركضن ويلاحقن بعضهن البعض عداها.. هي دومًا تجلس في البعيد مع الكيس البلاستيكي الصغير ، الذي تقضم منه قضمات صغيرة ، دون حتى أن يعرف أحد ما الذي تأكله.. ليست انطوائية ، فأنت عندما تحادثها ، تبادلك الحديث في هدوء وثقة.. لا يوجد معلم لا يحبها أو يفخر بها.. حتى زميلاتها لا يصادقنها ، وفي الوقت نفسه لا يكرهنها ، ولا يزعمن تعاليها عليهم.

لماذا يبحث الحسيني عنها بعينيه؟.. لأنه وعد تهاني أن يخبرها بقراره في الغد.. ماذا يقرر؟ لا يعلم.. سيادة الناظر خائف من وداد.. لا هو خائف عليها.. أخبرته منذ أيام أن والدة وداد تبحث عن عمل ، وأن تهاني أخبرتها بحاجة الحسيني إلى خادمة.. أخبرته أيضًا أن نجية رفضت في إصرار ، عندما علمت أنه ناظر مدرسة وداد.. ولكن تهاني وعدتها أنها لن تخبر الحسيني ذاته .. لكن تهاني قالت إنه يجب أن يعلم من هي المرأة التي ستعمل في بيته ..

الحسيني خائف.. من يدري .. قد تكون المرأة لصة.. سيئة السلوك.. خبرته مع الخادمات تجعله لا يؤمن بوجود خادمة لا تسرق أو تهمل.. لكن وإن كان سيبقى بإمكانه أن يسرّحها في هدوء ، ودون خسائر.. مم يخشى إذًا !! سيبقى في عينيها لا يعرف من هي ، ولا يعرف أنها أم أفضل

طالبات مدرسته ، وأحبهن إلى قلبه وقلب كل معلميها..

نجية.. نعم تهاني أخبرته أن هذا هو اسمها.. نجية لن تكون لصة ، ولن تكون سيئة.. من أنجبت ورَعَت وداد ، لا يمكن أن يرفض عملها عنده، أو أن يتشكك فيها .. لكنه يذكر أنه سمع تهاني يومًا تحكي عن وجود ابن فاشل لديها.. أليست هي أيضًا من أنجبته وربته؟! مم يخاف؟! ولماذا يتردد في اتخاذ قراره.. هي خادمة.. إن أفلحت أكملت ، وإن خابت كَسواها رحلت.. لا هي تعلم أنه يعلم ، ولا وداد تعلم..

ودق الحسيني جرسًا صغيرًا بكفه ، دخلت بعده إحدى العاملات في المدرسة .. حيث أخبرها أن تبحث له عن وداد جابر وتدعوها إلى مكتبه.. حتى العاملات والفراشات يحببن وداد.. هو يعلم أنها لا تمنح إحداهن حتى علكة صغيرة .. ولكن الجميع يحبها لرقتها وأدبها في التعامل معهن.

وعاد يفكر.. هل يقبل بعملها لديهم ، أم يرفض ، وليبتعد عن أي احتمال صغير أو فرصة ضئيلة لأن يحدث شيء يمس مشاعر وداد في مدرستها ومع زميلاتها ، وأمام ناظر المدرسة الذي تدخل إلى مكتبه ، وهي أكثر الطالبات تفوقًا وأدبًا ، وليست ابنة خادمة منزله.. يتمنى الحسيني لو يخبر وداد.. يتمنى حقًّا لو يخبرها أن والدتها ستعمل لديه ، وأنه بحاجة لها هو وابنه ، الذي يقضي الأسبوع بأكمله خارج البيت.. يتمنى لو يخبرها أنها يجب أن تفخر بهذا .. لكن هو يعلم أننا جميعا نجيد التحدث وإلقاء الخطب .. ولكننا نبكي ونسقط ، إن كان الحديث عنا أو عن ذوينا أو من نحب..

إن أراد منح الفرصة لوالدة وداد بالعمل لديه ؛ فالخيار الوحيد هو أن

يبقى لا يعلم من هي أو من أين جاءت.. فليبق هو وولده ككل سكان الشرق الأوسط ، يعلمون ويتظاهرون دومًا أنهم لا يعلمون..

رفع رأسه يبتسم ، وهو يراها تدخل مكتبه بعد طرقات قصيرة ، وأخذ يرقبها وهي تتقدم نحو مكتبه في هدوء.. هي ليست متفوقة فحسب ، بل جميلة أيضًا .. ترى هل أخذت جمالها من أمها.. ووقفت وداد أمام مكتبه ، تنظر إليه في خجل وشيء من الخوف.. خوف لم يكن يراه من قبل .. كأنها تتوقع أن يسألها عن شيء تخشاه.. وابتسم في مرارة.. من يدري.. ربما كانت تعلم هي الأخرى وأخبرتها أمها ، وتتظاهر بأنها لا تعلم ، كما سيتظاهر هو أنه لا يعلم.. أليست هي الأخرى من سكان هذا الشرق الأوسط؟! ، وقالت في صوت رقيق:

- حضرتك طلبتني؟!

وأشار لها بيده ، وهو يطرد ظنونه وأفكاره المتشككة قائلًا:

- بقالك كتير يا وداد مادخلتيش مكتبي.. عاملة إيه؟!

نظرت إليه في خجل.. هي الأخرى أصبحت تهرب من مواجهته .. أصبحت تبتعد قدر ما تستطيع عن لقائه والوقوف أمامه.. تشعر أنها تموت ذعرًا أن يعرف سيادة الناظر أنها تلقى ابنه كل جمعة.. وداد تنتفض كل صباح، وهي تدخل المدرسة كأنها تتوقع أن يستدعيها الحسيني ، ويصرخ في وجهها يؤنبها كيف تخرج مع ابنه صباح كل جمعة ، وماذا تريد منه ، وماذا تظن أنها ستصل إليه ، وهي التي يعلم من هي ، وتعلم من هو ومن

أبوه؟!

أصبحت تشعر في كل نظرة من نظرات سيادة الناظر بشيء من الشك.. شيء كالسؤال.. شيء كالخبر.. كأنه يقول لها إنه يشتم رائحتها في ملابس مراد كل جمعة ، أو يرى خطوطًا من شعرها على قميصه .. ولكن هي لا تتعطر ، وشعرها دومًا أسير حجابها.. مراد لم يضمها مرة أو يقترب منها.. فلمَ الخوف إذًا ؟!

الخوف الحقيقي والخوف الكبير هو أنها ابنة صفط اللبن.. أخت محمود وابنة جابر عامل المحارة ونجية ، التي لا تملك سوى جلباب أسود وحذاء قديم ، يكاد يتمزق من أنينه بين أقدامها ، التي أثقلتها المخاوف والفقر والألم.. الخوف الحقيقي والكبير أنها تعلم أنه.. ضابط على أكتافه نجمات ذهبية ، وهي الفقيرة التي تحاول أن تصبح يومًا شيئًا ما .. لكن هل ينتظرونها حتى تكون ، وإن أصبحت هل ينسون ما هي عليه الآن..

منذ عرفت مراد.. منذ أصبحت تلتقيه ، وهي تستذكر أكثر.. تقرأ أكثر.. من أجله أصبحت تريد أن تكون شيئًا أكثر قيمة ونجاحًا وتفوقًا.. من أجل لحظة ، يعلم فيها الحسيني ، وتعلم فيها أبلة تهاني أن وداد حبيبة أو حتى صديقة مراد ، وهي تتمنى أن تكون شيئًا يفتخرون به ولا يخجلون منه.. هل حقًا يفتخر الناس بصداقة وحب العلماء والناجحين.. أم أنهم لا يفتخرون ولا يعترفون إلا بالأثرياء.. هي لا تملك سوى أن تصبح ثرية بتفوقها بعلمها بأخلاقها.. تعلم أن مراد بكل هذا سعيد .. فلتترك إذًا تلك اللحظة حتى تأتي.. من يدري ربما يأخذها النجاح إلى الثراء؟!

ربما يومًا ينتهي عداء الزمن والأيام لها ولأمها ولكل الفقراء!!

وعاد جسدها الجميل ينتفض ، وهي تسمع الحسيني يسأل ، كأنه يبحث داخلها عن شيء قائلًا:

- وداد.. في حاجة.. في حاجة مخبياها يا بنتي.. صدقيني لو عندك أي حاجة محيراك ممكن تقولي ، وممكن أن تتفاجئ برأيي فيها أو موقفي منها.

فتحت عينيها في ذعر.. هل يعلم.. هل يعلم الحسيني أنها غارقة في هوى وحيده .. هل تخبره.. هل تقسم له ألا شيء بينهما ، سوى أنها تستمتع بوجودها إلى جواره صباح كل جمعة.. هل تخبره أنها لا تريد أو تحلم بشيء أكثر من أن تستمع إلى آرائه وكلماته ، وأن يتناقشا في كتاب قرآه معًا أو قصيدة وقفا عندها.. هل تقسم له أن تلك الساعة هي الساعة الوحيدة ، التي تنبض فيها عروقها بالحياة ، قبل أن تعود إلى الاستذكار والحفظ.. إلى الخوف والألم ، وهي ترقب نجية تسأل كل صباح : ماذا يأكلون وكيف يحيون؟!

ما تأخذه وداد من مراد ساعة.. ساعة واحدة فقط ، تمنحه مقابلها كل ساعات أيامها.. كل حبها ووفائها ، ودعواتها له بكل الخير..

هل حقًّا سيادة الناظر يعلم بأمر تلك الساعة ، وهل تجرؤ هي على الإفصاح عنها؟! لا.. هو لا يعلم.. لو كان يعلم ما سألها في هذا الهدوء والحنو.. لو كان يعلم لثار وصرخ وهدد وتوعد..

لا أحد.. لا أحد أبدًا سوى مراد الحسيني يهدهد الفقراء!!

لا تصدق أنها اعتذرت عن الحفل ، الذي دعاها إليه سعيد.. أخبرها أنه هو ومعه أربعة من أصدقائه بانتظارها .. لكنها اعتذرت.. رفضت ما يقارب الخمسمائة جنيه ؛ لتذهب إلى لقاء هذا الطفل الأحمق ، الذي لا تعلم ماذا يجمعها به .. ربما لم ترد إيلامه.. كان سعيدًا ، وهو يخبرها أن خميس منحه مفتاح شقة صغيرة ، قام بتأجيرها في أحد أزقة شارع فيصل بالهرم.. كان سعيدًا وهو يخبرها أنه يريد لقاءها في بيت ، له حوائط بعيدًا عن الميكروباص والحقول ، التي يمارسان على أرضها الجنس معًا.

لماذا لم ترفض لوزة؟! سعيد كان سيمنحها مبلغًا قد تمضي أسابيع ، دون أن تستطيع الحصول على مثله.. لماذا لا تريد إغضاب محمود.. لا تعلم.. لكن ما تعلمه أنها كانت سعيدة ، وهي ترفض حفل سعيد .. كانت سعيدة ، وهي ترتدي ملابسها للقاء محمود.. لن تشعر بالذنب كثيرًا.. سعيد أخبرها أنه سيرجئ حفله هو وأصدقائه إلى الغد.. فلم تغضب من نفسها ، وعلى ماذا تلومها؟! تلوم نفسها لأنها سعيدة بلقاء طفل.. نعم.. هو طفل أصغر منها.. هو تائه مثلها... لكنها بلقائه سعيدة.. هي بلقائه بعيدًا عن جسد خميس.. سعيدة ، حتى إن كانت ستلقاه في بيت هو ملك لخميس.

ووقفت تنظر حولها ، وهي تحاول أن تتذكر أين يقع البيت..

لـمَ هـي خـائفة.. لوزة تصعد كل مساء إلى بنايات وبيوت ، لا تعرف عنها شيئًا فقط لتتبع رجلًا، التقطها من على الطريق.. تصعد ، وهـي في كامل وعيها وجرأتـها ، فلمَ تخاف وممَ تخاف الآن .. وهـي في طريقها إلى بيت تعلم من ينتظرها خلف بابه.. بل هـي الآن بكامل حجابها ، ودون أصباغ وجهها المثيرة ، أو ملابسها الضيقة التي تعمل بها كل ليلة.. لماذا هـي خائفة..

وانتفضت ضلوعها ، وهـي تراه يطل من باب أحد البيوت ، التي لم تستطع تحديد أيها بالتحديد تدخله.. كان يقف على باب البيت ، كأنه هو الآخر يأكله الخوف والقلق عليها.. رأته لترخي عينيها ؛ حيث دخل هو من حيث جاء واختفى داخل البيت..

فتحت حقيبتها تتظاهر بإجراء مكالمة.. كانت تشعر أن كل العيون تراقبها، رغم أنها تعلم أن عيون سكان الحي لا تقف على وجه فتاة ضئيلة محجبة ، تعبر كمئات غيرها أسفلت أزقتهم ، ثم أعادت هاتفها إلى حقيبتها، وتقدمت إلى حيث رأته ، ودخلت في هدوء لتصعد إلى الدور الأول حيث وجدت الباب المفتوح ، وأسرعت بالدخول ، بعد أن أغلقته خلفها ، وبين ضلوعها دبيب آلاف الطبول ، كأنها لا تدخل كل يوم بيوت الغرباء ، وتغلق خلفها أبوابًا لا تعرفها أو تعرف سكانها.. قبل أن تستدير.. قبل حتى أن تلمح شيئًا، رأته يسرع نحوها ، وهو يسألها بلهفة عن سر تأخرها ، وبدا في عينيها خائفًا مثلها .. لكن هو يخاف شيئًا يفعله للمرة الأولى .. فكيف تخاف شيئًا أصبح عملها ومهنتها؟!

ضمها إلى صدره كأنه يحتمي بها .. كأنه يشكر الله أن شيئًا لم يحدث ، وأن أحدًا لم يعترض طريقها.. وتقدمت لوزة في صالة البيت لتلقي بجسدها على مقعد صغير ؛ حيث جلس محمود على مقعد آخر مجاور له ، وأطبق عليهما صمت كبير.. كلاهما لا يعرف لماذا جاء..

إن كان يريد مضاجعتها فسيارة خميس أكثر أمانًا ، وهي عليها أكثر اعتيادًا .. وإن كان يريد الحديث ، فلقاءاتهم الصباحية على كورنيش النيل مازالت أفضل للثرثرة والقصص والبكاء .. لا أحد منهما يعلم لماذا أراد حائطًا وبابًا ، وكل ما يجمع امرأة ورجل باستطاعتهما أن يفعلاه ، بعيدًا عن هذا الخوف ، الذي شعرا به..

خلعت حجابها في هدوء ، ومدت كفها تضعه على فخذ محمود ، قائلة في ألم :

- جبتني هنا ليه؟!

ونظر إلى أصابعها الملقاة على فخذه في حنان.. إنها الأصابع ذاتها التي تتجول على جسده وأعضائه في جرأة ووحشية .. لكنها الآن في عينيه أصابع حانية رقيقة ، أطهر من أنامل القديسين.. أغمض عينيه لحظات ، ثم قال في صوت خفيض ، وهو مغمض العينين:

- مش غريبة يا لوزة.. أنا الراجل ما اعرفش ست غيرك ، وأنت كل يوم في حضن واحد واتنين ويمكن عشرة.. مش غريبة بعد كدا أبقى هنا عشانك، وتبقي هنا عشاني..

وفتح عينيه ينظر إليها ، وهو يكمل كأنه تذكر سؤالها:

- ما أعرفش عايز أيه.. ما أعرفش.. عايز أبقى معاكي لوحدنا .. جنبك.. أنسى إن في واحد لسه قايم من على جسمك .. ليه ما أعرفش.. ما أعرفش!!

وابتسمت في مرارة ، وهي تقول:

- تنسى.. تنسى إيه وليه؟! هي دي أنا.. أنت ماعرفتنيش في جامع ..

وأشاح بوجهه ، كأنه يتذكر أين كان لقاؤهما الأول ، وانتفضت لوزة غاضبة وهي تقول:

- أنا اللي جيت ليه.. ضحيت بأربع زباين وجيت ليه؟!.. عندك حق.. أنا كمان مش عارفة.. ماعدش فيه حد عارف.. والله البلد كلها ما بقت عارفة حاجة.. حتى اللي بييجوا بفلوسهم وعربياتهم ، مش عارفين بيشربوا ويسكروا ويلمونا من الشوارع ، ويطلعونا بيوتهم وسرايرهم ليه؟! كله يابن بلدي مش عارف.. وآدي آخرتها جبتني عشان تتبسط ، وجيت أنا عشان أنسى ، طلعنا مش عارفين حتى نعمل إيه؟! عارف.. أنا حاروح!!

ونهضت تغالب دمعها.. كانت سعيدة وهي تأتي.. كانت سعيدة كسعادتها القديمة بلقاء عادل ، يوم كانت عذراء مخطوبة .. لكنها في لحظة أصبحت غاضبة حانقة عليه وعليها ، بل وعلى البلد بأكملها.. وفي طريقها إلى الباب سمعته يقول:

- أنا مخنوق يا لوزة.. محتاجلك..

وسقطت دمعاتها وهي تستدير تنظر إليه.. يحتاجها.. منة وهبة ومحمود يحتاجون غانية .. والغانية بمن تحتمي.. ورأى دموعها ، وهو على مقعده .. لكنه أكمل في صوت تتخلله الدموع قائلًا:

- حاسس إني تايه.. أمي بقالها شهر بتنزل شغل.. بتقول شغالة فراشة في مدرسة.. نفسي امشي وراها وأشوفها بتروح فين ، وبتعمل إيه؟! يمكن تكون..

سقطت دمعاته هو الآخر ؛ لتبتسم لوزة قائلة في سخرية مريرة:

- يمكن تكون إيه؟! بتشتغل زيي..

وانتفض وهو يسمع كلماتها واضعًا وجهه بين كفيه ، ثم أكمل:

- تفتكري؟! من ساعة ما حاولت اقتل عم مرزوق ، وشفت دمه بيطير في وشي ، وأنا خايف أمسك سكينة أكل مش مطواة.. أنا لحد النهاردة منظر دمه ما بيغبش عن عيني.. أعمل إيه وأروح فين يا لوزة.. أروح فين؟!

تقدمت نحوه لتسقط على ركبتيها تحت ركبتيه ، وأمسكت بوجهه بين كفيها لتقول في ألم:

- ما تروحش وما تعملش.. تسكت وتعمل عارف ومصدق.. لو قتلتها وقتلتني ، برضك مش حترتاح..

ونظر إليها وهو يهمس كالمذبوح:

- بس أمي مش..

وأسرعت تضع كفها على شفتيه ، وهي تتألم قائلة:

- ولا أنا والله .. ولا أنا يا محمود..

وضمها إلى ذراعيه ، وبكى كلاهما في ألم.. شعرت لوزة للمرة الأولى في حياتها أنها تريد رجلًا.. كم رجلًا أخذها بين ذراعيه.. لم تعد تذكر ملامحهم أو وجوههم .. فهي غالبا لا تعرف أسماءهم ، إلا القلائل ممن يصبحون زبائن مستديمين.. رغم عددهم الذي لا تذكره .. رغم أجسادهم .. لا تذكر أنها مرة شعرت بأن جسدها حقًّا يبادل أحدهم نشوته .. لكنها بين ذراعي هذا الطفل ، تشعر أن طعم ملح دموعه المختلط بدموعها ، والذي يتسرب إلى شفتيها ، يجعلها تشعر أنها حقًّا تريده وزحفت إلى شفتيه .. كأنها تستجديه أن يقبلها علّه يسكت نهنهاتها.. والتقط شفتيها ، وأسكت دموعها بملح قبلته.. محمود ليس طفلًا.. الألم والضياع يخلقان من الأطفال رجالًافي لحظة ..

واستسلمت استسلامًا ليس أبدًا كاستسلام كل الليالي .. لكنه استسلام أنثى ، تشعر أنها تريد أن تأخذ وتمنح.. هناك رجال كانوا يطلبون منها أن تخلع ملابسها أمامهم قطعة قطعة .. وهناك آخرون كانوا يفعلونها بأكفهم ، وكانت دومًا تستسلم.. لكن مع هذا الطفل.. مع هذا الرجل ، لم تشعر أيهما جرد الآخر من ملابسه.. عندما يختلط الدمع ، يصبح الجسد واحدًا والروح واحدة ، وهي للمرة الأولى تعلم كيف يصبح جسدان جسدًا واحدًا .. وفي غيابها بين ذراعيه ، سمعته يسألها من هو بالنسبة لها.. سمعته يقول إنها حبيبته وإنها امرأته، وأنه سيبقى لها وحده ، حتى وهو

يعلم أن في كل ليلة هناك معها آخرون سواه ، وضمته لوزة إلى جسدها ، وهي تخبره أنهما لا شيء.. لا شيء أبدًا سوى أصدقاء.. أصدقاء يجمعهما الألم والخوف والضياع..

على أرض الصالة وفي أركان ذهولها ، كانت لوزة تغيب وتفيق ، وأسئلة كثيرة تطفو بين جفنيها ، ثم تغرق في أمواج نشوتها واستمتاعها بأنفاس محمود ولمساته..

وهدأ الطائران.. بعد وقت لا يعرفان كم طال أو قصر.. وشعر محمود في لحظة ، وهي تعتدل برأسها على صدره أنه يعلم.. يعلم أن نجية حقًّا تعمل "فرّاشة" في مدرسة.. يعلم أن لوزة يومًا لن تكون غانية ، وأنه يومًا سيصبح قادرًا على أن يعود بكل واحدة منهما إلى بيتها.. يومًا سيصبح قادرًا على الإنفاق على تعليم وداد ، وعلاج هبة ، وشفاء منة..

وابتسم ابتسامة صغيرة.. إنها أحلام.. إنها أوهام منتش عائد للتو من رحلة داخل جسد غانية.. ووضع أصابعه بين ثنايا شعرها ، ثم قال في حنان:

- إحنا مش أصحاب يا لوزة.. الأصحاب مايناموش مع بعض!!

وسمعها تقول في ابتسامة:

- لما الأصحاب يخونوا بعض ، ويبيعوا بعض ، ويقتلوا بعض .. ما يبقاش كتير عليهم يناموا مع بعض.. لما واحدة زيي تسيب أربع زباين ، وهي محتاجة المليم .. وتيجي تترمي على بلاط شقة ، في حارة ، مع واحد

أصغر منها بييجي عشر سنين ، وأما هو يبقى عارف هي إيه ، وياخدها في حضنه .. ما يبقاش في حاجة زي ما كانت .. ولا زي ماعرفناها.. يبقى هي بس كلمة الصحاب اللي وقفت في طريقك يابن بلدي؟!

أغلقت هاتفها الصغير ووضعته في جيب زي المستوصف ، الذي تعمل فيه في ذهول.. حادثها خميس عبد العال منذ لحظات ، وأخبرها أنه يريدها هذه الليلة ، ومعه صديق جديد.. لوزة لم ترفض .. لكنه أخبرها في نهاية الاتصال أن "العملية" لن تتم في سيارته ، بل في شقة شارع فيصل.. رفضت عندها ، وهي تخبره أنها تذكرت ارتباطها بموعد ما..

لماذا رفضت؟! لأنها لا تريد أن يشهد المكان الذي التقت فيه محمود دناءتها ووضاعتها.. لا تريد أبدًا أن تشهد قطع البلاط البارد ، التي عاشت عليها الحب ، مجونها وما تفعله مع خميس وزبائنها..

ما الذي يحدث لها.. بالأمس ، وفي احتفال سعيد الصاخب ، لم تكن هي لوزة التي تعرفها.. بالأمس وبعد أن تناوب عليها أصدقاء سعيد ، وبعد أن نهض آخرهم عن جسدها ، شعرت بدمعة تنحدر من عينيها.. سمعت صوتها يهمس في ألم قائلًا:"سامحني يا محمود"!!

تبكي وتدمع وتطلب الغفران من أجل طفل.. غفران لم تطلبه يومًا على ما تفعله من أعوام.. ما يحدث شيء خطير.. محمود أضعف منها ، وهي

أضعف منه... هي بحاجة إلى عملها وبحاجة إلى بلادتها وهدوئها .. الندم والحب كلمات لا يجب أن تدخل أبدًا قاموس الغانيات.. وفي هدوء ، أخرجت هاتفها من جيبها ؛ لتعيد طلب خميس ، قائلة في صوت ماجن خفيض:

- خلاص يا عنيا لغيت الميعاد.. أقابلكم الساعة كام!!

فليشهد بلاط تلك الشقة الصغيرة حقيقتها.. لوزة لن تهرب ولن تندم ولن تقع في الحب أبدًا.

وأفاقت على صوت زميلة لها .. تناديها ، تخبرها أن الدكتور منتصر ، أحد أطباء المستوصف ، يريدها لأمر هام ، وتبعتها إلى غرفة الطبيب في هدوء.. إنه طبيب هادئ كان يحبها ويشفق كثيرًا عليها ، ويتابع معها تطورات علاج هبة.. عندما دخلت إليه ، سمعته يتحدث في ابتسامة واسعة عن استشاري قادم من ألمانيا في المخ والأعصاب ، أخبرها أنه من أمهر الأطباء على مستوى العالم ، وأنها الزيارة الثانية له لمصر ، وأن حالات كثيرة مشابهة لحالة الصغيرة تم شفاؤها على يديه.. الدكتور منتصر أخبرها أنه سيقوم بعمل حجز لها لتأخذ إليه هبة.. إنه يتحدث ، وهي تسمع في ذهول ، ولا ترى أمام عينيها سوى صورة أختها تقف على قدميها من جديد.. وترى منة وقد زال عنها الخوف ، وعادت الفتاتان تركضان في الحارة من جديد.. بل هي ترى نفسها بعد شفاء هبة تمزق ملابس العمل ، وتغسل جسدها قطعة قطعة ، وتطهره من كل الأصابع التي مرت عليه..

لوزة رأت نفسها وهي تغسل شفتيها ، وتطيل سكب الماء على لسانها وأذنيها .. لن تنطق كلمة من الكلمات القذرة ، التي اعتادت الهمس بها ،

وهي تستثير زبائنها ، ولن تسمع كلمة يردون بها عليها ، ظانين أنهم يحركون فيها شيئًا غير مزيدٍ من الاشمئزاز والغثيان..

رفعت لوزة رأسها تنظر إلى الدكتور منتصر في ذهول ، وقالت في ابتسامة مرت أعوام ، لم تبتسم مثلها:

- تفتكر ، يا دكتور منتصر ، كشف الدكتور دا كام؟!

أبلة تهاني لم تخدعها.. هي حقًّا سيدة البيت.. في بداية الأمر ، كان الحسيني يترك لها المفتاح مع جارته .. ولكن بعد شهرين فقط من عملها في بيته ، منحها نسخة من المفتاح.. تأتي نجية في الثامنة كل صباح ؛ لتقوم بتنظيف البيت وغسل الملابس وطيها وطهو وجبة صغيرة ، أصبح يترك لها اختيارها من قائمة الأصناف التي يتناولها..

في الثانية والنصف يدخل الأستاذ الحسيني ، بعد أن يقرع الجرس مرة واحدة ؛ ليجد طعامه ساخنًا على المائدة في انتظاره ليتناوله ، في الوقت الذي تطوي هي فيه ملابس عمله وتتفقدها ، إن كانت بحاجة إلى غسل أو مكواة .. بل إنها تقوم بتلميع حذائه ، ووضعه إلى جوار باب غرفة نومه ليرتديه في الصباح التالي.. وعندما ينتهي من غذائه ، تغسل الصحون وتمسح أرض المطبخ ، وتخرج بجلبابها الأسود ، وهي تحمل كوب الشاي لتمنحه له ، وتذهب إلى بيتها ، بعد أن يمنحها بعض النقود لشراء خضار الغد ومستلزماته ..

أبلة تهاني لم تخدعها.. وحدها سيدة البيت ، حتى في يوم الخميس ،

وفي الساعات القليلة ، التي تلتقي فيها مراد ابنه بعد عودته من كليته .. لا تشعر أن شيئًا تغير ، سوى أنها في هذا اليوم يجب أن تعد مائدة فاخرة وأصنافًا أكثر ليتناولها الأب مع ابنه العائد.. مراد أكثر رقة من الحسيني ، وإن كان أقل حديثًا معها.. وحده يلح عليها أن تأكل مما تعده لهم ، بل في بعض الأحيان يقوم بسكب بعض الطعام في صحنها.. الحسيني لا يفعلها طوال أيام الأسبوع .. كأنه سعيد أنها خادمة بأجرها فقط دون طعام..

أبلة تهاني لم تخدعها.. في بيت الأستاذ الحسيني ، توجد أحب الأشياء إلى قلبها.. "غسالة كهربية" كالتي كانت في بيت مرزوق وسيدة ، ومع رشفة جديدة من كوب الشاي الذي بين أصابعها ، تنهدت نجية في ألم كبير.. تذكرت مرزوق الحلوجي! أين ذهب وكيف ابتلعته الأرض ، كأنه يومًا ما كان.. منذ ذاك اليوم ، وحتى بعد عودة محمود إلى البيت ، وهي تشعر أنها كرهتهما معًا.. محمود.. رغم حنانه .. رغم أنها تعلم أنه يبعثر روحه وجسده من أجلها هي ووداد .. إلا أنها تشعر أن بداخلها جرحًا غائرًا منه.. جرحًا لم تستطع ، حتى أمومتها ، محوه من ضلوعها..

وداد هي الأمل.. وداد هي التي من تعمل من أجلها.. قارب العام الدراسي على نهايته.. بقي عامان وتلتحق بالجامعة ، بعد أن يكرِّمها الوزير وتذهب نجية معها لمصافحته.. تحلم بذاك اليوم.. مع كل انحناءة وهي تمسح مطبخ أو حمام بيت الحسيني.. مع كل قطرة عرق تتصبب من وجهها، وهي تطهو له أو لوحيده الطعام.. مع كل رعشة في يدها ، وهي تمد كفها إليه لتأخذ راتبها الشهري منه .. تحلم بذاك اليوم الذي ترتدي فيه جلبابًا جديدًا

وحذاءً جديدًا ، وتذهب مع ابنتها إلى الوزير عندما يكرمونها.. وداد لن تخذلها.. وهي هنا تطهو وتغسل ملابس الغرباء الداخلية وتطويها لهم.. ستمسح أرض بيتهم ، وتنفض عن حوائطها الأتربة ؛ لأنها هي الأخرى لن تخذل ابنتها.. لقد اشترت لها جاكيت الجلد الذي أرادته ، ومنحتها نقودًا تشتري بها حذاء للشتاء..

وداد تعمل .. ونجية أيضًا من أجلها تفعل كل شيء.. إنه الخميس ومراد آت.. الحسيني أخبرها أنه دعا إلى الطعام خالة مراد وعائلتها!

"أبلة تهاني".. ليست المرة الأولى التي تأتي ونجية في البيت.. تتظاهر أنها يومًا لم ترها خارج حدود هذا المنزل .. لكن دومًا نجية تنتفض وهي هنا.. تشعر أنها قد تخطئ وتذكر اسم وداد ، أو تحملها لها سلامًا ، أو تسألها عنها سؤالًا .. لكن أبلة تهاني لا تخطئ أبدًا.. نجية تخشى لسانها هي وعينيها هي.. نجية وأمثالها هم فقط من يرتكبون الأخطاء ، ويدفعون ثمن أخطائهم وأخطاء سواهم!!

وقفت لوزة تنظر حولها في صمت ، وهي ترقب رجال الحاج مبروك ، يحملون آخر لوح من ألواح خشب سريرها ؛ ليخرجوا به ، ثم يعودون إلى الغرفة التي تنام فيها الصغيرتان..

أرخت عينيها في ألم ، وهي ترى دمعة تسقط على وجنة هبة ، وأحدهم

ينحني ؛ ليخلع مكبس التليفزيون الكهربائي ليحمله ويخرج به..

لم يبق شيء في البيت.. لم يبق جهاز كهربي واحد أو قطعة أثاث.. لا شيء سوى السرير الذي تستلقي عليه هبة.. وحدها من يجب أن تنام على سرير.. حملها من الأرض سيبقى صعبًا.. عادت تنظر حولها في ألم.. أصبح البيت خاويًا.. لا دولاب.. لا ثلاجة .. لا تليفزيون.. هي ستنام على مرتبة من الإسفنج على الأرض.. لا شيء بقي في البيت ، سوى سرير وبعض الكراسي البلاستيكية.. حاولت أن تستبقي التليفزيون .. لكن الحاج مبروك أخبرها أن هذا معناه أن تفقد بعض المئات من الاتفاق ، هي بحاجة إلى كل مليم..

صاح الحاج مبروك يخبرها أن كل شيء تم نقله ، وأخرج من معطف جلبابه الآلاف الخمس التي اتفقا عليها ، وأغلق خلفه الباب ومضى..

حين نادتها منة ارتج جسد لوزة.. أصبح لصوتهم إن تحدثوا رجع صدى من خلو البيت .. لكن هذا لا يعنيها في شيء.. اعتادوا الفقر والألم ، وسيعتادون رجع صدى أصواتهم .. وابتسمت لوزة قائلة:

- ماكنتش عارفة إن الشقة كبيرة والله غير لما فضيت.

وكأن منة ما سمعتها ، فمضت تقول باكية:

- حنجيب الباقي منين يا أبلة لوزة؟!

ضمتها لوزة إلى صدرها في حنان ، وهي تخبرها أنها ستجد حلًّا.. أخبرتها أنها يجب أن تذهب إلى عملها ، بعد أن تضع النقود في دفتر البوستة، وعند عودتها ستجد حلًّا..

عندما غادرت لوزة إلى المستوصف القريب ، الذي تعمل فيه ، كانت تفكر .. الطبيب الألماني طلب ثمانية عشر ألفًا لإجراء العملية لـ"هبة".. أخبرها أن العملية قد تنجح ، وقد لا تنجح .. لكن الأمر يستحق المخاطرة.. الصغيرة اقترب جسدها من الاحتراق من كثرة تقرحات الفراش ، التي أصابته ..

ادخرت من عملها الليلي ما يقارب الثلاثة آلاف.. عندما أخبرت الحاج مبروك بالقصة ، منحها سعرًا كبيرًا لكل أجهزة البيت وأثاثه.. ما ينقصها الآن هو مبلغ عشرة آلاف جنيه كاملة.. كيف تحصل عليها؟!

أخبرها الحاج مبروك أنه يملك الحل .. لكنها مازالت خائفة.. ذلك أنه سيبيعها "موتوسيكل" أو "توك توك" بالتقسيط ، وبإمكانها هي أن تبيع ما تشتريه بأقل من ثمنه قليلًا؛ ليصبح لديها حوالي ثمانية آلاف جنيه.

الألفان الباقية ليست مشكلة .. ستذبح نفسها وجسدها هذا الشهر.. ستبقى حتى خطوط الفجر في شارع جامعة الدول العربية ، عندما تنتهي من عميل ، ستعود إلى الشارع بحثًا عن غيره.. ستقبل بحفلات الجنس، وليتشارك في جسدها أي عدد من الرجال في كل مرة.. لوزة تعلم أنها ستستطيع تدبير الألفين.. ولكن ما تخشاه هو عرض مبروك.. لقد أخبرها أنها يجب أن توقع على شيكات بأربعة عشر ألف جنيه ، رغم أن ثمن الموتوسيكل أو التوك توك لا يتجاوز التسعة آلاف.. لكن لمن تبيع التوك توك أو الموتوسيكل الذي ستشتريه..

وابتسمت ابتسامة صغيرة مريرة.. لم تتظاهر بأنها لا تعلم من يفعلها..

هي تعلم .. لكنها تريد أن تقنع نفسها أن اسمه سيطفو على رأس أفكارها بالصدفة.. هي تعلم جيدًا من هو.. بل إنها ما باعت أثاث البيت ، إلا وهي تعلم أنها ستقوم بالخطوة التالية ، كما رسمها لها الحاج مبروك.. لم تهرب إذن من محادثته وإخباره.. هي لن تؤذيه أو تؤذي نفسها.. مازالت وظيفة المستوصف بإمكانها أن تدفع الأقساط الشهرية المطلوبة ، ومازال لديها - حتى إن فقدتها - ما لا يأفل نجمه أبدًا .. لديها جسدها.. بضاعتها التي تملكها ، وتملك مقاليد زمامها.. ما يعيب تجارتها أنها أبدًا لا تستطيع الحصول على ثمنها مقدمًا..

الرجال تلقي بقروشها إلى العاهرات ، في اشمئزاز فقط ، بعد الانتهاء من أجسادهن ، وانقضاء شهواتهم وإفاقتهم منها..

لا خطأ فيما ستفعله.. في الموعد الذي حدده الطبيب الألماني في نهاية الشهر ستذهب ، وفي يدها المبلغ كاملًا.. محمود لن يخذلها.. محمود ، بخبرته في قيادة الميكروباص والتوك توك ، سيساعدها على أن تجد من يشتري التوك توك ، ويمنحها أفضل ثمن له ، بينما هي تقوم بسداد الأقساط..

مازالت لوزة تعمل في المستوصف.. ومازال الرجال يملأون الطرقات بحثًا عن أجساد الغانيات.. من حق هبة أن تقف على قدميها.. أن تخطو وينتصب ظهرها مرة أخرى .. لوزة تثق أن الله سيساعدها..

اللهّ...!!

دون وعي ، شعرت لوزة بقشعريرة تغزو جسدها..

كيف تجرؤ على ذكر اسم الله بين شفتيها!!

إلى أين.. وإلى متى؟!

إلى أين يأخذها مراد ، وإلى أين يذهب بها.. وإلى متى ؟!.. إلى ساحات كبيرة من الأحلام والفلسفة.. ردهات عميقة من أقوال غاندي وشكسبير.. عالم لا حواجز فيه.. حقول خضراء في مدينة أفلاطون الفاضلة.. تعبت وداد .. تعبت وهي تلهث أمامه ، مثل كلب صغير ، يرقب عروض سيرك ضخم ، دخله عن طريق الخطأ.. يحادثها عن الحق.. والفضيلة.. وحب الحرية والعدل والأرض..

مقيدة ومكبلة بفقرها وبصغر سنها .. وفي كل مرة تلقى فيها مراد ، تشعر أن ملابسها البسيطة تتحول إلى عباءة أميرة ، تخطو بها إلى جواره فيها ، في حلم تفيق منه عندما تضع قدميها في الميكروباص ، متجهة إلى حارة الرحمة.. إلى أرض صفط اللبن .. إلى وجه نجية ، الذي أصبح كقطعة خشب جافة ، لا ابتسامة تغزوها ولا حتى دمعة تلوح بعينيها.. ذبحها رحيل مرزوق.. وتخليه عنها.. ذبحها عملها الجديد ، الذي ترفض الحديث عنه.. ولكن وداد تشعر أنها تعلم حقيقته..

فراشة في مدرسة .. تعود الثانية أو الثالثة ظهرًا .. لكن نجية تعود في

الرابعة أو الخامسة.. نجية في أيام الخميس تتأخر .. وداد تعلم أن رفض نجية لإخبارهم باسم المدرسة أو مكانها لا معنى له ، سوى أنها خادمة في بيت ما ، كما كانت يومًا في بيت مرزوق الحلوجي..

لكن نجية أصبحت أكثر قسوة وصلابة.. في عينيها صلابة ، حتى محمود لم يعد يقوى على مواجهتها.. حتى كلماتها أصبحت قليلة .. لكنها دومًا كلمات قوية هادرة.. متى تمضي الأيام.. متى تنتهي وداد من دراستها؟! عهدًا عليها أمام الله أن تضع كل ما تكسبه بين أصابع أمها ، وأن تمنعها من العمل الذي تعرف حقيقته..

يوم تتخرج وداد من جامعتها بامتياز.. يوم تصبح معيدة في الجامعة ، سيكون هو اليوم الأخير الذي تخرج فيه نجية من بيتها .. سيكون آخر يوم تنحني فيه أمها لتمسح بيت الغرباء.. وداد يومها لن ترضى أن تبقى أمها خادمة .. يذبحها أن تفيق على جسد محمود الملقى على فراشه ، كأنه ذبيح الركض خلف القروش البسيطة ، التي يضعها في كف أمها كل أسبوع ؛ ليجدا قطعة خبز وقطرات ماء.. حتى محمود ، يوم تصبح وداد أستاذة في الجامعة ستجعل منه شخصًا آخر .. ولكن إلى أين يأخذها مراد.. إلى أين عليها أن تذهب معه؟!

الشهر في نهايته وفي نهاية الشهر الاختبارات السنوية.. وداد ستنجح وتتفوق كالعادة .. لكن مراد سيتخرج.. مراد على كتفيه سيضعون نجمة ذهبية صغيرة ، تجعل منه مراد باشا.. هذا الصباح حكت له عن جابر.. عن محمود وأخطائه.. ابتسم وهو يخبرها أن أخاها على حق ، وأن جابر لم

يمت.. جابر قُتل.. جابر ورجال مصر جميعهم قتلوا منذ زمن بعيد.. زمن سلبوا فيه من الرجال كل شيء ، ولم يتركوا لهم سوى ممارسة الجنس والتهام الطعام ، أو محاولة الوصول لأيهما..

إلى أين تذهب معه.. وإلى أين يأخذها؟! لا تعلم.. لكنها سعيدة.. هي تنتظر يوم الجمعة ، بداية من اللحظة التي تفارقه فيها.. تشعر أنها تحيا فقط من أجل الجمعة القادمة..نعم هي تهوى مراد.. ليست صغيرة على الحب.. ليست أبدًا صغيرة عليه.. ربما كان هذا الحب كبيرًا عليها.. حب "مراد" كثوب فضفاض ، تفقد داخله السيطرة على جسدها ؛ لتراه يتراقص ويتمايل دون سيطرة منها..

مراد أخبرها ، ذات مرة ، أن المشاعر إن سيطرنا عليها ، لا تكون حبًّا أبدًا ، وأن المشاعر التي تتملكنا وتسيطر علينا هي الحب بعينه!! فلتستمتع وداد بثوب عشقها الفضفاض.. كفاها اختناقًا داخل ثياب كثيرة ، وضعتها الأقدار حول جسدها وحياتها.. قضية وداد أنها تفكر في الغد في سؤال لا يفارق رأسها.. إلى أين؟! هل يتزوجها مراد؟! سألته مرة في خجل كيف يرى الغد.. أين يراها في غده ، وأين يجب أن تضعه هي في غدها؟!

مراد أمسك كفها في حنان ، وهو يقول إنها بالأمس كانت معه ، وفي الغد ستكون معه.. أخبرها أنهما سيبقيان العمر معًا.. ومعًا سيغيران وجه العالم.. معًا سيضعان على وجه مصر ابتسامة .. هي من خلال عملها في الجامعة ، وهو من خلال عمله في الشرطة ، وأيضًا في التدريس.

مراد ضغط على كفها وسألها.. أما زالت حقًّا لا تعلم عن الغد شيئًا..

أخبرها أنه يشعر أنها بين ذراعيه كبرت ، وبين ذراعيه ستبقى حتى يشيبا معًا .. ستحيا وداد معه دومًا.. أيامهما معًا ستصبح كلها يوم الجمعة ، الذي تنتظره قبل أن يأتي ، وقبل أن ينقضي.. إنه الحب الكبير!!

كانت تعلم أنه لن يتركها.. كانت تعلم أنه وحده لن يتخلى عنها أبدًا.. استلم معها "الموتوسيكل" .. حمله معها إلى من اتفق معه على شرائه مسبقًا.. هذا الطفل هو الرجل الوحيد في أيامها.. شهر وهو يركض معها حتى هذا الصباح.. وحده حمل "هبة" بين ذراعيه ، ودخل بها إلى المستشفى..كان محمود معها ، خطوة بخطوة ، في كل خطوة.. بل كان يعلم أنها تمزق جسدها كل ليلة أكثر من مرة.. كان يعلم ذلك دون أن يسألها ، ودون أن تقص عليه.. أودعت لوزة الثمانية عشر ألفًا في خزانة المستشفي منذ لحظات.. كل شيء سار حسبما تمنت.. بل مازال في جيبها ألف وخمسمائة جنيه.. عند انتهاء العملية وعند خروج "هبة" إلى جوارها وجوار محمود ، ستشتري بجزء جهاز تليفزيون بالتقسيط ، وستدفع القسط الأول من دينها لمبروك.. ستشتري بما يتبقى معها كل ما تشتهيه "منة" و"هبة".. ستحتفل بشفاء الصغيرة احتفالاًكبيرًا..

ستبقى تعمل في الصباح وتبقى تعمل في الليل كما عملت في الشهر الأخير.. أصبحت تجيد التنقل بين الأجساد ، بل وأصبحت أكثر تفننًا وإتقانًا لعملها ؛ حتى أصبح لها عملاء يريدونها في الشهر الماضي أكثر من

كل وقت مضى.. تفوقت لوزة وأتقنت اللعبة .. كل شيء يسير كيفما خططت له ، وكيفما ساعدها عليه محمود!! يومًا ستكافئه هو الآخر.. يومًا ستمنحه مبلغًا كبيرًا من المال ؛ ليشتري به سيارة ميكروباص ؛ بالتقسيط ليصبح سيد نفسه، كما هو خميس.. بعد أن تشفى "هبة" وتنتهي من تسديد دينها ، ستفاجئ محمود بقصة الميكروباص..

سمعت صوته من خلفها يناديها ، وعندما استدارت ، قال لها إن الطبيب أخبره أن عملية "هبة" قد تستغرق عدة ساعات ، وأنه لا داع أبدًا لبقائهم في ممر غرف عمليات المستشفى.. أمسك بكفها ، وعاد بها هي و"منة" إلى الغرفة ، التي ستخرج الصغيرة إليها.. عندما دخلت الغرفة ، نظرت إلى وجه السيدة المجاورة لفراش "هبة" وابتسمت.. ستراها كل يوم ولمدة عشرة أيام ، وحتى تخرج أختها من المستشفى .. ابتسمت السيدة ، وهي تسألها عن "هبة" ومتى تعود؟! وقالت :

- ماتخافيش.. الدكتور دا أيده تتلف في حرير .. كفاية إنه ألماني.. ادعي أنت بس وقولي يارب..

انتفض جسد لوزة لتشيح بوجهها بعيدًا .. لن تقول يارب أبدًا ، بل هي لا تريد أن يذكر أحد اسم الله حولها.. وعادت تتلفت حولها في اضطراب شديد.. قد يغضب الله كثيرًا ، إن ذكرت اسمه على شفتيها.. لا يجب أبدًا أن تقولها.. وتسلل إلى أذنيها صوت محمود، وهو يتمتم باسم الله لتنتفض واقفة عن مكانها ؛ حيث وقفت على باب الغرفة.. ستبتعد.. لوزة لا تستطيع أن تذكر اسم الله بين شفتيها.. شفاهها ملوثة ، ولن تتطهر أبدًا..

تعبت قدماها من الوقوف.. انتفض كفها تحت كف محمود ، وهو يضعه عليها ، طالبًا منها أن تدخل ، ونظرت إلى عينيه في خوف ليضمها إلى صدره في حنان ، وهو يقول:

- ربنا حيجبر بخاطرك إن شاء الله..

قبل أن تجيبه .. قبل حتى أن تنبس بكلمة ، سمعت صوت الممرضة من خلفهما ، تطلب منها الذهاب إلى لقاء الطبيب.. محمود سألها في خوف إن كانت العملية قد انتهت.. لم يمض أكثر من ساعة ونصف ، والطبيب أخبره أنها ستستغرق أكثر من أربع ساعات..

الممرضة نكست رأسها في هدوء ، ومضت لتتبعها لوزة في وجوم كبير..

كان الطبيب الألماني يقف في رداء العمليات ، وإلى جواره يقف طبيب مصري شاب..حين اقتربت لوزة ، وخلفها محمود ، شعرت أن رائحة ما تهب على أوصالها.. رائحة مازالت تذكرها.

الطبيب نكس رأسه وهو يخبرها ، في صوت خفيض ، أن كل شيء كان يسير في طريقه الصحيح ، وأن خطوات العملية كانت تسير بنجاح .. ولكن دون مقدمات ، ودون أسباب .. "هبة" أصابها هبوط حاد في الدورة الدموية، وتوقف قلبها الصغير.. الصغيرة ماتت وكلا الطبيبين آسفان.. إنها أشياء تحدث ويعلمها الجميع..

الطبيب الألماني ربت على كتفيها في أسف ، ومضى إلى طريقه

ليتبعه الآخر في صمت ، وبقيت وحدها تنظر حولها في جنون..

ماتت "هبة" بعد كل هذا العذاب.. بعد سنوات من الشلل والألم.. بعد أن باعت لوزة أثاث البيت قطعة قطعة.. بعد أن جعلت من جسدها أرضًا مباحة، لكل من أراد المرور عليها أو الوقوف بها.. بعد أن قبلت ممارسة الجنس، في الضوء وفي الظلام.. وكيفما شاء زبائنها ماداموا يدفعون الثمن.. أ بعد أن حملتها أعوامًا وطافت بها على مراكز العلاج الطبيعي.. أ بعد أن تألمت وصرخت وانحنت عليها واعتدلت ألف ألف مرة.. ماتت بعد أن استدانت ، ووقعت أوراقًا قد تسجنها أعوامًا ، إن لم تسدد أقساط دينها الشهرية!!

لِمَ لم تمت لحظة سقوطها من أعلى ذاك المبنى إذًا !! لِمَ لم تمت قبل أن تمنح لوزة جسدها لطبيب العلاج الطبيعي في ذاك المركز الملعون.. لِمَ لم تمت إلا بعد أن ذهب كل شيء؟! لو توفاها الله لحظة سقوطها من أعلى ذاك المبنى، ما سقطت ، ولا ضاعت "منة" ، ولا باعت كل شيء.. حتى مستقبلها..

قلبها توقف.. دمها هبط.. كيف هبط وهي بين يدي الأطباء؟! كيف لم يقف قلبها عندما سقطت وتحطمت فقرات عنقها الصغير؟! كيف لم يقف ، وهي تتنقل بين أيدي أطباء من كل صنف ، وعلى كل لون وشاكلة ، ويتوقف قلبها تحت يد الطبيب الألماني الذي أخذ ثمانية عشر ألف جنيه؟!

ماتت.. "هبة" ماتت الآن.. الآن فقط تموت..

صاحت لوزة تضحك وتبكي وتصرخ ، ومحمود يحاول بكل شبابه وإشفاقه عليها أن يضمها ، وهي تدفع ذراعيه في عنف ، وتصيح في جنون وتركض إلى حيث لا تعلم ، ومحمود خلف دمعاته يصيح يناديها ، ولكن إن كان هو لا يسمع صوت نفسه ، كيف عساها لوزة تفعل؟!

لوزة ثائرة كما لم يعرف أحد الثورة من قبل.. ثائرة غاضبة وحانقة على كل شيء ، كأنها بثورتها تحاول أن تمحو عار استسلامها وعار سقوطها وعار هربها من ربها.. لا شيء تريد أن تراه .. ولا شيء تريد أن تسمعه.. كل ما تريده هو أن تركض وتصرخ ، وتحطم كل شيء يلقاها ، كما تحطمت كل الأشياء ، التي كانت يومًا بين يديها.. لم يبق لها شيء تبدأ به أو تبدأ من أجله.. مِنْ أجل مَنْ .. ومِنْ أجل ماذا تتطهر وتتوب .. ومِنْ أجل مَنْ أيضًا.. مِنْ أجل ماذا في وحل طريقها تكمل الخطوات؟!

لوزة كانت تركض كأن نارًا أمسكت بأطراف جسدها.. حرائق هائلة .. اسمها حرائق اليأس والحقيقة!

إنها ترتعد.. بل كادت تموت رعبًا عندما وضعت نجية طرحتها على رأسها، وأخبرتها أنها ستذهب معهم.. بكت وداد في تلك اللحظة ، وصرخت في عصبية كبيرة إنها لن تذهب.. ماذا تخبرهم؟!

هل تخبرهم أن أمها جاءت تمسك بيدها ؛ لأنها طفلة صغيرة تخشى أن يختطفها أحد؟! بكت في جنون ، وهي تخلع حجابها صائحة ، في صوت يرتعش ، تسأل : لماذا تفعل بها نجية ذلك؟! لقد أخبرتها أن بنات الجيزة

الثانوية اتفقن على قضاء اليوم في حلوان ، بعد انتهاء الامتحانات وظهور النتيجة.. أخبرت أمها أن رشا ستذهب معها.. نجية لم تعترض .. ولكنها هذا الصباح عندما نظرت في وجه ابنتها ، وهي في طريقها للخروج ، أمسكت بكفها والتقطت طرحتها وهي تخبرها أنها ستذهب معهم..

ماذا رأت نجية على وجهها.. لابد أنها رأت الخوف والفزع ، الذي يسكن قسمات وجهها.. لابد أنها شعرت بها ، وهي تتقلب على فراشها طوال الليل.. تفكر في موعد الصباح هذا.. نجية ليست غبية.. لابد أنها شعرت أن وداد لم تنهض من فراشها ، حتى تأكدت من عودة محمود من عمله ، ودخوله في نوم عميق.. نجية تعلم أن وداد كانت تخشى أن تطلب أمامها ، من محمود ، أن يأخذها ورشا إلى باب المدرسة ؛ حيث أخبرتها أنهم جميعا سيلتقون هناك .

رغم هذا خلعت الأم طرحتها في هدوء ، وهي تنظر بعين ثاقبة في دمع وداد ، الذي تطاير حول وجهها ، وأخبرتها أن تضع حجابها وتذهب..

تمنت وداد أن تبقى.. أن تتمسك بغضبها .. ولكنها لم تستطع.. وضعت حجابها وهي تنظر حولها ؛ خشية أن يكون محمود استيقظ على صراخها وبكائها وركضت.. ركضت إلى باب البيت ، قبل أن يلحق أحدهما بها.. الوقت ضيق والطريق طويل! إنها السادسة والنصف صباحًا.. يجب أن تركض إلى رشا .. كما يجب أن تركض الاثنتان إلى آخر أطراف القاهرة.. لقد درسا الطريق.. لقد علما أنهما ستستقلان أكثر من سيارة حتى تصلا إلى .. إلى التجمع الخامس!! مجرد ذكر الاسم يجعل عروقها تنتفض في

ذعر.

حين فتحت عبير باب بيتها .. كانت رشا هي الأخرى تقف خلفها ، وعلى وجهها الخوف والاضطراب ذاته .. لكن عبير ما كانت غاضبة.. عبير ليست نجية ، ورشا أيضًا ليست وداد.. هي فقط مرافق ، يصطحب مجنونًا أحمق قد يقع في كارثة كبرى.. أمسكت رشا بكف صديقتها بين يدها ، وانطلقتا تبحثان عن أول سيارة يأخذانها في رحلتهما الطويلة.

وداد كانت تلهث وهي تتلفت حولها ، كأنها تخشى أن تجد نجية أو محمود يتبعانها.. ورشا أيضًا كانت خائفة .. لكنه يوم غير كل الأيام.. يوم يأتي مرة واحدة في العمر ، وأيضًا ليس في عمر أو قدر كل البشر.. الأمر يستحق المخاطرة..

وداد في طريقها ، بصحبة رشا ، إلى أكاديمية الشرطة ؛ لحضور حفل تخرج مراد جمال الحسيني.. حاولت كثيرًا ألا تذهب.. أن تجعله يفهم خطورة ما هم عليه مقدمون.. ماذا لو رآها سيادة الناظر.. ماذا لو رأتها أبلة تهاني.. ماذا تقول.. بم تبرر حضورها..

مراد أخبرها اسم أحد زملائه ، وقال لها إن حدث ورآها سيادة الناظر، فعليها أن تصافحه في هدوء ، وتخبره أنها جاءت مع رشا من أجل وائل رفعت.. نعم.. وائل رفعت ، الذي ستدخل وداد ورشا بتذكرتيه ، فهو لم يدع والديه إلى الحضور لأنهما خارج مصر.. وعادت وداد تتمتم الاسم "وائل رفعت"..

مراد أخبرها أن كل شيء سيسير وفق ما رتبا له.. كل شيء سيخطو في هدوء وسلام ، فقط إن جاءت.. فقط إن شعر بها في صفوف المدعوين.. أخبرها أن هناك أيامًا في حياته ، لا يريدها أن تمر أبدًا دون أن تكون فيها.. يوم تخرجه.. وأيام تكريمه وترقيته ، ويوم رحيله عن الدنيا.. أخبرها أن وجودها في هذه الأيام وحده سيجعل لها مذاقًا آخر.. لونًا آخر.. هل كان من الممكن أن ترفض إذن؟! هل كان من الممكن أن تحرم عينيها رؤية حبيبها في يوم كهذا؟!

في الميكروباص الأول في رحلة الوصول الطويلة ، التقطت رشا أنفاسها وأخرجت من حقيبتها الصغيرة شيئًا ، وضعته بين يدي وداد ، التي انتفضت من جديد ، وهي تنظر نحوها ؛ لتسمع رشا تقول في حنان:

- قلم روج.. شفايفك زرقا من الخوف.. عايزة الباشا يشوفهم كدا؟!

* * *

يجب أن تصلا قبل الثامنة والنصف.. البوابات ستغلق بعد هذا الوقت.. لن يسمح بدخول أحد ؛ حتى يصل رئيس الجمهورية ووزير الداخلية.. وحدهما آخر من يدخل قاعة الاحتفال متى شاءوا ، ووحدهما أول من يخرج.. لن يسمح لأحد بالدخول أو الخروج متى يشاء..

في اللحظة التي كانت وداد تركض ورشا خلفها إلى مدرجات الاحتفال ، كانت بوابات أكاديمية الشرطة تستعد لإغلاق أبوابها ، حيث سقطت وداد على المقعد الخاص بها ورشا إلى جوارها ، ثم أخذت كل منهن تتلفت حولها

في هدوء.. الوجوه كثيرة .. لكن هناك وجه ، تموت وداد إن رأته أو رآها.. وجه تشعر أنه سيقرأ اسم مراد على جبهتها ، ويرى صورته في عينيها.. وداد تتلفت حولها في حذر ، وهي تدعو الله ألا ترى أبدًا وجه جمال الحسيني..

ساعتان كاملتان مرتا ، والأبواب مغلقة والعيون مفتوحة ترقب اللحظة الكبيرة.. اللحظة التي تخرج فيها دفعة الشرطة إلى أرض الاحتفال.. اللحظة التي يظهر فيها رئيس الدولة وأعضاء حكومته ؛ ليشهدوا مولد رجال شرطة ، يضعون أقدامهم على أول طريق خدمة الوطن وأبنائه.

تنتظر وداد رؤية وجه أفضلهم وأكثرهم طيبة ونقاء وبهاء.. هدأت في مقعدها ، وما عادت تسمع هدير الأصوات حولها.. ما عادت حتى تسمع همسات رشا وتعليقاتها.. هي ما سمعت حتى ولا شعرت بوصول السيد رئيس الجمهورية ولا بدء الاحتفال.. إنها لا ترى أو تسمع سوى تراتيل خافتة حانية ، تخرج من ضلوعها ، تدعو بها لمراد وتحصنه بها من كل هذه الأعين ، التي تشعر بها بعد أن أدركت أن هناك على أرض هذا المكان الكبير، وجنباته المترامية ، رجلًا غير كل الرجال ، وشابًّا غير كل الشباب حبيبها.. أملها.. مراد جمال الحسيني..

كانت دموعها تنساب في هدوء على وجنتيها.. كانت عيونها تراه بوضوح رغم وقوفه بين زملائه من خريجي الدفعة .. كانت عروقها تنتفض، وهو يؤدي القسم أمام رئيس الجمهورية .. كل الوجوه كانت بعيدة لا تظهر ملامحها .. بل ربما كانت كل الوجوه لها الملامح نفسها ، إلا وجه مراد

الحسيني.. وجهه كان ينير سماء الاحتفال.. ملامحه كانت واضحة ، كأنهم وضعوا وجهه خلف مكبر عميق.. وهدر صوت ، يعلن عن تقدم أوائل الدفعة ؛ لمصافحة الرئيس وتسلم نوط الامتياز..

لم تسمع أبدا اسم الأول على الدفعة أو الثاني أو حتى الثالث.. وداد سمعت الصوت يهدر في ضلوعها ، وهو يعلن أن مراد جمال الحسيني هو الرابع على الدفعة.. نهضت واقفة تنظر إليه ، وهو يتقدم بخطواته العسكرية ليصافح رئيس الجمهورية ، ويتسلم نوط الامتياز بعد مصافحته لوزير الداخلية..

وداد ظلت واقفة ، ودمعها يركض على وجنتيها في حنان.. حبيبها صافح رئيس الجمهورية.. حبيبها وضع كفه بين كفي الرئيس ، الذي حياه وابتسم في وجهه ، ورأته يتحدث إليه.. إن أقصى ما تتمناه وداد ، وتنتظره أمها أن تذهب إلى وزير التربية والتعليم العام القادم ، بعد حصولها على الثانوية العامة بتفوق.. لكن مراد.. مراد يداعبه رئيس الجمهورية بكلمات ، لا تسمعها ، ولكنها تشعر بها..

كانت رشا تحاول أن تجذبها من ملابسها لتجلسها .. لكنها ظلت واقفة ، حتى عاد مراد إلى مكانه ، وتقدم خامس الدفعة ليتم تكريمه.

قبل أن تنثني للجلوس مرة أخرى ، كانت تبتسم رغم دمعاتها التي ما مكنتها من رؤية عينين بعيدتين بين الصفوف .. استدارتا تنظران إلى الواقفة الدامعة في دهشة كبيرة ، وهي تسأل ما الذي تفعله وداد في هذا المكان ، ولماذا تقف وتبتسم وتبكي في آن واحد؟! وداد ما رأت العينين .. لكن العينين

رأتها بوضوح ، واستدارتا في صمت ودهشة وانقباضة كبرى ..

جمال الحسيني رآها ، وهي لم تره!!

لم يعد طالبًا أو صف ضابط.. اليوم أصبح ملازمًا ثانيًا.. اليوم صافحه رئيس الجمهورية في حنان وشد على كفه ، وقال ضاحكًا إن مصر بأكملها تنتظره.. كيف لانت قسمات مراد لحظتها.. كيف هدأ قلبه ، وتمنى لو يحتضن الرئيس بين ذراعيه؟! .. في عيني الرئيس رأى حنانا كالذي يراه في عيني والده.. بل في ابتسامة وزير الداخلية رأى الحنان ذاته .. رأى الذراعين ذاتهما .. ولكن لم الدهشة !! أليس الرئيس أبا وراعيا لكل شباب وأطفال وشيوخ البلاد.. أليس الوزير أيضًا أبا وراعيا لكل أفراد عائلة الشرطة.. ألم يقسما يومًا القسم ذاته ، الذي وقف مراد هذا الصباح يقسمه؟!

خلع مراد ملابسه وانحنى يخلع حذاءه ، ثم استدار يقف أمام مرآته .. اليوم سيبدأ رحلة جديدة.. من اليوم ، هو رسول عدل وحق لكل شعب مصر.. لن ينسى مراد القسم ، الذي أداه بأن يرعى الوطن والمواطنين والدستور..

كوثر.. هل رأته؟ هل تراه.. لا يعلم .. لكنه يعلم أنها سمعته ، وهو يقسم أمام الرئيس مع كامل الدفعة.. كوثر مازالت حوله.. كما كانت دومًا.. الفارق الوحيد أنها ما عادت المرأة الوحيدة في حياته.. هناك امرأة أخرى صغيرة جميلة ، أصبحت تشاركها قلبه.. وداد.. ضمها اليوم بين ذراعيه في قوة .. ومسح بكفه على رأسها حتى كاد حجابها يسقط عن رأسها.. هل غضب جمال الحسيني ، عندما اعتذر له عن عدم العودة معه وتهاني إلى البيت.. لا

يعلم .. لكنه لمح في عينيه سؤالًا .. لم يقف مراد طويلًاأمامه ، بل ركض إلى سيارته ليذهب إلى وداد ، التي اتفق معها على انتظاره بعد الحفل ، عند مدخل التجمع الخامس..

وحدها بقيت معه.. رشا صافحته وهنأته ، واستقلت سيارة الميكروباص ، وهي تخبر وداد أنها ستلقاها أمام مدرسة الجيزة الثانوية ، في الخامسة عصرًا ليعودا معًا.

كان عناقهما جميلًا.. ما أن اختفت رشا عن عينيهما داخل الميكروباص، حتى استدار مراد ينظر في عينيها الدامعتين وضمها إلى صدره بقوة.. لم يعنه أو يعنها أنهما في الشارع.. أو أنهما مازالا على موقف الميكروباص.. لم يكن هناك أحد ، وإن كان هناك ألف شخص.. لقد شعر في تلك اللحظة أنه يريد أن يضمها..

عناقها كان جميلًا.. شعر بها تتكور بين ذراعيه ، كأنها تود أن تذوب على كتفيه.. عندما سقط حجابها عن رأسها ، ورأى شعرها البندقي الغزير يكاد يسقط .. عاد بحجابها إلى رأسها، ودخل بها إلى سيارته.. أخذها وتجول بها في شوارع التجمع الخامس.. وفي أحد الشوارع الخاوية ، وقف بسيارته ، وقال لها للمرة الأولى في حياتهما ، إنه يحبها.. إنه يريدها أن تصبح زوجة الملازم مراد جمال الحسيني.

مازالت وداد طفلة .. لكنها ستكبر بين ذراعيه.. لن ينسى أبدًا كيف أغمضت عينيها في خجل ، كأنها تروي عروقها بكلماته.. كانت المرة الأولى التي يخبرها فيها بحبه ورغبته في الزواج منها ، وكانت المرة الأولى أيضًا

التي يرى فيها شفاهها المكتنزتين مصبوغتين بلون أحمر.. أخبرها أنه لا يريدها أبدًا أن تضع على شفاهها ألوانًا.. لأنها تخبئ عن عينيه وردية شفاهها ورقتها ورجفتها التي يحبها.. أخبرها أنه لا يريدها أبدًا أن تضع على وجهها أو شفاهها أي لون.. حتى بعد خمسين عامًا من اليوم.. أخرجت وداد من حقيبتها الصغيرة منديلًاورقيًّا ، وهي تخبره ، في خجل ، أن رشا هي من منحتها إصبع الروج .. لكن قبل أن تمسح آثاره أمسك مراد بكفها واقترب منها في هدوء ، وهو يخبرها أنه سيضع على شفاهها شيئًا لن ترغب أبدًا في وضع لون بعده.. مراد وضع شفاهه على شفاه وداد في قبلة طويلة ، مسح بها ذاك اللون ، ورسم بها اسمه كأنه يوقع عقد زواجهما..

كانت قبلة رائعة.. شفاهها كانت ساكنة لا تعرف كيف تبادله قبلته .. لكنها كانت تذوب بين شفتيه.. عندما سقط حجابها للمرة الثانية .. لم يعده إلى رأسها ، بل وضع أصابعه بين خصلات شعرها ، وحررها من المشابك الصغيرة التي تثبتها بها.. سقط شعرها كما سقط هو في هواها.. شعرها كان رائعًا.. ناعمًا غزيرًا كحبه لها.. كم بقيا واقفين في ذاك الشارع البعيد.. لا يذكر.. لكن مازال طعم قبلتها بين شفتيه ، ومازالت خصلات شعرها تدغدغ كل قطعة في قلبه وجسده.. وداد جابر أصبحت هذا الصباح تقف إلى جوار كوثر ، داخل قلبه إلى النهاية..

كوثر امرأة ولد بين ذراعيها .. ووداد امرأة يعلم مراد ، أنها ستموت بين ذراعيه ، إن لم يمت هو بين ذراعيها!

الغضب يأكله في نهم شديد.. لا يستطيع أبدًا أن يكمل يومه على عجلة القيادة ، ولكن ماذا يفعل.. بل ماذا فعلت به ، ومن أجله عجلة القيادة هذه؟!

ستة أشهر مرت منذ حصوله على رخصة القيادة.. ستة أشهر ، وهو سائق ميكروباص حقيقي مثل خميس .. ولكن هل تغير الكثير؟!.. أبدًا محمود ضاقت الدنيا في عينيه أكثر.. كان يظن أن النقود ستنساب بين أصابعه كقطرات مطر ، يوم شتاء هادر ، ولكن ذلك لم يحدث.. هو بالكاد سدد النقود ، التي استدانها من نجية أمه لاستخراج الرخصة وإجراءاتها.. محمود يعمل أجيرًا على السيارة ، وإن جاء يوم ، لم يكن دخلها كما يرضى عنه مالكها، قامت الدنيا ولم تقعد ، إلا بعد ألف قسم ، وألف وعد ، وألف توسل ورجاء منه لمالكها.

ماذا جلبت له قيادة الميكروباص؟! نجية ليست سعيدة أو راضية عنه.. في إحدى ثوراتها أخبرته أنها خادمة.. صاحت وهي تلطم وجهها منذ شهور، تخبره هو وأخته أن هذا هو العمل الوحيد الذي تتقنه.. وأن محمود وحده هو من استبدل أم مرزوق في حياتها برجل آخر قعيد ، تطهو له وتبدل ملابسه ، وتمسح أرضية غرفته ومنزله ، لتجلس في انتظار عودة ابنه من العمل كل يوم لتعود إليهم بقروشها.. بعملية حسابية صغيرة ، أخبرته أنها هي من تتحمل الجزء الأكبر من مصروفات البيت .. بل إنها ، بنقودها ، من منحته مصاريف الرخصة وأوراقها.

ماذا فعلت له قيادة الميكروباص ، التي كان يحلم بها زمنًا.. جعلته

يقترب من لوزة؟! جعلته أكثر رجولة في عينيها.. أبدًا.. لوزة أصبحت أكثر جنونًا وحدة.. باتت تعترف ، كلما التقته ، أنها تعاشر في كل ليلة أكثر من رجل.. إنها تخبره أنها إن لم تفعل .. سيزج بها مبروك إلى السجن نظير الشيكات ، التي مازالت تحاول الانتهاء من سداد قيمتها..

ماذا فعلت له قيادة الميكروباص؟! ماتت هبة ورحل مرزوق وذهبت معه أمه المريضة .. لكن أمه هو بقيت خادمة ، وظلت لوزة عاهرة ، وأصبحت وداد أكثر إشفاقًا عليه وخجلًا منه ، وأقل حديثًا معه.. رأس أخته دومًا إما على الأوراق والكتب ، وإما على وسادتها ، كأنها تهرب من رؤياه ، والاعتراف بأنها أخت هذا السائق الفاشل.

عجلة القيادة لم تغير شيئًا.. محمود أصبح أكثر ضعفًا وعجزًا.. أصبح يدخن البانجو.. أصبح قطعة أخرى من خميس عبد العال.. أصبح سائق ميكروباص ضئيلا ، لا هو رجل في عين أخته التلميذة الصغيرة ، ولا في عين أمه الخادمة .. ولا حتى في عين امرأته الغانية ، التي تتلوى بين أذرع الرجال كل ليلة.

عجلة القيادة التي ظنها يوما طوق نجاة ، يعلم اليوم - وبعد ستة أشهر - من جلوسه أمامها أنها سحقت فيه أحلام الرجولة والكرامة .. أصبح أكثر جرأة وقوة .. تخلص من عقدته القديمة ، وها هو يحمل في قاع ملابسه مطواة ، كتلك التي رشقها في جسد مرزوق يوما ، وعاش أيامًا وشهورًا يخشى الإمساك بها بين يديه.. أصبح يجيد فنون السباب والعراك مع الركاب والسائقين .. لكنه أيضًا أصبح أكثر حزنًا وضياعًا وخجلًا حتى من

نفسه..

أخته الجميلة بعد شهور قليلة ، تحصل على الثانوية العامة.. أخبرته ذات مرة أنها تتمنى أن تصبح مهندسًا بشريًّا.. هو لم يفهم وضحك ساخرًا منها ، وهو يخبرها أن المهندس إما معماريًّا أو مدنيًّا أو ربما ديكور .. لكن وداد أخبرته أن هناك شيئًا اسمه هندسة بشرية، وقالت كلمة لم يفهمها عن زراعة أعضاء وتتبع أجنّة.. وأنها تتمنى أن تصبح عالمة ، في هذا التخصص، الذي لم يتخصص فيه أحد على أرض مصر بعد.

عالمة؟! كاد يقتلها لكنه أمسك نفسه.. محمود كان يعلم أن **«عالمة»** التي يعرفها ، هي بالتأكيد تختلف عن **«عالمة»** التي تعنيها أخته الصغيرة.. يحبها.. بل يذوب في وداد حبًّا ، كما كان أبوه رحمه الله.. ولكنه يشعر أنه ضئيل أمامها.. لا هو بالنقود أغرقها ، ولا هو من عار جهله رحمها..

ستة أشهر على عجلة القيادة.. لا أصبح محمود ثريًّا ، ولا بقي على نقائه القديم.. وأفاقه صوت هاتفه الصغير ، الذي خرج منه صوت خميس ، يسأله عن مكانه .. وعندما أخبره أنه في طريق العودة بالسيارة ، بعد انتهاء يوم عمله ، قال له في صوت صاخب:

- اركن المخروبة وتعال معايا في عربيتي نروح نعمل دماغ لغاية الفجر.. يللا وإنت بقيت نكدي كدا.. النهاردة الخميس ليلة سهر وانبساط.

لماذا استيقظت مبكرًا إلى هذا الحد؟! إنه يوم الجمعة.. يوم أجازتها الأسبوعية.. أبدًا !! إنه ليس إجازة.. إنه يوم العمل المجاني.. نجية طوال أيام الأسبوع تعمل في منزل الحسيني بأجر.. يوم الجمعة.. يوم الأجازة تعمل بالمجان.. حتى وداد ما عادت تساعدها كثيرًا يوم الجمعة.. فهي ككل جمعة ، وبعد الصلاة تذهب إلى المجموعة المجانية ، لمراجعة الدروس..

وداد في الثانوية العامة.. شهور ثلاث وتنتهي من امتحاناتها ، ثم تظهر نتيجتها.. وعدتها أن تتفوق.. أن تتصدر صورتها الجرائد ، وتذهب إلى لقاء الوزير.. كيف تطلب منها إذًا أن تبقى لتغسل معها الملابس وتكنس الأرض وتمسحها بالماء.. ابنتها ستدخل الجامعة في العام القادم.. هل تحيا لتراها كما رأى جمال الحسيني ابنه مراد.. هي نفسها ترتعد أوصالها ، كلما رأته يخرج في الصباح ، أو إن عاد يومًا مبكرًا بملابسه الرسمية ونجمته الذهبية على كتفه.. لقد أخبرتها وداد أنها قد تصبح يومًا مهندسة ، وبرتبة ضابط في الجيش أو البوليس.. والله هي لا تفهم ما تقوله ابنتها..

وداد تريد أن تكون مهندسة .. ليس في المعمار ، الذي مات على أرضه جابر .. ولكن مهندسة في الطب والبشر ، وتحصل أيضًا على رتبة عسكرية في الجيش أو الشرطة.. هي لا تفهم .. لكنها تؤمن وتصدق كل حرف تقوله وداد .. تستحق أن تعمل نجية وتغسل الثياب وحدها على يدها يوم الجمعة.. وحدها لم تخذلها..

ورشفت رشفة من كوب الشاي الذي بين أصابعها.. لماذا مازالت

تذكره؟! مرزوق !! لماذا تبحث بعينيها عنه كل صباح؟ لماذا مازالت تنتظر صيحة أحدهم ، وهي في طريقها كل يوم إلى منزل الحسيني يخبرها أنه عاد.. لماذا لم تنسه؟! بل لماذا لم تكرهه حتى الآن؟! لعنه الله وباركه.. يومًا جعلها كريشة عصفور تحلق في السماء .. ويومًا جعلها كجثة كلب من كلاب البحر، تغرق في محيط من الذل والألم.. ومازالت تنتظر عودته.. مازالت تتمنى أن تراه.. أن تسمع منه كلمات ، تبرر لها كيف طار بها يومًا .. وكيف ألقى بها تحت أقدام المجهول وحدها..

عامان دون كلمة.. عامان ، كأنه ما كان هناك يومًا على أرض صفط اللبن رجل يدعى مرزوق الحلوجي.. ألا يفكر فيها.. ألا يسأل نفسه كيف تحيا وكيف تموت؟ لعنه الله وباركه ألف مرة!! ستبقى تنتظر أن يعود .. أن يتحدث.. أن تسمع.. علها عادت للطيران ، أو رضيت بالحياة تحت الأقدام.. وأرخت ساقيها في هدوء.. فلتنهض عن أريكتها .. ولتدخل لتجمع ملابس وداد ومحمود ولتبدأ يومها.. يوم ككل الأيام.. لكنه بالمجان!!

عندما دخلت إلى غرفة أبنائها شهقت شهقة صغيرة .. فراش محمود خاو لم يُمس.. السادسة صباحًا .. لم يعد إلى البيت بعد.. عاد أو لم يعد.. لقد أفسده خميس وأضاعه ، ما الذي يعنيها عودة جسده المنهك كل ليلة.. ولكن أين هو؟! رغم كل شيء.. لم تشرق شمس ومحمود خارج فراشه.. يجب أن تقيم الدنيا عندما يدخل البيت.. يجب أن تصرخ ، وتوقظ وداد ؛ لتراها ، وهي تلطم محمود على وجهه.. يجب أن يشعر أنها مصيبة أن تشرق شمس على فراشه ، وهو خاو من جسده النحيل.. وانحنت تجمع

الملابس الملقاة على أرض الغرفة ، وتبحث عن كل ما يحتاج إلى الغسل والتنظيف .. وعلى أحد الأرفف الخشبية المتهالكة لخزانة ملابس وداد أخرجت نجية كيسًا ورقيًا أنيقًا ، وأطلت بعينيها داخله بحذر ؛ لتخرج أصابعها منه وهي تحمل ثوبًا حريريًا وردي اللون ، عليه نقوش خضراء صغيرة ، ومعه حجاب رأس وردي حريري.. الكيس أنيق والثوب لم تر نجية يومًا في بهائه ونعومة قماشه.. والتفتت تنظر في جنون إلى وجه وداد النائم.. ليت نجية كانت تستطيع أن تقرأ اسم المحل ، الذي اشترت وداد منه الثوب .. ولكن هل تملك ثمن ثوب كهذا؟! هي لا تأخذ شيئًا سوى جنيهين للمواصلات من وإلى المدرسة.. الثوب جديد ، ومازالت ورقته الصغيرة تتدلى منه..

هدية؟! من يهدي وداد ثوبًا كهذا؟! ولِمَ لم تخبر أمها بالأمر؟! لماذا خبأت الثوب أسفل ملابسها ، وطوت كيسه الورقي.. متى ترتديه وداد ولمن سترتديه؟! وشعرت أن الأرض تدور بها.. هل تضيع وداد هي الأخرى ، كما ضاع محمود؟! هل تركض نحوها وتجذبها من شعرها لتوقظها وتسألها؟!

أصبحت تخجل من ابنتها.. لقد أصبحت شابة جميلة متفوقة .. ونجية جاهلة خادمة لا تعلم حتى كيف تقرأ اسم المحل الذي خرج منه الثوب .. وأغمضت عينيها تفكر ماذا تفعل؟! ماذا لو علم محمود؟! أين هو الآخر؟! ربما أصابه حادث.. مات.. ضاعت وداد.. ربما لهذا جفاها النوم واستيقظت في الخامسة صباحا..

استيقظت لتغسل لهم ملابسهم وتطهو لهم.. لكنها وجدت أحدهم مازال

في الشارع والأخرى تغفو ، وفي طيات ملابسها ملابس غريبة لا تعرف قصتها أو مصدرها.. صاحت في جنون ؛ لتنتفض الأخرى في فراشها في ذعر .. وعندما فتحت عينيها رأت أمها تقف وهي تعتصر بين أصابعها هدية حبيبها..

نهضت عن فراشها ، وصوت أمها يكاد يطيح بها عليه مرة أخرى .. نجية تصيح تسأل .. ما الذي بين أصابعها ؟ ومن أين جاء ؟ ومن دفع ثمنه؟!

وداد كانت تحاول أن تجد ما تقوله ، وهي تنتظر ظهور محمود ليصيح هو الآخر ، أو ربما اعتدى عليها بالضرب .. ولكن طرقات على الباب أسكتت الحائرتين .. طرقات هربت إليها وداد من مواجهة نجية . حيث فتحت الباب؛ لتجد أحد صبية الحي ، يخبرها أن خميس عبد العال تم القبض عليه فجرًا ، وأنه لم يكن وحده ، بل كان معه محمود.. رجل وداد ونجية!

لماذا تسقط النساء في غرام رجل الشرطة بسهولة؟! بل لماذا تسعى إليه.. ماذا ترى المرأة فيه؟! ما الذي يختلف في الرجل ، عندما يقدم نفسه إلى فتاة أو سيدة ، فتصافحه في هدوء ، ثم ترفع عينيها مرة أخرى تتفحصه بنظرة مختلفة تمامًا ، إن أكمل ، وقال إنه ضابط شرطة.. شيء في وظيفته يجعلهن يشعرن أنه أكثر قوة وأكثر وسامة ، وربما أكثر فحولة.

لم يسقط مراد أبدًا أمام نداء أو ملاحقة النساء له.. مراد حصنته كوثر بالمبادئ زمنًا ، وتحصنه وداد بالحب ما بقي من العمر.. وداد بأعوامها ، التي قاربت الثمانية عشر في عينيه هي نساء العالم ، وفي قلبه حب العمر.. يراها تكبر بين يديه ، ويكبر قلبه على هواها.. أبدًا .. لم ولن يستجيب لفتاة سواها.. وحدها يتحدث إليها ؛ دون أن يرتفع حاجبه في استعلاء.. وحدها يخطو إلى جوارها ، وهو يخشى أن يراها معه أحد ؛ خوفًا عليها وعلى براءتها.. وحدها ما تغير معها ولا تغير هو في عينيها..

اليوم سيلقاها.. اليوم وعدته أن ترتدي الثوب الذي اشتراه لها.. اليوم الجمعة الرابع عشر من شهر مايو عام 2010م.. يوم عيد مولده.. اليوم اشترى لها هو الهدية ، رغم علمه بأنها ستحضر له شيئًا ما.. لكن مراد قرر اليوم أن يضع هو في يدها هديته.. اليوم قرر أن يولد يوم مولده معها من جديد.. اليوم سيقبل وداد في شفتيها.. منذ ذاك اليوم الذي تخرج فيه لم يقبلها أبدًا.. عمله في الشرطة علمه أن يصرخ.. علمه أن يستخدم ألفاظًا نابية يستخدمها مع المجندين والمتهمين ، الذين يخرج في مأموريات للقبض عليهم.. ولكن بقيت في حياته بقعتا ضوء ، إن أطفأهما مات فيه كل شيء.. وداد ودراساته العليا ، التي التحق بها..

نهض عن فراشه ليفتح خزانة ملابسه ، وأخرج من بين طياتها علبة حمراء صغيرة ، فتحها وهو يبتسم.. اشترى دبلتين من الذهب .. اليوم سيطلب من وداد أن تضع في إصبعه إحداها.. وسيضع الأخرى في إصبعها.. اليوم سيخبرها أنه يريد لقاء أمها والذهاب إلى بيتها.. سيذهب

وحده ، ويخبر والدتها أنه يريد الزواج منها.. سيخبرها أنه سيحضر بصحبة والده ، بعد انتهاء وداد من أداء الامتحانات النهائية.. وأنه فقط يريد موافقتها .. وفي أول أيام الصيف سيخبر والده.. سيخبره عندما تتخرج وداد من مدرسة الجيزة الثانوية ، ولا يصبح والده ناظر مدرستها.. لا يريد لأيهما الحرج .. لكنه يريد أن تضع وداد الدبلة في إصبعه.. سيشعر أنه لحظتها ولد من جديد.

والدة وداد ستفهم.. دون شك لن ترفضه.. ليس لأنه يعلم رقة حالها، أو لأنه ضابط شرطة وابن ناظر مدرسة .. ولكن لأن والدتها ، أيا كانت بساطتها وجهلها ، سترى في عينيه حبًا وصدقًا لا يرد.

موعدها معه الواحدة.. الواحدة اقتربت.. في الواحدة سيولد مراد يوم مولده من جديد.. في الواحدة سيقبلها ، وهو يعلم أنها تتمناه أن يقبلها.

هل يعود إلى الحسيني بالدبلة في إصبعه ، أم يرتديها فقط خارج البيت؟!

إن وداد وضعتها في إصبعه ، هو لن يخلعها أبدًا..

إن سأله الحسيني سيجد ما يخبره به ، حتى تنتهي الشهور الثلاث الباقية على امتحانات الثانوية العامة ، ويخبره الحقيقة.. سيخبر والده أنه كذب عليه يوم سأله منذ عام تقريبًا سؤالًا مباشرًا عن وجودها في حفل تخرجه.. يومها أجاب سؤال والده بسؤالٍ.. من هي وداد؟! .. يومها صاح ضاحكًا، والحسيني يعيد سؤاله عليه ، محذرًا له من أن يقيم علاقة مع

صغيرة فقيرة مثل وداد.. كذب يومها ، وأقسم له أنه لا يعلم عنها شيئًا ، وأنه نسيها بعد قصة الكتب تلك..

سيولد اليوم.. وبعد شهور قليلةس سيخبر والده الحقيقة.. أيًّا كان فقر وداد ، فهو يعلم أن جمال يحبها.. مازال والده يتحدث عنها بكل الفخر ، وبعد أن تتخرج من مدرسته ، سيبقى يتحدث عنها بكل الحب والفخر ؛ لأنها وحدها ستجعل وحيده يولد ، ويتنفس الحياة من جديد.

الواحدة اقتربت ، ومراد يجب أن يستعد لموعد ولادته من جديد..!

كأنها نجية التي كانت تجلس على الرصيف أمام المشرحة ، منذ أعوام.. كأن الأعوام ما مرت.. رأسها ملقى بين كفيها.. صوت نحيبها يمزق أضلع وداد دون رحمة..

كأنها هي أيضًا وداد ، التي وقفت تستند إلى إحدى السيارات من إرهاقها وطول انتظارها.. الخيبة ذاتها والذهول والألم ذاتهما ..

لا شيء اختلف سوى المكان.. يومًا وقفتا بباب المشرحة ، وهاهما ذلك المساء تقفان بباب النيابة ، في انتظار ما يحدث لمحمود.. منذ الصباح وهي تركض خلف أمها.. أخبروهما أن النيابة لا تعمل صباح الجمعة.. وأن محمود وخميس ، تم ضبطهما في أحد الأكمنة في الفجر ، وبحوزتهما سجائر حشيش وبانجو وأيضًا سلاح أبيض.. وأن محمود حاول إلقاء ما

معه من نافذة السيارة .. لكن الضابط ما تركهما..

الضابط؟! نسيت موعدها مع الضابط.. نسيت قصة الثوب الذي وعدته أن ترتديه له.. نسيت سؤال نجية وصراخها ، الذي أيقظها من النوم.. رمت أمها بالثوب ، وركضت خلف من جاءها بالخبر.. هي أيضًا ارتدت ملابسها ولحقت بها ، ولم تفكر بالتقاط الثوب عن الأرض ، أو حتى المرور على رشا؛ لتطلب منها أن تخبر مراد أنها لن تذهب إلى لقائها معه.

كيف كان يمكن أن تتذكر شيئًا ، وهي ترى أمها تركض في الشوارع وحدها إلى قسم الشرطة.. أصبحت أختًا لمتهم بحيازة سلاح أبيض وتعاطي مخدرات ، وحبيبها ضابط شرطة.. الألم يذبحها .. لكن ألمها على أمها الجالسة على الرصيف تحت أقدامها أكبر ، وأيضًا ألمها على محمود أكبر.

أخبرها شقيق خميس أنهم سيفرجون عنهما بكفالة.. وأن خميس سيدفع كفالته ، وكفالة محمود أيضًا .. طلب منها أن تذهب بأمها إلى البيت ، وأن محمود سيعود بعد عرضه على النيابة المسائية .. لكن نجية رفضت أن تعود.. بقيت على باب قسم الشرطة تنتظر ، حتى رأتهما يخرجان منه ، مكبلين ليساقا إلى النيابة المسائية.

أفاقتها صيحة من نجية ، وهي تلطم وجهها من جديد ، ومن خلف عينيها الحمراوين المغسولتين بالدمع ، عادت تردد ما تردده منذ الصباح.. محمود؟! محمود ابن جابر يقبض عليه؟ محمود سيذهب إلى السجن؟! وبين كل صيحة وأخرى ، تلقي برأسها بين كفيها من جديد ، وتسأل في صوت خفيض عن جابر ، ثم ترفع رأسها إلى السماء تطلب الرحمة.. لو كان جابر

هنا ما حدث شيء من هذا ، أو على الأقل ، لبقيت هي وابنتها في البيت ، وتدبر هو الأمر وحده.

طال الوقت ، وساقا وداد ما عادتا تحملانها.. تشعر أنها ستسقط من الإعياء ، ولكنها لن تترك أمها ، ولن تسقط أبدًا إلى جوارها على الرصيف..

أطل خميس ومحمود بعد ساعات أخرى ، وتقدم خميس من نجية ، وهو يحاول أن يبدو ضاحكًا ليقول:

- كفارة يا أم محمود.. ما تخافيش والله براءة إن شاء الله.

نهضت نجية عن الرصيف في قوة.. كأنها ما بكت ولا سقطت ..نهضت لتنظر إليه في حدة .. كأنها في لحظة تحولت إلى صقر من صقور الجزيرة العربية، وتقدم نحوها محمود في تهالك .. وحينما أصبح أمامها ، وقبل أن تتقدم وداد نحوه خطوة واحدة ، رأت أمها ترفع كفها ، وتهوي به على وجه محمود ، وهي تقول:

- يحبسوك.. يشنقوك.. حقهم .. مادام مشيت ورا الكلب دا.. لكن تنسى إن أمك وأختك مالهمش راجل.. تعمل فينا كدا.. دا اللي مش حاسامحك عليه أبدًا يا ابن جابر!!

عندما وقفت السيارة الفضية الفارهة إلى جوار لوزة ، أسرعت

بخطواتها تقترب من نافذتها اليمنى.. إن تأخرت قد يمضي ويتركها.. قائد سيارة كهذه لن ينتظرها طويلًا، وهي اليوم متعبة.. أخذها عميلها الأول إلى المعادي.. بالكاد ما تبقى من وقت يكفيها لعميل آخر .. وعميل كهذا إن منحها المبلغ الذي في رأسها ، قد يجعلها غدًا تأخذ أجازة تمضيها مع منة..

عندما مالت برأسها داخل النافذة التي فتحها قائد السيارة ، شهقت لوزة ، وهي ترى وجه سيدة جميلة أنيقة ، لتقول في خجل:

- نعم.. أي خدمة؟!

وابتسمت المرأة في صفاء ، وقالت:

- ادخلي.. اركبي..

انتفضت لوزة في ذعر.. هل المرأة مجنونة.. هل تعرفها.. ومن أين لها أن تعرف شابة بهذه الأناقة والجمال والثراء..

ابتعدت لوزة إلى الخلف خطوات لتعود المرأة بسيارتها إلى الخلف ، في هدوء ؛ حيث سمعت صوتها من جديد ، يدعوها لدخول السيارة ، واقتربت تسألها للمرة الثانية إن كانت تعرفها .. وبالابتسامة الهادئة ذاتها ، فتحت المرأة حقيبة يدها ، وأخرجت ورقات من فئة المائة جنيه ، وأشارت بها إليها قائلة:

- مقدمًا؟!..

كأن أفعى اخترقت جلدها ونفثت في عين لوزة سمها.. المرأة حقًّا

تريدها، بل إنها تعلم من هي .. ولكن إلا الشذوذ.. ليست شاذة ولن تكون .. إلا الشذوذ .. إلا الشذوذ؟!

وبطرف عينيها رأت السيارة الفارهة تتقدم إلى الأمام ؛ لتقف إلى جوار الرصيف .. وبعد ثوان قليلة رأت قائدتها تتركها ، وهي تخطو حيث تقف..كانت شابة في أوائل العشرينيات .. عيناها ملونتان ، وشعرها أشقر ناعم.. ترتدي ثوبًا له أكمام طويلة ، ويقف أسفل ركبتيها.. تبدو من عائلة ثرية وأيضًا محتشمة !! هذا هو شذوذ الأثرياء المدللين ، الذين يمارسون الشذوذ بسبب الفراغ ، لا بسبب الفقر والحاجة.. ورفعت لوزة عينيها دون وعي إلى السماء ، كأنها تسألها هل يتساويان في السخط والعقاب؟!

وعادت الشابة تبتسم في هدوء ، وهي تقول:

- عايزة كام؟!

وبلا تردد .. أشاحت لوزة بوجهها ، بأصباغه الرخيصة ، قائلة :

- أستغفر الله العظيم.. روحي يا ست أنا ماليش في الحاجات دي..

وأجابتها ، قائدة السيارة ، وهي تبتسم:

- أنت فهمت غلط.. أنا كمان زيك أستغفر الله.. أنا عايزة أتكلم معاكي.. والله العظيم..

وفي خوف ، نظرت إليها لوزة من جديد.. هل أصبح مجرد الحديث مع من هم مثلها يدفع فيه المئات؟! وعادت الشابة تقول:

- إنت خايفة من إيه.. وخايفة على إيه؟!

عندما نظرت إليها لوزة بغضب ، رددت الشابة العبارة ذاتها ، قائلة :

- لسة عندك حاجة خايفة عليها.. تعالي اركبي معايا.. والله العظيم حنتكلم.. نتكلم بس..

وبابتسامة مريرة ، نكست لوزة رأسها وخطت إلى جوارها.. وقالت لنفسها الشابة على حق.. ماذا بقي لديها تخاف عليه؟!

جلست على المقعد المجاور للشابة ، التي أدارت سيارتها ، وهي تقول:

- أنا اسمي يمنى..

وارتخت أجزاء لوزة في هدوء على مقعد السيارة الوثير ، وهي تقول:

- أنا لوزة..

وابتسمت يمنى ، في هدوء ، قائلة:

- عارفة!!

* * *

كانت لوزة تغوص في مقعد السيارة الجلدي الفاخر ، «ويمنى» تقود في هدوء .. أصبحت تعرف معظم مناطق مصر وشوارعها ، وحينما اتجهت «يمنى» إلى كوبري 6 أكتوبر ، راهنت نفسها أنها ستنزل بها إلى منطقة

الزمالك .. هذه السيارة وهذه الشابة ، لابد وأن تخرج من الزمالك .. بكم تراهن نفسها؟! أي رهان وأي جنون.. لماذا لم تعد خائفة ؟! ربما لأنها رأت الشابة وسمعت صوتها.. لوزة تستطيع أن تمزقها بأظافرها ، إن هي حاولت معها شيئًا ، ولكن ماذا لو كانت تأخذها إلى مجموعة من الرجال.. وابتسمت في سخرية.. إنها تبحث عن الرجال..

استدارت لوزة فجأة إلى يمنى قائلة:

- فين الفلوس؟!

وأشارت يمنى بأصابعها إلى تابلوه السيارة ؛حيث كانت النقود أعلاه ، ومدت لوزة يدها تأخذها.. ورقتان كل ورقة بمائة جنيه.. أي حوار تريد أن تجريه معها؟!

كانت يمنى قد وصلت إلى ميدان الشهيد عبد المنعم رياض .. وأمام إحدى البنايات القديمة ، التي مازالت تقف في بهاء على أطراف الميدان ، ظهر شاب أسمر ، أفسح لها مكانًا تقف فيه بسيارتها ، وقالت في هدوء:

- اتفضلي يا لوزة.. إحنا حنطلع العمارة دي..

قبل أن تعترض لوزة أو توافق ، أسرع الشاب الأسمر يفتح باب السيارة، وهو يقول:

- انزلي يا آنسة يمنى.. أنا حاركن وأطلع المفتاح..

إنها آنسة.. البواب يعرفها.. لا شيء أبدًا يخيف .. لا شيء أبدًا

يجعلها تلقي بمائتي جنيه ، وتعود بعد أن جاءت.

مدخل العمارة أنيق جميل ومصعدها أيضًا جميل رغم شيخوخته.. وفي الدور الرابع ، خرجت لوزة ، ويمنى تتقدمها لتفتح باب الشقة ، التي تقابل المصعد ، وعلى الباب وقفت لوزة تنظر داخل البيت في هدوء.

كان البيت هادئًا ، وبعد لحظة من التفكير ، صاحت وهي مازالت على أطراف الباب قائلة:

- يا جماعة .. إحنا وصلنا...

ولم يظهر أحد.. ولم تسمع صوتا.. إذًا لا أحد في البيت سواهما.

كانت يمنى تقف في منتصف صالة البيت ، وهي تبتسم ، ثم قالت:

- صدقيني مافيش حد هنا.. خلي الباب مفتوح ، وافتحي كل الأوض مافيش حد .. أنا عايزة أتكلم معاكي..

وفي هدوء ، أغلقت لوزة خلفها الباب ، وجلست على أقرب مقعد ، وقالت:

- اتفضلي .. أنا سامعة..

ألقت منة بجسدها الصغير على فراش السرير الوحيد ، الذي يملكونه..

غابت عنه من كانت وحدها تنام عليه.. ليت هبة لم تمت.. اشتاقت منة إليها كثيرًا.. لقد تغيرت بعد رحيل هبة.. أبلة لوزة تغيرت أيضًا.. الحياة بأكملها تتغير أحيانًا إن مات أحد ، ولكن لماذا تشعر بأن حزنها على هبة ، أكبر من حزنها حتى على أبيها وأمها.. مازالت تشعر أنها وحدها السبب في موت هبة.. لو لم تلعب معها ذاك اليوم.. لو لم تصح فيها ، وهي على سطح ذاك المبنى ، الذي أوقفت الحكومة بناءه ما سقطت.. ما شُلت وما ماتت؟!

لكن منة هي السبب أيضًا في موت أمها.. لو كانت تمتثل لأوامرها.. لو كانت ترحم بكاءها وصياحها.. لو بقيت تذهب إلى المدرسة ، ما ماتت أمها وما ترك عادل لوزة.. لكن منة تغيرت.. منذ ماتت هبة .. منة تغيرت.. وحدها خرجت تبحث في المحلات المحيطة بهم عن عمل.. وحدها أبرمت الاتفاق مع مدام ثريا مالكة محل الكوافير.. وحدها أخبرت أبلة لوزة بعملها لديها نظير خمسين جنيها كل أسبوع.. وتحسست منة جيبها ، وأخرجت الخمسين جنيها ؛ لتضعها على فراش هبة.. ليتها لم تمت .. وليت أمها لم تمت .. ولكن ربما كان باستطاعتهم أن يروها الآن من السماء.. ربما كان باستطاعتهم أن يسامحوها.. أصبحت تعمل.. تكنس المحل وتكنس خصلات الشعر ، التي يطيح بها مقص مدام ثريا عن رؤوس فتيات الحي ونسائه.. تمسك بالمكواة الساخنة ، وتنتظر أن تأخذها منها ثريا ، لتحول شعور النساء المجعدة إلى شعور ناعمة ، يخرجن بها إلى الشارع.

اليوم ، عندما شردت بذهنها قليلا ، ونسيت المكواة لحظة ، لطمتها وأخبرتها إنها إن لم تنتبه إلى عملها ، سينتهي بها الأمر كما انتهى بأختها

لوزة ..

قالتها في تهكم وسخرية.. ثريا والعاملات في المحل يتعمدن ، من آنٍ لآخر ، أن يلقين بالتعليقات الفجة على لوزة.. حتى منة أصبحت لا تصدق أنها تعمل ممرضة لدى معاق في الزمالك.. لماذا تأخذ معها المساحيق والملابس كل مساء في الكيس الورقي ، الذي تعود بعده قرب الفجر ؛ لتغتسل وتسقط إلى جوارها على فراش هبة كأنها مذبوحة..

منة سمعتها أكثر من مرة تمنح موعدًا على هاتفها المحمول ، وهي تهمس بأرقام وأماكن ، يختلف أحدها عن الآخر.. هل أصبحت أبلة لوزة حقًّا كما يحاول البعض أن يقول.. أبدًا.. ربما تزوجت معاق الزمالك ، أو ربما كانت تعمل راقصة في ملهى .. هكذا ترى في الأفلام .. لكن ذاك الشيء الذي يقولونه أكبر حتى من أن تفهمه أو ترضاه.. أبلة لوزة لا تفعل هذا أبدًا..

منة ستبقى تعمل وتتعلم.. مدام ثريا أخبرتها أنها يومًا ستقوم بقص وفرد شعر السيدات.. يومها ستضاعف لها أجرها.. وعندها ستطلب من أبلة لوزة أن تكتفي بعملها الصباحي.. ستساعدها في سداد دين الحاج مبروك.. لن يتحدث أحد أبدًا ، بسوءٍ ، عن شقيقتها..

إن كانت منة يومًا السبب في موت هبة ودين لوزة وخروجها إلى العمل أيا كان .. فهي أيضًا ستكون السبب في أن تترك لوزة عملها ، الذي يثير حولها الأقاويل.. ومن خلف دموعها ، نظرت إلى ورقة الخمسين جنيها ، وألقت برأسها على الفراش ، تبكي في ألم ، وهي تقول:

- وحشتيني يا هبة.. وحشتيني..

أبلة لوزة طاهرة بريئة .. لكن لو تعلم منة فقط سر هذه الملابس والمساحيق التي تخرج بها كل مساء.. لو تعلم لعرفت كيف تقطع لسان ثريا ، ولسان كل من يصور له خياله أن أبلة لوزة تبيع جسدها للرجال!!

إنه مجهد.. أربع وعشرون ساعة تقريبًا لم يذق فيها النوم لحظة.. كانت مأمورية صعبة.. يكره مراد كثيرًا أن يشترك في مأموريات القبض على المتهمين.. يكره أن يقتحم منازلهم.. يكره أن يسمع عويل النساء وتوسلات الأمهات.. يكره أن يصفعهم.. يكره أن يركلهم بقدميه.. يكره أن يفعل بهم هذا ، حتى وهو يعلم أنهم مجرمون..

كان من الممكن أن يكون منهم من يصبح مثله.. "باشا".. نعم "باشا" كما يدعونه الناس.. كان من الممكن ، كذلك ، أن يكون معظمهم أكثر علمًا ونجاحًا منه ، لو لم يكن الفقر والجهل مسلطًا على رؤوسهم منذ لحظة مولدهم.. لكنه لا يملك إلا أن يفعل.. جزء من عمله أن يفعل.. جزء من نجاحه أن يكون "باشا" حقيقيًّا .. لكنه لن يستمر.. مراد بعد أن يحصل على الماجستير والدكتوراه ، سيكتفي بالتدريس في كلية الشرطة أو الحقوق.. سيغير تاريخه.. سيقيم ثورة على قدره الذي اختاره.. كلية الشرطة كانت اختيارًا أحمق ، كان يظن أنه سيصبح رسول عدل وحق .. لكنه ذاب

في قوانينها .. قوانين الشرطة أن يكون لسانك ينبوع قذارة ، وقلبك قطعة لحم حمراء تضخ دمًا ، لا رحمة فيه أو إنسانية..

إنها الحقيقة .. لكنه لن يستسلم لها.. وداد أيضًا قطعت صلتها به.. يقتله ألا يعلم ماذا حدث.. يثير غضبه وجنونه أن تختفي وداد في اللحظة، التي قرر فيها أن تضع الدبلة الذهبية في أصبعه.. ثلاثة أسابيع منذ تخلف وداد عن موعد الجمعة ، وهو لا يعلم عنها شيئًا.. كم مرة حادث رشا وأخبرها أن تحدد له مع وداد موعدًا.. كم مرة سألها عن حقيقة ما يحدث.. وفي كل مرة تتلعثم رشا ، ولا تمنحه إجابة شافية .. إنه في طريقه إلى قسم الشرطة.. سيأخذ سيارته من هناك، ويذهب إلى البيت وينام .. عندما يستيقظ سيحادث رشا.. سيأخذ منها عنوان وداد ، ويذهب إليها إن لم تعده رشا بموعد.. وداد لن تضيع من كفه.. لقد قرر أن يكتفي بها ومعها ، وبعد تخرجها في الجامعة سيصبحان معًا أساتذة ، يدرِّسان العدل والحق ، الذي لم يستطع أبدًا أن يحققه من منصبه.. وداد لن تضيع ..

وكتم مراد تنهيدة كبيرة خرجت من صدره ، وهو يتلفت ينظر من نافذته، ورأى نفسه إلى جوار مدرسة الجيزة الثانوية ، ونظر إلى ساعة يده في جنون ، ليجدها السابعة صباحًا.. إنه موعد حضور وداد إلى المدرسة ، وبلا وعي منه قال ، في حزم ، يحادث سائق سيارة القسم:

- أقف هنا يا بني شوية..

سينتظرها.. ستظهر.. سيمنعها من دخول المدرسة.. كفاه قلقًا وألمًا وإجهادًا ..

بعد دقائق ومن بعيد رآها تتقدم في خطواتها باتجاه المدرسة ، وأسرع يغادر السيارة ، وهو ينظر إليها من بعيد.. بدت في عينيه أكثر جمالًاوبهاءً داخل زيها المدرسي .. هو يعلم أن ملابسها التي تلقاه بها بسيطة ، بل رثة إن شاء الدقة.. لماذا ابتعدت عنه؟ هل خافت من ارتداء ذاك الثوب يوم عيد مولده.. هل اعتبرتها إهانة أن يهديها ثوبًا ، ويطلب منها أن ترتديه له؟ هل عجزت عن شراء هدية له ، فآثرت أن تبتعد .. مراد يعلم أن الفتيات بل النساء جميعًا يفكرن في أشياء ، لا يمكن لعاقل أن يفكر فيها..

شهقت وداد شهقة كبيرة ، وهي تشعر بكف مراد تقبض على ذراعها ، وحين التقت عيناهما صاحت في ألم:

- مراد!!

سار بها مسرعًا، نحو البوكس القديم ، قائلًا:

- لازم نمشي من هنا ، قبل ما حد من المدرسة يشوفك..

أدخلها مراد السيارة قائلًاللسائق :

- اطلع بسرعة ناحية كوبري الجامعة..

عندما وصلت السيارة أسفل كوبري الجامعة ، وأمام برج الرياض الكبير ، قال في حزم:

- انزل إنت .. استناني بعيد..

واستدار إلى وداد ، التي تجلس غارقة في ذهولها ، ثم قال في

عصبية:

- اسمعي أنا مانمتش بقالي أكتر من أربعة وعشرين ساعة .. عايز أروح أنام وأنت لازم ترجعي مدرستك.. فيه إيه يا وداد؟!

كانت وداد شاردة تنظر إلى مياه النيل ، وهي تحاول ألا تقول شيئًا ، أو أن تجد شيئًا يمكنها أن تقوله..

لكن مراد التقط كفها ، وأمسك به بين كفيه ، في قسوة ، قائلًا:

- فيه إيه يا وداد؟!!

إن قلبه ينتفض لوعة عليها.. منذ رأى مراد ابن سيادة الناظر وهو يقودها بكفه في قسوة ، إلى سيارة البوكس ، بالقرب من المدرسة وقلبه ينتفض .. فكر أحمد الشيخ معلم اللغة العربية الأول أن يذهب إليهما.. أن يخلصها من كفه ويصرخ به ويقتاده إلى والده.. فكر أن يحادث سيادة الناظر ، ويطلب منه أن يخرج من مكتبه ، وينقذ وداد من كف ابنه.. لكنه لم يفعل شيئًا.. كل ما فعله الأستاذ أحمد الشيخ أنه وقف يتلفت خلفه ، وهو يتمنى ألا يراهما أحد سواه .

ماذا يفعل؟! يجب أن يفعل شيئًا.. وداد هي جوهرة المدرسة ولؤلؤتها.. كان يبدو عليها الذهول ، ومراد يقتادها إلى سيارته.. لو كانت تريد أن تخرج معه ، لما انتظرها في السابعة صباحًا أمام المدرسة ، واقتادها مثل

نعجة صغيرة.. كيف تغير مراد إلى هذا الحد؟! لماذا يصبح رجال الشرطة بهذه القسوة بعد تخرجهم؟! والله مازال أحمد الشيخ يذكر نقاءه ودماثة خلقه ، عندما كان يستذكر له دروس اللغة العربية في الثانوية العامة.. تغير.. أصبح بلا قلب ولا ضمير.. أصبح مراد الحسيني ضابط شرطة!!

كل هذا لا يعنيه.. ما يعنيه الآن هو الصغيرة ، التي ما استطاعت الفرار من أصابعه.. أحمد الشيخ لن يسكت.. هل يخشى مراد.. قد يقتاده إلى قسم البوليس.. قد يلفق له تهمة أو يفتعل له قضية.. أحمد الشيخ معلم اللغة العربية يخشى طفلًاعلى كتفيه نجمة.. هل ينسى ما رآه ، وينتظر وداد في الغد ويسألها؟! ماذا لو سألها .. بل ماذا لو أخبرته أن مراد اغتصبها مثلًا ، أوأرغمها على فعل ما لا تريد.. الأمور عندها ستزداد تعقيدًا..

كان جمال الحسيني على حق ، عندما كان يرفض التحاق مراد بكلية الدناءة تلك.. هل يسكت معلم الدين؟.. إنه يحفظ القرآن.. إنه خريج الأزهر.. لن يخشى طفلًاكمراد ، ولن يتخلى عن زهرة كوداد.. سيفعل شيئًا.. الآن وليس غدًا.. تقدم الأستاذ أحمد الشيخ إلى مكتب الناظر في هدوء ، وحين دخل بعد طرقات صغيرة ، ابتسم الحسيني في وجهه قائلًا:

- أهلًايا شيخ أحمد اتفضل.. أنت مش شغال الحصة الأولى ولا إيه؟!

الشيخ أحمد.. هكذا يدعوه الحسيني دومًا.. الحسيني أيضًا يحب الحق ويحب وداد.. ورفع الشيخ أحمد رأسه ، وقال في هدوء:

- مراد ابنك خطف وداد يا سيادة الناظر في البوكس بتاع القسم ، ومن على باب المدرسة.. وداد.. تصوَّر؟!

عقد الحسيني حاجبيه في دهشة كبرى ، وهو يستمع إلى كل ما رآه الشيخ أحمد ، الذي يثق فيه ويعلم صدقه واستقامة أخلاقه.. كان الرجل يتحدث ، وهو يحاول أن ينتقي كلماته .. لكن كان واضحًا أنه حقًّا يتمنى لو سحق عنق مراد تحت أصابعه..

بعد أن انتهى الشيخ أحمد من كلماته ، قال الحسيني في هدوء:

- يا رب مايكونش حد غيرك شافهم.. أنا عارف إن ماحدش حيعرف حاجة منك.. اتفضل على حصتك ، واطمن على وداد.. اطمن ياشيخ أحمد..

في طريقه إلى خارج المكتب ، قال الحسيني:

- أرجوك تبلغهم برا لو وداد رجعت ، تجيلي قبل ما تطلع الفصل..

واستدار أحمد الشيخ ، وفي عينيه ظلال دمعة رآها الحسيني من على مقعده ، وعاد يقول:

- وداد بخير .. ولو حد أذاها ، أقسم بالله العظيم ، حاجبلها حقها اللي يرضيها ولو كان من ابني..

بالحنان عشقته مرة ، وبالقسوة عشقته ألف ألف مرة.. عندما أمسك

بأصابعها بين أصابعه بتلك القسوة.. عندما جذبها من ذراعها ، وسار بها نحو سيارته في قوة.. عندما صرخ مراد في سائقه بذاك الحزم ، شعرت وداد أنها تذوب فيه عشقًا وحبًا..

عندما سألها ما الذي يحدث ، نسيت كل ما قررته.. نسيت أنها يوم عودتها هي ونجية ومحمود من سراي النيابة ، رأت محمود يبكي ، ونجية تحكي له عن الثوب.. نسيت كيف كان يصرخ في جنون ، وهو يقلّب الثوب بين يديه ويشتمه بأنفه ، كأنه يبحث فيه عن رائحة شيء ما..

نسيت أنه اقترب منها ورفع كفه ليصفعها .. لكنه أرخاه في خجل ، وأخبرها أنه تائه ضائع فاشل ، كما كان والده يقول دومًا .. بكى محمود ، وهو يضمها إلى صدره ، ويستحلفها بروح جابر أن تحافظ على نفسها.. أن تبقى كما كانت ، وكما يجب أن تكون ، ابنة ذاك الرجل ، الذي عاش ومات ، وهو يذوب فيها عشقًا وفخرًا..

نسيت وداد أنها ضمت محمود ، وأقسمت له أن الثوب ثوب صديقة لها في المدرسة ، أحضرته لها لتقوم بحياكة مثيل له.. أخبرته أنها ما استطاعت أن تخبر زميلتها أنها لن تفعل ؛ لأنها تعلم أن نجية أو محمود لن يستطيعا شراء قماش مثله ، فقررت أن تبقيه في دولابها بضعة أيام ، ثم تعيده إليها..

نسيت وداد أن القصة هدأت .. وأن نجية بعد نحيبها وبكائها ، نامت كما نام محمود ، وبقيت وحدها لا تنام.. حتى أمها أو أخوها ، لا أحد فيهما يصدق أن ثوبًا كالذي أهداها إياه مراد ، يمكن أن يقف على جسدها.. الثوب لا يناسب وداد ابنة صفط اللبن ، ومراد لا يناسبه أبدًا أن يهوى فتاة،

خرج أخوها للتو من سراي النيابة ، وسوف يحاكم قريبًا في قضية مخدرات، قد يسجن بسببها أعوامًا.. حتى الصباح بقيت تفكر .. ومع خيوط الفجر قررت أن تنسى مراد .

عندما تتخرج من الجامعة.. عندما تتقدم إلى الدراسات العليا ، وتصبح أستاذة في الجامعة.. عندما تصبح عالمة كما تنوي أن تكون.. يومها فقط قد ترتدي ثوبًا كالذي أهداه لها ، دون أن تستنكره عليها الأعين.. يومها قد تبحث عن مراد الحسيني ، وتلقي بنفسها بين ذراعيه ، حتى إن كان محمود مازال خلف قضبان السجن.

أخبرت وداد رشا بقرارها ، واستحلفتها أن تخبر مراد أنها لا تريده.. وضعت الثوب بين يدي رشا بعد أن أخبرتها قصته ، وطلبت منها أن تعيده إلى مراد .. لكن رشا أخبرتها أنها لن تستطيع أن تفعل..

وداد نسيت كل هذا ، عندما جذبها مراد من ذراعها في قسوة.. عندما اعتصر أصابعها بين أصابعه .. ألقت بوجهها على كفه ، وقبلّته في حنان وبكت.. علمت لحظتها أنها لا شيء على الأرض يهمها إلا أن تكون ذراعا مراد القويتان لها وحدها.. للمرة الأولى في حياتها ، وأعوام عمرها ، تعلم أن القسوة أحيانًا تصبح هي الحب.. تصبح هي الحنان بعينه..

لم تقل شيئًا من كل ما أفاقت عليه ليلة خروج محمود من حجز النيابة.. لم تصرخ في وجه مراد ، وتخبره أن أخاها متهم وأمها خادمة.. وداد بكت على كف مراد ، وتوسلت إليه أن يبقى في حياتها..

سمعت نفسها تقسم أنها حتى ما عادت تهتم بنجاح أو كتب.. لم تعد الهندسة الوراثية حلمها.. أخبرته أنها تود لو تبيع الأرض ، وتبقى إلى جواره..

هي كذبت وأخبرته أن أمها أخذت عليها عهدًا ألا تلقاه ، بعد أن أخبرتها وداد بالقصة كاملة ، بعد أن رأت الثوب.. ضمها إلى صدره وأعادها إلى مدرستها دون كلمة واحدة.. ستخطو إلى فصلها ، وهي مطمئنة.. صمت مراد كان وعدًا صدقته.. ذاك الصمت كان عهدًا عليه وعليها..

وعلى أولى سلالم المدرسة ، صاحت فوزية تقول:

- آنسة وداد.. حضرة الناظر عايزك في مكتبه حالًا!!

هل تخبره ما حدث؟ هل تسأله رأيه.. رغم كل شيء ، هي لا تثق في أحد سواه .. ورغم كل شيء ، هي تعلم ألا أحد يهتم بها سواه.. فليفكر معها.. ولكن ألم تتخذ قرارها.. فلم تريد أن يفكر معها أحد.. لوزة اقتنعت بكل كلمة قالتها يمنى.. أعجبها العرض.. يمنى أخبرتها تلك الليلة أنها تريدها أن تنضم لها ولصديقاتها الثلاث ، اللاتي يلتقين في شقة عبد المنعم رياض..

ابتسمت عندما أخبرتها يمنى أن اثنين ، من الطلبة العرب ، طلبوا منها أن تضم لوزة إلى المجموعة.. هل أخطأت عندما أعجبها كلام يمنى.. حاولت أن ترفض .. حاولت أن تصيح وتقول إنها لن تنضم إلى شبكة دعارة .. لكن

يمنى كانت أذكى منها .. قالت لها في هدوء إن بواب العقار ومسئولي الأمن فيها ينادونها آنسة هي وزميلاتها ، رغم أنهم يعلمون حقيقة ما يفعلون .. أخبرتها أن وقوفها على الأرصفة وتسكعها في طرقات جامعة الدول وشوارع المهندسين وحده يجعل ثمنها أقل .. ووحده سينتهي بها يومًا في السجن.

يمنى سألتها أيهما أغلى ثمنًا .. السيارة التي نشتريها من سوق الجمعة، أم تلك التي أوقفوها في معرض ، ونقف نحن خلف الزجاج نرقبها ، ونتمنى أن تمر أصابعنا عليها.. قالت إننا حتى يوم نشتريها بكل ما نملك وبآخر ما نملك ، فنحن نحافظ عليها ، وننحني لها إجلالًا، ونهيم بها سعادة وفخرًا!

لوزة ستصبح مثل يمنى.. ترتدي ثيابًا أنيقة مثلها.. الملابس العارية التي ترتديها أصبحت موضة قديمة ، ولوزة تستحق الأفضل.. العاهرات الآن يرتدين ثيابًا بسيطة لها أسماء وماركات عالمية ، ولا يضعن الأصباغ كما تضعها لوزة.. العاهرات الآن يظهرن كالقديسات.. تغير ذاك الزمان.. زمن المصباح وقنينة الخمر والثوب العاري..

يمنى التي لم تصل الثلاثين تدير المجموعة ، وتأخذ نسبة من كل واحدة فيهن .. عندها فقط صاحت لوزة تعترض .. لكن يمنى أخبرتها أنها رغم النسبة التي ستقتطعها منها يمنى ، سيكون أجرها أكبر ؛ لأن عميلها لن يلتقطها من الشارع .. هناك مصروفات.. هناك أجرة تدفع وكهرباء ومشروبات ، وسيدة تأتي يوميًا لتنظف المكان صباحًا ، وتغسل أغطية السرائر ووسائدها.. هناك رواتب ثابتة تمنح للبوابين ومسئولي الأمن في

العقار ، ولمخبري قسم الشرطة.

حاولت أن تقاوم.. أن ترفض.. هي في الشارع سيدة نفسها.. لكن يمنى عادت تخبرها أن من حقها أن تشعر بالعزة والكرامة.. من حق جمالها وصباها أن ينحني له البواب.. من حقها أن تجد مكانًا تأخذ فيه حمامها وتستبدل ثيابها.. من حقها أن تشعر أن لها امتيازات وحقوقًا.

ضحكت لوزة ضحكة صاخبة ، وهي تهلل قائلة إنها تشعر أن يمنى تعرض عليها الوزارة.

كيف تنسى تلك النظرة التي رمقتها بها يمنى ، وهي تخبرها أن الشعب نصفين : النصف الأول من الوزراء ورجال الأعمال ، مثلها هي ويمنى وصديقاتها ، والنصف الآخر إما لتسهيل أعمالهم أو الانقياد خلفهم!

لوزة فكرت طويلًا.. أصدرت قرارها.. كفاها تخبطًا على الأرصفة والطرقات.. كفاها رجال مثل خميس وأصدقائه.. لوزة قررت أن تنتقل من النصف الثاني إلى النصف الأول.. مع يمنى ، لن يعتدي عليها أحد كذاك العربي الدنيء.. مع يمنى ، ستجرب طعم العزة والكرامة.. مع يمنى ، ستتمكن من سداد الدين أسرع ، وربما تشتري سيارة لمحمود..

تأخر محمود عن موعده.. هل تخبره؟ أي فارق في أن يعلم أنها ستنضم إلى يمنى وصديقاتها ، أو تبقى وحدها تنتشل العملاء من الشوارع والسيارات.. رأته يقبل نحوها على قدميه حيث تقدم نحو المقعد ، الذي تجلس عليه أمام النيل.. يحبها.. محمود يحبها.. رغم أنه يعلم من هي وما

هي .. لكنه يحبها.. معها يشعر أنه صادق.. على ذراعيها وكتفيها يحكي كل قصصه ومخاوفه ، دون خوف أو حرج.

عندما سألته عن سيارة الميكروباص ، نكس رأسه قائلًا:

- أنا اتقبض عليَّ مع خميس.. قضية تعاطي وسلاح أبيض.. صاحب الميكروباص طردني .. بس حالاقي غيره يا لوزة..

وصاحت في ألم تقول:

- قضية.. إمتى؟! طب قومت محامي؟!

عاد يخبرها أن خميس سيتكفل بالمحامي وحده.. أخبرها أن خميس يطمئنه؛ فهي ليست المرة الأولى التي يقبض فيها عليه ، وأنه حصل على البراءة مرتين.. كان يتحدث ، كأنه يطمئن نفسه هو ويهدئها .. لكن لوزة قاطعته قائلة:

- خميس سوابق يا محمود.. خميس اتحكم عليه مرتين قبل كدا.. مافيش قاضي حيرحمه.. أنا حاقوملك محامي.. ماتخافش..

وأمسك بكفها بين كفه ، وأغمض عينيه في ألم.. لو يجد طريقة يأخذ بها نجية ووداد ومعهم لوزة ، ويهرب إلى بلاد بعيدة.. لكن قدره أن يحيا ويسجن ويموت في بلاد الخادمة فيها والغانية ، وحدهما ، فقط من يحتضنان التائه ، ويقدمان له فيها يد العون والحنان!!

إنها العاشرة مساء.. إنه موعد النوم .. لكن أنى له أن ينام دون أن يفرغ ما في صدره.. جمال الحسيني يعلم أنه غاب عن البيت يومًا ، لم يذق فيه النوم.. نجية أخبرته عند عودته من المدرسة أن مراد طلب منها ألا تنظف غرفته ، وألا تصدر صوتًا.. أخبرها أنه يريد أن ينام حتى الغد.. أخبرته أنه جاء في الحادية عشرة تقريبًا بالتحديد .. بعد أن عادت وداد إلى المدرسة ، وعاد هو إلى القسم ؛ ليأخذ سيارته بعد إنهاء محضر المأمورية..

ما ناله من النوم يكفيه.. جمال لن يهدأ أو ينام ، قبل أن يتحدث معه.. هو الآن أهدأ قليلًا.. هو مطمئن على وداد.. عندما دخلت مكتبه هذا الصباح نظر في عينيها.. جمال ليس ساذجًا.. كانت له مع النساء قصص ، انتهت بمولد كوثر رحمها الله.. جمال يعلم من نظرة وداد أنها مازالت عذراء .. من رجفة أصابعها واضطراب أنفاسها هدأت أنفاسه..

مراد لم تبلغ به الدناءة أبدًا أن يغتصب عذريتها ونقاءها.

نعم من عينيها.. من كلماتها المبعثرة التي بررت بها دخولها المدرسة في العاشرة تقريبًا ، علم أنها مازالت في براءتها ونقائها .. لكنه أدرك أيضًا أنها عاشقة من رأسها حتى أخمص قدميها..

نهض جمال عن مقعده أمام التليفزيون في هدوء ؛ ليدخل غرفة وحيده وأشعل الضوء ؛ ثم ناداه في حنان وهو ينظر حوله.. ملابسه كانت ملقاة على حافة فراشه.. هل ينتظر حتى يستيقظ ويأكل.. يشفق عليه ، ولكن لماذا لم يشفق هو على نفسه؟!

حين فتح مراد عينيه ، قال في صوت قلق:

- إحنا بقينا الصبح؟!

أرخى جمال عينيه ، وهو يجلس على مقعد المكتب الذي كبر عليه.. منذ كان في الابتدائية حتى أصبح طالبا في الدراسات العليا.. عندما اعتدل في فراشه، قال جمال في صوت خفيض:

- عايزين الصبح ييجي.. عايزين الليل دا يمشي يا سيادة الملازم أول.. يا ابن سيادة الناظر..

ورغم النوم الذي مازال بين أجفانه.. رغم الدوار والصداع الذي مازال يدق رأسه ، إلا أن مراد اعتدل في فراشه ، وهو يشعر أن شيئًا ما سيعلو صوته في هذا البيت.. رأى جمال ينظر إلى صورة كوثر التي يضعها على مكتبه، وأمسك بها بين أصابعه في حنان ، ثم قال وصوته يرتعش ، كأنه بدأ يفقد سيطرته عليه:

- تصاحب وداد العيلة بكتابين رياضة ونحو.. ماشي .. مادام هي قبلت ورضيت تبيع نفسها بيهم.. تكذب وتحلف إنك ماتعرفش إيه اللي جابها حفلة تخرجك ماشي.. لكن يا ابن كوثر تنسى نفسك وتيجي تعملّها فضيحة على باب مدرستي .. متهيألي يبقى كتير..

وأعاد جمال الصورة إلى مكانها ، ثم نظر إليه في حدة مكملًا:

- إزاي تعمل كدا في البنت الغلبانة وليه.. ليه؟!

شعر مراد أن غرفته ضاقت ، حتى أصبحت مربعًا صغيرًا ، يطبق على أنفاسه.. وداد رأتها المدرسة.. هو يعلم أن المدارس والمستشفيات تنتقل فيها الأخبار كالجراثيم والفيروسات.. عاد ينظر إلى وجه أبيه في لهفة ، رغم ذعره الكبير .. وبعد لحظات أرخى رأسه قائلًا:

- أيوة كدبت لما سألتني يوم التخرج.. كنت عايز أستنى لما تتخرج هي من مدرستك ، عشان ما تتغيرش معاها.. يعني كدبت عشان أحميها.. أنا بحب وداد وعايز اتجوزها..

كان جمال ينظر إلى وجهه وهو يتحدث ، ويتلون بالألم والخوف .. يشرح له كيف لم يشعر بنفسه ، عندما وجدها أمام باب المدرسة هذا الصباح.. أخبره أنه كان مرهقًا خائفًا بعد غياب وداد عنه.. أخبره أنه يعلم أنه تهور .. لكنه فعل كل هذا لأنه حقًّا يحبها..

وفي هدوء قال الحسيني:

- بتحبها ممكن .. لكن مش بتحترمها يا باشا.. لو كانت وداد واحدة تانية.. بنت لواء مثلًاولا بنت مأمور القسم ، ما كنتش أبدًا حتقدر تعمل كدا فيها على باب مدرستها.. بتحبها لكن مش بتحترمها.. والحب من غير احترام شعور ، ما يستحقش إني أنا أو غيري نفهمه أو نحترمه.

واتسعت عينا العائد من نومه في ذهول .. كأنه يسأل نفسه هل كان يفعل ما فعل ، لو كانت وداد حقًّا ابنة مأمور القسم.. وفي ذهول من الإجابة التي لاحت برأسه ، صاح في ألم:

- أنا عايز أتجوزها.. أنا بكرة حاروح لأمها وأخطبها.. ساعتها ماحدش في المدرسة حيقدر يقول حاجة..

ونهض جمال الحسيني عن مقعده في هدوء ، ثم اقترب منه قائلًا:

- وتروح ليه؟ أمها بكرة الصبح حتكون عندك..

وزاد اتساع عينيه.. هل علمت أمها بالقصة.. هل حادثت جمال الحسيني.. هل أسقطت غضبها على وداد؟! هل أبكتها؟! وانتفض واقفًا أمام أبيه ، وهو يسأل:

- هي أمها كمان عرفت؟!

وابتسم جمال الحسيني ابتسامة صغيرة حزينة قائلًا:

- لا ماعرفتش.. ماحدش غيري يعرف .. ولا أنت كمان تعرف إن أمها قدامك كل يوم..

وقبل أن يفكر مراد أو يسأل ، قال الحسيني في هدوء وألم:

- أم وداد تبقى نجية!!

يوم الثلاثاء هو اليوم الكامل الذي تقضيه هنا.. في الصباح تتابع تنظيف المكان وتجهيزه للمساء.. كل فتاة لها يومان كاملان في الأسبوع..

اليوم هو يوم الثلاثاء.. يوم لوزة الكامل هنا..

أصبحت تحب المكان.. أصبحت تحب كثيرًا أن تأتي إلى شقة الأصدقاء، كما تطلق عليها هي و"البنات".. البنات!! لم تكن تعلم أنها حقًّا ستحبهن إلى هذا الحد.. مازالت هي أقلهن في السعر .. لكنها قريبًا سيصبح لها أجرهن نفسه .. أصبحت أكثر أناقة.. بدأت تعتاد التخلي عن ألفاظها السابقة .. بل بدأ يصبح لها خطوة غير خطوتها.. أصبحت تجلس ، وهي تضع ساقًا فوق الأخرى.. وتخرج سيجارة من حقيبتها ، وتنظر في دلال إلى عميلها كأنها تذكره بخطيئة قام بها ؛ لينتفض ويشعل لها السيجارة بابتسامة.. مازالت لا تحب التدخين .. لكنها أدركت أن السيجارة ، بل والطريقة التي تمسكها بها بين أصابعها ، والطريقة التي تنفث بها دخانها من بين شفتيها ، تشكل فارقًا كبيرًا..

إنها سعيدة.. وأكثر ما يسعدها هو هذا المكان.. أصبحت تحب هذه الشقة.. تحب هذه الشرفة الكبيرة ، التي تقف بها الآن ترقب ميدان عبد المنعم رياض حتى ميدان التحرير.. شهران منذ استقالت من عملها في المستوصف.. شهران منذ أصبح عملها اليومي هنا.. شهران منذ أصبحت الآنسة لوزة.. يطربها كثيرًا أن يرفع المخبر يده ويحييها ، كلما رأته أسفل العقار.. يسعدها أن ينحني لها "مؤمن" منادي الشارع ، ويفتح لها باب السيارة قائلًا:"بالسلامة يا آنسة لوزة".

هناك عملاء يطلبون خروجها معهم إلى شققهم الخاصة ، كنوع من التغيير.. يمنى لا تمانع.. يمنى تعرفهم ، ولوزة تذهب معهم وتعود.. تعود

أكثر ذهولًا وأكثر ثقة في نفسها.. وليد الأهواني مثلًا يأخذها كل أسبوع إلى استراحة المريوطية.. ترقص لوزة في تمنع ودلال مع أصدقائه ، الذين غالبًا ما تختلف وجوههم كل أسبوع.. تأكل أشياء لم تكن تعرف اسمها أو طعمها.. تأكلها كأنها تفعل فقط من أجل إرضائه.

تعلمت أن تصبح شخصًا آخر غير ذاك ، الذي كانت عليه من قبل .. لكنها تعلمت أيضًا أن تعود إلى طبيعتها في اللحظة ، التي يغلق فيها الرجل الباب عليها وعليه منفردين.. عندها تعود الماجنة ، التي تعلم كيف ترسم الدهشة والشهوة والارتواء على ملامحها وأوصالها.. حفلات الأهواني لها حساب خاص تضعه يمنى في يدها .. لكن الأهواني وأصدقاءه يضعون في يدها أوراقًا نقدية وهدايا صغيرة ، تدعي دومًا أنها لا تريدها..

تعلمت في شهرين ما لم تتعلمه في أعوام عمرها.. لكنها بقيت في أعماقها كسيرة.. مازالت كلما وقفت بهذه الشرفة وحدها ، ترى وجه هبة وتبكيها في ألم.. مازالت تشعر بشيء كبير ، يجثم على صدرها كلما اقترب موعد عودتها إلى البيت ؛ لترى عيون منة تسألها أين كانت ، وكيف أصبح لديها كل هذه الملابس..

لوزة تعلم أن منة وجيران الحي لا يصدقون قصة الطبيب الكبير ، الذي التحقت لوزة بالعمل في عيادته.. جميعهم لا يصدقون .. لكنهم لا يتحدثون معها في شيء.. بعضهم أصبح لا يحادثها أو يزورها .. والبعض الآخر يرقبها في تشكك أو احتقار كلما خرجت أو دخلت من بيتها. منة مازالت تعمل رغم محاولات لوزة معها بأن تترك عملها ، إلا أنها في كل يوم تراها

تتمسك به أكثر.. ما عاد يعنيها شيء.. أين كان الجيران .. وأين كانت منة نفسها يوم ماتت هبة ، واضطرت لوزة للخروج في اليوم التالي إلى شارع جامعة الدول العربية ؛ بحثًا عن رجل ينهش لحمها ؛ لتضمن ألا يلقي بها مبروك في السجن.. في النهاية هي تعلم أنها ستموت أو تدخل السجن.. لوزة تعلم أن الله لم ولن يغفر لها.. منذ ماتت أختها ، وهي تعلم أن الله يعد لها نهاية كنهاية هبة.. ما الفارق إذًا ؟!

الفارق أن تسدد ديونها.. أن تحيا والرجال تنحني لها .. أن تنقذ محمود من السجن.. أن تدخر له ما يشتري به سيارة خاصة به.. وحده يستحق أن تسانده.. وحده يتألم ويتمزق لما تفعله ، ورغم هذا يحبها ويحترمها بصدق ، فهو مثلها يعلم معنى كلمة "المضطر" ومعنى كلمة "القهر".. والله لو كانت تملك آلافًا كثيرة ، لاختارت له أكبر محام في هذا البلد .. لكن ما تكسبه بالكاد يكفي أقساط الدين والملابس ومصروفات الاحترام والحماية.. يكفيها أنها تمارس عملها في مكان كهذا.. مكان له شرفة تطل على قلب القاهرة.. مكان أسفله حراس ينحنون لها.. مكان يدخله رجال مثل وليد الأهواني..

لو بقيت كما كانت .. لما قبل رجل مثله أن تعمل خادمة في منزله .. لكن الأهواني يأتي إلى شقة الأصدقاء .. يسهر ويضحك ويشعل لها سجائرها ، ويأخذها في سيارته ، ويمنحها أجرتها التي تأخذها بعزة وكرامة.. نظرت لوزة إلى الميدان وابتسمت ، وهي تستدير لتدخل..

حتى العزة والكرامة أصبحت تُشترى بالقروش!!

لا شيء يبقى على حاله.. كل شيء ينقلب في لحظة رأسًا على عقب.. كان هو في البداية من يحادث رشا كل يوم كالمجنون .. يبحث عنها وعن سر اختفائها ، وفي لحظة أصبحت وداد ، هي التي تحادثه على الخط الخاص بهما.. كان في البداية يتمزق ، وهو لا يستطيع أن يرد عليها.. بقي أيامًا كالمجنون ، يخشى أن يفتح الخط ، فتخرج منه الكلمات رغمًا عنه.. كان يخشى أن يسألها لماذا لم تخبره أن نجية أمها.. أخبره الحسيني أن وداد لا تعلم.. وأن نجية نفسها لا تعلم أنه يعلم .. فقد كان ذلك شرطها الوحيد لتهاني حتى تقبل العمل.. لكن مراد بقي أيامًا وربما أسابيع يشعر أنه في اللحظة التي يسمع فيها صوت وداد سيصرخ يسألها لماذا؟! لماذا تترك أمها بيوت مصر كلها ، وتعمل لدى جمال الحسيني؟ بل لماذا جاءت للعمل عندهم عن طريق تهاني.. هل هو انتقام السماء لتهاني ودعاء التي يعلم أنها تحبه؟!

هل يجرؤ يومًا على إخبار خالته بأنه غارق في هوى ابنة خادمتهم ؟!

بقي مراد أيامًا يتأمل وجه نجية في ذهول.. بقي كلما عاد إلى المنزل ، وهي فيه يتعمد أن يراقبها ، وهي تلتقط ملابسه من الأرض.. يراقبها وهي تنظر إليه في خوف ، وتركض لتعد له كوب الشاي أو صحون الطعام..

كيف لم يلحظ يومًا أن وداد تشبهها كثيرًا .. كيف لم يلحظ رجل الشرطة الماهر أن وداد هي نجية صغيرة ، حتى في عفة نفسها وكبريائها؟!

بقي أيامًا يتمنى لو يدخل مطبخ البيت ، ويلتقط من نجية صحنًا

تغسله أو قطعة القماش ، التي تمسح بها أرض مطبخهم .. في نهاية عملها كل يوم ويصيح يسألها هل يمكن حقًّا أن تتغير لهجته في الحديث معها.. هل يمكن حقًّا أن يقول لها إنه يريد الزواج من ابنتها؟! هل يمكن أن يأتي يوم ، يقول فيه طنط نجية أو ماما نجية.. وهل تتمكن طنط نجية من الجلوس في صالون بيتهم يومًا ، بوصفها أم خطيبته ؛ لتتبادل الحديث مع خالة مراد؟ وهل يحضرون خادمة جديدة ، تحمل لهم كؤوس الشربات وقطع الجاتوة؟!

صالون بيتهم؟! لا يمكنه حتى أن يتصور المشهد في بيت طنط نجية.. في بيت الخادمة.. أيام وأسابيع ، وهو يكاد يجن.. طلب من الحسيني أن يطردها .. طلب من والده أن يطلب منها عدم الحضور.. أخبره أنه سيدفع لها أجرتها كاملة كل شهر من راتبه .. لكنه لا يستطيع أن يراها أمام عينيه.. الحسيني أخبره أن طرد نجية هو قتل لها ولوداد ؛ خاصة في هذا التوقيت ، الذي تستعد فيه الفتاة لتحديد مستقبلها..

كان صعبًا.. صعبًا أن يعتاد مراد وجود نجية.. رغم أنهم منذ أشهر قليلة كانوا يدعون الله ألا تفارقهم أبدًا.. إنها أكثر الخادمات نظافة وأمانة.

الخادمات!! يقتله أن يقولها ، ولكن هل لها صفة أخرى ؟!

حبيبة قلبه حادثته كثيرًا بعد لقاء الصباح ذاك ، ولم يستطع أن يرد عليها .. قاوم ، وهو يخشى انزلاق الكلمات من بين شفتيه.. لكنه لم يقاوم طويلًا.. التقى وداد مرة واحدة.. التقاها صباح جمعة.. أمسك بذراعها في هدوء ونظر طويلًا إلى عينيها ، يبحث عن إجابة السؤال.. هل تعلم وداد أن

أمها خادمتهم.. ماذا تفعل لو علمت ، وماذا يفعل هو إن شاركها السر؟!

مراد عندما رأى دمعات وداد ، وهي تسأله عن سر اختفائه عنها ، مسح جبينها بقبلة صغيرة ، وسألها إن كانت حقًّا تحبه؟!

طلب منها أن تعده بالتفوق.. طلب منها أن تكون الأولى على المحافظة ، بل وربما على الجمهورية.. أخبرها أنه عندها فقط سيفعل شيئًا كبيرًا ، يغير به حياتها وحياته.. أخبرها أنه يحبها وأنه مشغول ، وأنها أيضًا يجب أن تنشغل فقط بالاستذكار والتفوق.. وعدته ووعدها أن يحادثها كل جمعة على هاتف رشا .. هو يعلم أنها ستحافظ على وعدها .. لكن ماذا عن وعده هو؟! لا يعلم.. غدًا السبت أول أيام اختبارات الثانوية العامة..

ما يعلمه أنه سيحادثها على هاتف رشا ويخبرها أنه يحبها ، وأنه في كل يوم سيطمئن على أدائها ، وفي كل مرة تخبره فيها أن إجاباتها كانت كاملة وصحيحة .. سيعلم أنها هي حقًّا تحبه.. سيحادثها ويخبرها أن الأيام تنقضي ، ويأتي اليوم الذي يصنع فيه ما وعدها به.. مراد الحسيني سيفعل شيئًا كبيرًا يغير حياتها وحياته هو أيضًا!!

كل شيء أصبح كالكابوس.. كل شيء ، يجعلها تتمنى أن تدخل إلى فراشها لتنام ولا تستيقظ أبدًا.. مراد تغير منذ شهور معها.. تكاد نجية تقسم بالله أنه يظنها تسرقهم.. تكاد تقسم بالله أنه يدبر لها قضية ، أو يومًا

سيجرها من ذراعها إلى السجن.. منذ شهور ، وهو يراقبها في كل خطوة تخطوها في المنزل.. منذ شهور ، وهو يدخل عليها المطبخ كلما كان في المنزل ، كالمجنون ثم ينظر إليها في قسوة ، كأنه يسألها ماذا تسرق؟!

لكن نجية لم تسرق يوما منهم شيئًا.. إنه العام الثالث تقريبا لها في منزل الحسيني.. حتى طعامهم لا تتناول منه شيئًا إلا نادرًا.. لقد تجرأت أكثر من مرة ، وسألته إن كان هناك ما يغضبه منها.. سألت الحسيني نفسه إن كان هناك تقصير في عملها ، أو شكوى منها .. لكن لا أحد فيهما منحها إجابة ، تنير لها ظلمة هذا التحول المفاجئ.

فكرت ، أكثر من مرة ، أن تجد لها بيتًا آخر تعمل فيه .. لكنها تخشى إن فعلت أن يؤكد هذا ظنون مراد بها.. هي أيضًا لا تريد أن تدخل بيتًا آخر، وتدلي رأسها أمام أسياد آخرين.. اعتادت بيت الحسيني .. لكن الدخول إليه، كل يوم ، أصبح كالكابوس الذي لا تعلم كيف ستخرج منه..

وداد انتهت من اختبارات الثانوية العامة .. والنتيجة ستظهر في غضون أيام قليلة.. أخبرتها أنها ستكون من أوائل البلاد.. هل تذهب إلى لقاء الوزير؟! إنها اللحظة التي تحلم بها.. اللحظة التي حرمتها الأقدار منها يوم وفاة جابر ، وتشعر أنها ستحرمها منها أيضًا هذه المرة..

إن كرّمها الوزير وإن ذهبت وداد إلى لقائه .. فنجية لن تذهب معها.. ربما يذهب نظراء المدارس مع طلبتهم إلى لقاء الوزير.. سيراها هناك جمال الحسيني.. تموت نجية قبل أن يراها الحسيني إلى جوار وداد..

عند ظهور النتيجة.. عند تفوق ابنتها ، وعند تحديد موعد اللقاء ، ستسألها في براءة .. هل يذهب معلمو المدرسة ومديرها مع المتفوقين إلى الوزير.

رغم كل شيء نظرات مراد الحسيني وتحوله لم يصنعا بها هذا.

وداد واختباراتها وتقلب أحوالها ومزاجها ، أيضًا ، لم يزرعا الشيب في شعرها ، ولا حتى قضية محمود..

الشيب وضع بذرته في جذور رأسها اختفاء ذاك ، الذي طار يومًا بها إلى السماء.. من وضع أعوامًا على أعوام عمرها.. من وضع أحمالًا على أحمال قدرها.. من اقتلع الحياة من أعماق جذور قلبها ، هو ذاك المرزوق.. ثلاثة أعوام تقريبًا ، ومازال البيت مغلقًا .. ومازال جرحها من اختفائه ، مفتوحًا عاريًا ينبض بالألم ، كأنه وليد اللحظة..

فقط لو تراه مرة واحدة.. لو تسأله سؤالا واحدًا.. ربما لحظتها تتوقف رؤوس الشيب عن الزحف والانتشار بين خصلات شعرها وطبقات جلدها .. أصبح كل شيء في حياتها كابوسًا ، تتمنى أن تفيق أو تغفو ، فلا تصحو منه بعد إغفاءتها أبدًا.. لماذا تفكر في كل هذه الأشياء الآن.. لماذا تعذب نفسها.. ألا يكفيها ما ستواجهه بعد دقائق من الآن؟!

يارب لا تكسرها أكثر.. ما عاد في قلبها جزء قابل للكسر.. أصبح قلبها قطعًا صغيرة ، أصغر من أن تصيبها رصاصة جديدة من رصاصات القدر.

استدارت نجية تنظر حولها في خوف.. دقائق وينطقون بالحكم في قضية محمود.. تسللت معه هذا الصباح ، وتركوا وداد نائمة ، دون أن يخبروها أنه اليوم العظيم.. اليوم الكبير الذي حُدد للنطق بالحكم على محمود.. أقسمت عليه ألا يخبرها.. عانت وداد كثيرًا في اختباراتها.. تحيا الآن في انتظار النتيجة وتحديد مستقبلها.. محمود أيضًا وافقها الرأي .. يسكنه إيمان كبير أنه سيحصل على البراءة .. بل حاول كثيرًا أن يذهب وحده ، ولكنها ما تركته وهل تترك أم طفلها في يوم كهذا.. رفعت عينيها ترمقه خلف قضبان قفص المحكمة.. لماذا وضعوه في القفص.. لقد أتى بقدميه.. هل يخشون الآن هربه؟! لا تفهم.. لماذا لم يتركوه يجلس إلى جوارها ؛ لتمسك بكفه بين يديها ، وينطلقا في هدوء بعد صدور حكم البراءة..

رأته ينكس رأسه في هدوء ، كأنه يخجل من النظر إليها ، أو يشفق على نفسه من أن يرى عينيها المذبوحة ، التي عادت تبحث بهما عن خميس عبد العال .. لم يأت .. ربما حددوا للحكم عليه يومًا آخر.

تنهدت في ألم.. لا تريد أن تراه أبدًا ، وقبل أن تلعنه في صدرها تسرب إليها صوت القاضي يعلن الأحكام الصادرة في القضايا ، التي تقرر إصدار الأحكام فيها.. سينتهي هذا الكابوس في لحظات.. محمود سيعود إلى عمله على الميكروباص العاشر في أيامه منذ القضية .. وهي ستذهب إلى منزل الحسيني ، الذي أخبرته بالأمس أنها قد تتأخر حتى منتصف النهار.. كل شيء سينتهي ، وسمعت صوت القاضي ينطق باسم محمود ، الذي انتصب واقفًا في القفص ، وسمعت أيضًا الحكم لكنها لم تفهم.

القاضي يقول إنه حكم على محمود جابر عبد الواحد بالسجن عامًا "مع الشغل والنفاذ"!! وقبل أن يستوعب رأسها معنى الكلمات ، سمعت صرخة تدوي في قاع المحكمة ، واستدارت نجية ، تنظر إلى فتاة بيضاء جميلة تصيح "محمود". عادت نجية تنظر إلى وجه محمود.. مازالت لا تفهم شيئًا .. لكن شيئًا في وجهه شرح لها كلمات القاضي.. دمعًا في عينيه جعلها تستعيد الحكم حرفًا حرفًا .."عام مع الشغل والنفاذ".. سيبقى داخل القفص عامًا.. لن يعود معها .. محمود أصبح سجينًا.. وعادت الشابة تصيح ، بعد خروج القاضي من القاعة ، وهي تتهم المحامي ، الذي كان يتحدث مع القاضي ، قبل أن ينطق بالحكم بالتقصير والإهمال..

مازالت لا تفهم .. ومازالت قدماها مربوطة أسفل جسدها .. تتمنى أن تركض إلى ابنها.. أن تصيح .. لكن شيئًا كبيرًا يقيد لسانها وقدميها ورئتيها.. ورأت الشابة تركض نحو القفص ، وتحاول الإمساك بأصابع محمود ، وهي تصيح أن هناك استئنافًا وأنها أبدًا لن تتركه.. ونهضت عن مقعدها وهي تترنح.. يجب أن تذهب إليه .. لكنها لا تستطيع.. نجية تشعر بأن الأرض والسماء ، يدوران بها في جنون ، ورفعت أصابعها تلوح له ، وهي تراهم يأخذونه إلى حيث لا تعلم ، وسمعته يصيح في جنون:

- أمي يا لوزة.. أمي!

رغم الدوار.. رغم الذهول .. إلا أنها خطت نحوه ، وأسرعت لوزة تركض إليها ؛ لتمسك بذراعيها قبل أن تسقط ، وهي تقول:

- ماتخافيش يا خالتي.. محمود حيرجع.. حيرجع!!

مسكينة وداد.. كان يجب أن يستجيب لقلبه ويذهب لرؤيتها ليخبرها بالنبأ العظيم.. ولكن ليعترف أيضًا أنه اشتاق إليها كثيرًا.. وضع مراد قطرات من إحدى قناني عطره في هدوء ، ثم توجه إلى خارج البيت ، وقبل أن يصل إلى باب البيت ، رآها تنحني في ألم ، وهي تلتقط حذاء الحسيني ، الذي قرر أن يرتدي سواه فتركه في صالة البيت هذا الصباح..

حتى نجية أصبح يشفق عليها كثيرًا.. غابت عنهم أربعة أيام لم تحضر فيها.. كل شيء في المنزل ، شعر به مراد وأبوه يناديها.. يوم رآها عند عودتها في اليوم الخامس ، شعر أن كارثة ما وقعت بها.

انقبض قلبه ذاك الصباح ، وهو يسمعها تعتذر لوالده وتبرر انقطاعها عن العمل.. انقبضت روحه ، وهو يراها تكاد تزحف وتجر قدميها إلى المطبخ ، بعد أن أخبرها الحسيني أنه ليس غاضبًا منها ، بل كان قلقًا عليها.. فلا هي اعتادت الغياب ، ولا هو ، بعد هذه الأعوام ، يعرف لها عنوانًا أو طريقًا ليسأل عنها..

دخلت ليخرج هو ذاك الصباح ويذهب إلى عمله.. أرسل يومها من قسم الشرطة ، الذي يعمل به من يحضر له أخبارًا عن نجية.. ليست أخبارًا بل تحريات.. نعم تحريات ، كانت نتيجتها أنه علم سبب غيابها.

وداد بخير .. لكن لها أخًا صدر عليه حكم بالسجن ، بتهمة التعاطي وحيازة سلاح أبيض.. كيف ينسى أنه ضحك بصوت عال يومها.. هل ضحك

من الألم على نفسه ، أم على وداد وأخيها؟!

له صديق يعمل في الحراسات الخاصة لدى أحد الوزراء ، أقسم له يومًا أنهم في حفلاتهم يوفرون المخدرات ، ويمرون بها على من شاء من ضيوفهم.. بل إن كثيرًا من زملائه في الشرطة ، تصلهم ذخيرتهم من سجائر الحشيش إلى أماكن عملهم ؛ ليضعوها في جيوبهم ، ويتجولون بها في الشوارع ، دون أن يقترب منهم أحد .. لكنهم ضباط والآخرون وزراء.. أما وداد فهي ابنة خادمة ، وأخوها سائق ميكروباص.

الفرق كبير.. كبير جدًا.. حتى العدل فتح عينيه ، وأصبح ينتقي جيدًا من يوقع عليه أحكامه.. وعاد يرمق نجية بعينيه في إشفاق.. أصبحت مشاعره نحوها محزنة منذ ذاك اليوم ، الذي عادت فيه.. يتمنى أحيانًا لو يطوقها بذراعيه ، ويضمها في حنان ، ثم يأخذها إلى سجن "أبو زعبل" لزيارة ابنها والتوصية عليه .. وأحيانًا أخرى يتمنى لو يرمي بها في إحدى غرف سجن القسم ، ويتلذذ بصفعها وسبابها.. لو لم تعمل نجية خادمة ، بل لو اختارت بيتًا غير بيتهم ، لما تمزقت ضلوعه بين الشفقة والاشمئزاز.

ما ذنب وداد؟! ما ذنبه هو أيضًا؟! وما ذنب الحسيني في أن يمزق قلبه ، ويطلب منه أن يذهب معه إلى بيت خادمته ليطلب ابنتها الوحيدة.. طفت على وجه مراد ابتسامة ساخرة ، وهو يتذكر كلمات والده.. هم ليسوا بحاجة إلى الذهاب إليها.. هي تأتيهم كل صباح!! جاءه صوت نجية تسأله إن كان يريد شيئًا.. هو يعلم أن وقوفه أمامها أصبح يثيرها.. حملقته الكثيرة في وجهها يعلم أنها تضع في رأسها ألف سؤال ، ما أصبحت تحتمله. هز

رأسه يجيبها بالنفي ، وقبل أن يفتح باب البيت تذكر شيئًا نسيه.. تذكر هدية يحملها إلى وداد ، بعد غياب طال أكثر من شهرين عنها ، وعند خروجه من غرفته ، مرَّ بها من جديد ، قائلًا:

- نجية!!

رفعت وجهها تنظر إليه ليرى في عينيها شيئًا كالدموع.. هل تعلم أنه في طريقه للقاء ابنتها؟ ولو علمت ما تراها تصنع؟ هل تعلم أنه ضم ابنتها إلى صدره وقبلها قبلتين ، وحدهما جعلتاه يترفع عن كل نساء الأرض.. هل تصدق نجية حقًّا إن مراد بك ، كما تدعوه ، غارق في هوى ابنتها حتى إخمص قدميه.. إنه لا يعلم كم يتمنى لو يضم أمها أو يمحوها من سطور أيامه؟!

وفي ضيق واضح ، قالت:

- في حاجة؟!

نكس مراد رأسه ومضى إلى باب البيت.. ليست حاجة واحدة .. لكنها احتياجات كثيرة.. حاجة إلى النقود دعتها إلى العمل.. وحاجة إلى الحياة والحب وحدهما ، دعته إلى الخروج ، ولقاء وداد من جديد!

ابتسامة صغيرة مريرة لاحت بوجهها الرقيق ، وهي تتحسس بيدها

الشجرة الكبيرة ، التي تقف أمام مدرسة الجيزة الثانوية للبنات.. هذه الشجرة شهدت أول لقاء لها بمراد ، وهذه الشجرة أيضًا شهدت عناقها لمحمود ، يوم جاءها بعد هروبه واختفائه بعد قصة مرزوق القديمة.

ستبقى تلتقي مراد عند هذه الشجرة.. المدرسة بأكملها تحبها ، قضت بها أجمل أيام عمرها.. ألا يكفي أنها التقت مراد نفسه داخلها ذات يوم.

كيف مرت ثلاثة أعوام.. كيف دخلت وتخرجت منها ، وهي الآن تستعد للالتحاق بالجامعة .. لكن لماذا تسأل كيف حدث كل هذا ومتى حدث؟! ما يجب أن تسأله وتفكر فيه هو ما الذي سيحدث؟! إلى أي جامعة ستذهب؟ وماذا ستفعل مع مراد ، بعد أن قاربت نتائج الثانوية على الظهور؟! مازالت تستعيد قسوة ذراعيه ، وهو يشدها نحو سيارته منذ شهور..

نجية ومحمود هما من يفكران في أشياء حدثت ، ويجترون ندمهم وحزنهم عليها .. لكن وداد تعلم أن ما يفكر فيه الإنسان العاقل هو الحاضر والمستقبل.. أي مستقبل ينتظرها.. ماذا سيقول لها مراد ، ولماذا طلب لقاءها أخيرًا.. لأنه وعدها أن يوم انتهائها وتخرجها من الثانوية العامة ، هو يوم الشيء الكبير ، الذي سيفعله من أجلها؟ تعلم ما هو الشيء الكبير.. مراد يريد أن يتزوجها ، أو على الأقل يخطبها.

ماذا لو سألها عن محمود.. بل ماذا لو جاء بيتهم ولم يجده؟! ماذا يحدث عندما يعلم سيادة الضابط أن شقيق عروسه سجين بتهمة المخدرات ، وأن أمها خادمة؟! هذا هو المستقبل.. إذن فلترجئ التفكير في المستقبل قليلاً ، وتفكر في الحاضر.. الحاضر هو الآن.. الآن حبيبها قادم.. الآن هي

تحتمي بهذه الشجرة العتيقة ، التي تحبها ، ورأته بعد لحظات يهبط من سيارته ويتقدم نحوها في حنان.. حين أمسك بكفها ، وهمس "وحشتيني" أغمضت عينيها ، ونسيت الماضي والحاضر والمستقبل..

في سيارته ، لم يفارق كفها أصابعه.. في سيارته وإلى حيث لا تعلم ، كان يقود في هدوء ، وهي تنظر حولها في دهشة ، كأنها ترى كل شيء للمرة الأولى ، وسمعته يسألها إلى أي جامعة تنوي الذهاب وابتسمت.. ابتسمت وداد للمرة الأولى منذ ذاك اليوم ، الذي علمت فيه أن محمود أودع السجن.. ابتسمت ، كأنها بدأت حقًّا تنسى بكاء نجية وتمزقها ونحيبها ، الذي ما توقف ليلة منذ غياب محمود عنهم.

ابتسمت ابتسامة حانية رقيقة ، وأخبرته أنها تتمنى الالتحاق بكلية العلوم لدراسة التخصص الذي تعشقه.. الهندسة الوراثية engineering Genetic.. لكن هذا التخصص لا يدرس إلا في جامعتين خاصتين على أرض مصر.. أخبرته في صفاء أن مصاريف العام الواحد في الجامعتين يساوي أضعاف ما أنفقته عائلتها على تعليمها ، منذ دخولها الابتدائية حتى هذا اليوم..

ضغط على كفها في حنان وإشفاق كبيرين .. لو يعلم أنه سيتزوجها.. لو يثق فعلًاأنه سيفعلها ، لربما عرض عليها أن يتحمل هو نفقات تعليمها.. لكنه يعلم أن زواجه منها أصبح يتأرجح أمام عينيه في جنون..

أوقف سيارته في أحد الشوارع الهادئة ، وأخذ ينظر إليها كأنه يروي ظمأ أشواقه إليها.. اشتاق إليها.. اشتاق إلى كل قطعة في وجه وداد..

اشتاق كثيرًا إلى شعرها الغزير الناعم .. وفي هدوء مد أصابعه ، يسقط عنها حجابها ، وابتسم وهو يغمض عينيه.. لم تضع مشابك كثيرة في رأسها.. كانت تعلم أنه سيفعل ، أو ربما كانت هي الأخرى تريده أن يفعل.. سقط شعرها على كتفيها في دلال ، ورآها تغمض عينيها هي الأخرى ، وهمست في ألم:

- ليه غبت عني يا مراد؟ ليه..

قبل أن يجيبها ، رمت بنفسها على صدره وبكت في هدوء على صدره.. بكت طويلًاويده تتجول على شعرها في حنان..

كان يعلم سر بكائها.. لا تبكي شوقها إليه فحسب .. هي تبكي خوفها من المستقبل.. تبكي أخاها السجين وأمها الخادمة.. تبكي جامعة لا تستطيع الالتحاق بها رغم تفوقها.. وداد تبكي أشياء كثيرة ، لا تعرف أنه يعرفها ، ولا يستطيع حتى أن يخبرها أنه يعرفها.

وسمعها تقول : "ورحمة أمك يا مراد ما تبعدش عني أبدًا".. وضمها إلى صدره ، كأنه يخبرها بأنه لا يستطيع أن يفعل .. لكنه لا يعلم ما الذي تفعله بها وبه الأقدار.. وضع قبلة على جبهتها ، ثم ابتعد بوجهها عن جسده لينظر في عينيها قائلًا:

- عارفة .. أنا طلبت أقابلك ليه ، وأخذت أجازة الصبح من شغلي النهاردة ليه؟!

وسقط قلبها تحت قدميه ؛ لتقول في خجل إنها لا تعلم.. لكنها تعلم..

سيخبرها بالشيء الكبير الذي وعدها به ، وتوردت وجنتاها بالحب والخجل لتسمعه يقول:

- كلموا بابا من الكنترول إمبارح ، وبلّغوه أن الثانية على الجمهورية من مدرسته.. الثانية على الجمهورية أنت يا وداد.. مبروك يا حبيبتي..

كانت تنظر إليه في ذهول.. كانت تنظر إليه ، وشعرها ثائر حول وجهها وعنقها يريد العودة إلى أصابعه.. كانت تعلم أن ما يخبرها به هو شيء رائع كبير .. لكنها كانت تنتظر شيئًا أكبر وأكثر روعة.. ورأت عيناها مراد ، وهو يستدير إلى مقعد سيارته الخلفي ، ويلتقط علبة ، وضعها بين كفها قائلًا:

- وداد.. هدية نجاحك.. موبايل فيه خط ومشحون.. أرجوك لازم أبقى معاك خطوة بخطوة.. مابقاش ممكن ما نكونش..

ما نظرت إلى الهدية وما لمستها وما فكرت ماذا تخبر نجية عنها ، أو إن كانت ستستطيع أن تفعل.. كانت تترنح كأن كل شعرة في رأسها تصيح ، وتطلب منها العودة إلى ذراعيه .. وألقت بنفسها عليه من جديد ، ودست وجهها بالقرب من عنق مراد.. إنها حزينة رغم الحب والهدايا .. خائفة رغم النجاح والتفوق .. وحيدة ولا شيء تلقي بكل هذا عليه سوى صدر هذا الرجل.

شعر بأنفاسها تغزو عنقه ، ونظر بعينيه إلى الشارع ، الذي يقف فيه بسيارته .. لا أحد سيعترضهما ، وإن فعلها أحد لن يجرحها أو يؤذيها

أحد.. وداد بين ذراعي رجل شرطة!! وأخذها في قبلة طويلة حانية ، سكب فيها بين شفتيها حيرة لا تعرفها.. سكب بينهما أَلمًا لا تصدق أنه بحبه لها يحيا .. سكب حبًّا يخشى أن يحرمها منه ، رغم أنه يؤمن أنها وحدها من تستحقه.. شعر بها تذوب بين شفتيه.. شعر بها تريد أن تتلاشى ؛ لتنسى ما يريد هو أيضًا أن ينساه .. لكنه ابتعد بها في حنان .. ونظر إليها في لوم كأنه يفيقها ، ويفيق نفسه ثم قال:

- كان نفسي تكوني لابسة الفستان الحرير!!

كيف يمكن ألا تزوره.. كيف يمكن ألا تذهب في موعد كل زيارة إلى بيته ، وتمسك بذراع نجية لتأخذها معها إلى سجن أبو زعبل.. هل تنسى أنه وحده كان معها ، لحظة بلحظة ، في لحظات هبة الأخيرة.. هل تنسى أنه من ساعدها على بيع ذلك الموتوسيكل ، الذي قاربت على الانتهاء من سداد أقساطه للحاج مبروك.. كيف لا تفعل ، ومحمود وحده دون كل الرجال ، ودون كل الأجساد التي تقتحم جسدها ليلًا ونهارًا.. وحده كان يشعرها أن لها قيمة ، وأن لها ثمنًا ، رغم أنه الوحيد الذي كان يأخذها دون أن يدفع الثمن..

نعم.. هي تحبه.. تحبه ، وهي تعلم أنه أصغر منها بأعوام كثيرة.. تحبه وهي تعلم أنه أكثر ضعفًا وفقرًا منها.. لكن امرأة مثلها تعلم قيمة رجل يعلم من هي ، ويبقى يحبها ويأتمنها على أمه وأخته ، ويرضى دخولها بيتهم ويسعد بلقائها بصحبة أمه.. كيف إذًا تنسى موعد الزيارة؟! كيف إذًا

لا تذهب إلى نجية ، وتصطحبها معها إلى زيارته؟!

حتى وداد أحبتها لوزة.. دعتها إلى الذهاب معهم إلى زيارة محمود في المرات الأولى .. لكن نجية ومحمود أخبراها أنهم يرفضون دخولها إلى السجن.. وداد أصبحت طالبة في كلية الطب جامعة القاهرة.. ستصبح طبيبة مثل أولئك الأطباء ، الذين كانت لوزة تعمل تحت يدهم في ذاك المستوصف.. قريبًا ستصبح وداد طبيبة .. كذاك الطبيب الذي اغتصب عذريتها ؛ من أجل بضع جلسات من العلاج الطبيعي لهبة..

ابتسمت ابتسامة صغيرة مريرة ، وهي تضع بعض المئات في ظرف أبيض وتطويه.. ستمنح هذا المظروف لنجية .. ستخبرها كما اتفقت مع محمود .. ستخبرها أنها دين قديم له عليها .. محمود أخبرها أنه سيقوم بسداد ، كل ما تساعد به نجية ووداد في عام سجنه .. ولكن من قال إن محمود ليس له - بالفعل - دين في عنقها.

كل قبلة وضعها على جسدها.. كل مرة أخذ فيها جسدها بين أصابعه ، دون أن يشعرها أنها غانية لها عندها ثمن كبير.. لوزة في عالم الأجساد تفسر كل شيء بالأرقام والأوراق النقدية.. إن كان الرجال يمنحونها النقود لقاء جسدها ، فهي أيضًا ستدفع لمحمود كل ما يمكنها أن تدفعه لقاء جسده ، الذي كان يشعرها أنها امرأة وليست أبدًا عاهرة!!

مازال الجو صيفيًا في الصباح ، رغم أنه شهر نوفمبر .. ورغم هذا أخرجت لوزة من خزانة ملابسها ، التي اشترتها منذ شهر ، بلوفر له لون أوراق أشجار الربيع ، وركضت به خلف منة ، وهي تصيح قائلة:

- منة.. أنت بتتأخري في المحل لغاية بالليل.. خدي دا معاك..

في هدوء مدت منة يدها تلتقط البلوفر من أختها ، ومضت في سكون وخلفها لوزة تقول:

- التاكسي اللي حيوديني لمحمود برا .. اركبي معانا نوصلك المحل..

عندما رفضت منة.. عندما ابتعدت وحدها بعيدًا عن أختها.. طأطأت لوزة رأسها في حزن.. منة أصبحت لا تحبها.. أصبح واضحًا وجليًا أن منة وسكان الحي جميعهم ينسجون حولها ألف قصة.. جعلت أختها ترفض حتى أن تركب إلى جوارها السيارة..حمقى جميعهم ، وما عادوا يعنون لها شيئًا..

في هدوء ، دخلت لوزة السيارة التي اعتادت تأجيرها في رحلة زيارة محمود ، ليسألها السائق كما يفعل كل مرة ، وأيضًا ككل مرة أجابته في هدوء ، قائلة:

- صفط الأول نجيب خالتي .. وبعدين أبو زعبل يا سيد..

ما أصبح لقاؤهما صباح الجمعة فحسب.. وداد ومراد يلتقيان كل يوم تقريبًا.. منذ فتحت الجامعة أبوابها.. منذ التحقت وداد بطب قصر العيني.. ومنذ أصبحت تحمل جهاز المحمول الصغير ، الذي أهداها إياه ، وهما يلتقيان كثيرًا في أوقات المحاضرات وبينها..

لم تخبره عن أخيها السجين .. وما أخبرها عن أبيه أو أمها ، التي تقضي اليوم بأكمله في منزلهم.. لم يخرج تلك العلبة الحمراء الصغيرة ، التي ترقد بداخلها دبلتا الذهب منذ ذاك الصباح ، الذي عرف فيه من هي نجية..

جمال الحسيني أخبره أكثر من مرة أنه يريده أن يتزوج.. الحسيني أصبح واثقًا أن مراد لن يجرؤ أبدًا على الزواج من وداد ، حتى إن كان مازال يلقاها.. كم يتمنى مراد لو يخبره أنه مخطئ ، وأنه يريدها وسيتزوجها .. لكن هو أيضًا يشعر أنه لا يستطيع.. لا يستطيع أن يتزوجها ، ولا يستطيع أن يتركها..

يوم تم قبولها في كلية الطب ، ضمها إلى صدره ، وهو يخبرها أنه يعلم أنها دخلت الطب على مضض ؛ لأنه الطريق الوحيد أمامها لدراسة علم الجينات والهندسة الوراثية ، وأخبرها أنه - وعلى مضض - سيرجئ حديثه معها في الزواج ، حتى تنتهي أعوام دراستها.

هي بكبريائها ، لم تسأله .. لكنها أخبرته أنها هي أيضًا لا تستطيع الخوض في قصة زواج أو خطوبة في هذا الوقت.. أخبرته أنها ستبقى تحبه ، وتنتظر أن ترى هذا الحب يقوى ويشتد عوده ؛ ليستطيع مواجهة أشياء قد لا يعلمها عنها مراد.. مسكينة وداد وحدها لا تعلم ما يعلمه عنها.. رآها تلوح له من بعيد ، وهي تودع زملاءها ، وتتقدم إلى سيارته في هدوء ، وما أن دخلت إلى جواره ، حتى قالت في لهفة:

- إيه الحكاية يا مراد؟ الولاد في الجامعة كلهم حيخرجوا مظاهرات يوم

25 تفتكر حيحصل حاجة !!

انطلق بسيارته ، وهي إلى جواره.. منذ بداية شهر يناير ، ومنذ ثورة تونس ونجاحها .. وسكان مصر جميعهم لا حديث لهم ، سوى دعوة الخروج في الخامس والعشرين من يناير..

ابتسم مراد وهو ينظر إلى وداد ، وشرح لها رأيه في القصة.. إنها زوبعة صغيرة في فنجان .. كل ما سيحدث أنهم سيحاولون إفساد يوم عيد الشرطة .. ولكنهم لن يستطيعوا شيئًا.. مراد رفع حاجبه الأيمن ، وأخبرها بثقة رجل الشرطة.. أن الأمر أتفه من أن تفكر فيه وداد..

حين وقف مراد بسيارته أمام نادي الشرطة بمنطقة الزمالك ؛ ليهبط هو ووداد إليه أمسكت بكفه ؛ وقالت كأنها تحاول إغاظته:

- والله بفكر أخرج معاهم..

نظر إليها في سعادة.. يسعده أن يراها تزداد ثقة بنفسها يومًا بعد يوم ، منذ التحاقها بالجامعة ، ويسعده أكثر أن يرقب عيون زملائها تتبعها في إعجاب واحترام كبير ، رغم بساطة حالها وثيابها ، التي أصبح يشعر أنها ما عادت تخجل لأمرها كثيرًا.. ودخل بها إلى النادي ، وعادت تستثيره مازحة:

- حاخرج معاهم.. واضح أنهم خارجين كمان ضد الشرطة.. حاخرج معاهم ، ونقف أنا وأنت قصاد بعض..

أشار لها بيده إلى إحدى الطاولات لتجلس.. يتمنى لو يصدق أن شيئًا

سيحدث .. لكن هو يعلم أن شيئًا لن يتغير.. إنها أوهام شباب يعبثون على أجهزة الكمبيوتر.. شباب أضاعهم الفراغ واليأس ، ونظر إليها في حزن ، وقال:

- دول شوية شباب غلابة .. بدال ما يشكرونا عايزين يقلبوها عكننة.. سيبك.. دا كلام فارغ.. حيسكتوهم ويرجعوهم بيوتهم آخر النهار!

كانت خائفة من الحضور هذا الصباح.. حادثت يمنى ، وسألتها هل تأتي وهل تخرج من البيت.. يمنى ضحكت ضحكة عالية ، وذكرتها بما قاله وليد الأهواني مساء الأمس..

ابتسمت لوزة ، وهي تخرج إلى شرفة شقة عبد المنعم رياض في سخرية.. الأهواني بالأمس .. وعندما تحدثوا جميعًا عن إمكانية خروج مظاهرات هذا الصباح ، ضحك مطلقًا سبابه القذر على شعب مصر بأكمله ، وأمسك بذراع لوزة بين كفه ، وهمس في أذنيها يخبرها أن شعب مصر لو اجتمع بأكمله ، فإن عصا صغيرة تفرق جموعه ؛ لأنه شعب ما عاد فيه سوى أشباح.

تنهدت ، وهي تنظر إلى الميدان الخاوي.. الثانية عشرة ظهرًا ، ولم تر رجلًا يهتف أو يحمل لافتة.. الأهواني على حق.. لوزة نفسها على حق .. ويمنى كانت على حق ، يوم أخبرتها أن الشعب نصفان.. نصف من

العاهرات ، والنصف الآخر بلا رؤوس أو أعناق.

صاحت "نوال" خادمة شقة الأصدقاء ، من الداخل ، تسأل الآنسة لوزة هل تضع صحون المزّات اليومية في الثلاجة ، أم على الطاولات الصغيرة المتناثرة في المكان.. دخلت لوزة من الشرفة ؛ لتلتقط صحنًا صغيرًا من المكسرات ؛ لتعود به إلى الشرفة من جديد ، وهي تخبرها أن تضع كل شيء في مكانه المعتاد ، وتغلق الباب وتمضي.. في الثالثة ، وبعد أن تأكل شيئًا صغيرًا، ستأخذ حمامها ، وترتدي ملابس العمل.. لديها عميل قادم في الساعة السادسة ، وعميل في الثامنة.. كانت ترقب الميدان في هدوء ، وهي تضع حبات اللوز والبندق بين شفتيها.. أخبرها الأهواني أنه سيمر في التاسعة ، ليأخذها إلى المريوطية.

قارب دينها على الانتهاء ، وبالتحديد بداية من شهر مارس القادم ستبدأ في ادخار مبلغ شهري ، حتى يحين موعد خروج محمود من السجن.. عند خروجه سيجد سيارة ميكروباص في انتظاره.. ستدفع مقدم ثمنها.. أخبرها الأهواني أنه سيسهل لها الحصول على واحدة.. هل تترك عملها إن استقام محمود ، واكتفى بعمله على سيارته الخاصة.. هل يتزوجها.. هل تقبل نجية بزواجه منها ، وهي تعلم أنها تكبره بما يقارب العشر سنوات؟! من يدري قد يرفض هو نفسه ذلك.. هي لا تشتريه بالسيارة التي تخطط لشرائها له.. هي حقًّا تحبه وتشتاق إليه.. ليس في ثراء الأهواني ولا قوته.. ليس حتى في أناقة أقل زبائنها .. لكنه في عينيها أكثرهم نظافة ورجولة..

شهور ، ويخرج محمود.. شهور ، ويضمها إلى صدره ، ويأخذ جسدها لتشعر أنها امرأة من جديد.. كيف ينتفض جسدها رغبة وشوقًا لمجرد أن تتذكر أنفاسه ، وكيف لا يتحرك في جسدها شعرة ، وهي تتظاهر بالنشوة والألم بين أذرع كل هؤلاء ، الذين يمرون على جسدها كل يوم.. هذا هو الفرق.. كل هؤلاء يرتدون ملابس الرجال ، ويتحدثون أحاديثهم .. لكن وحدها لوزة تعلم أن خلف ملابسهم أجسادًا ملوثة قذرة ، لا تحرك في امرأة ساكنًا.. لهذا يأتون إليها وإلى يمنى.. وإلى صديقاتها ؛ لأنهن وحدهن يكذبن ويدعون أنهم حقًّا رجال.. محمود بفقره.. بضعفه .. قد لا يبدو رجلًا ، لكنها تعلم أن خلف ملابس الفقراء ، التي يرتديها ، رجلًا أثار امرأة وحرك مشاعرها ، ورقصت معه عروقها..

رفعت حاجبها في دهشة ، وهي ترى جموعًا من رجال وشباب ، يتحركون باتجاه ميدان التحرير وميدان عبد المنعم رياض.. لوزة فركت عينيها بقوة، وعادت تحدق من جديد.. إنها لا تصدق.. كانت سعيدة ، ولا تعلم سر سعادتها.. شيء في قلبها ينبض بالفرح.. هل هي سعيدة ؛ لأن الأهواني سيعلم أنه تافه حقير ، وأن الشعب الذي نعته بالجبن والبلادة بالأمس ليس كما قال.. لكن ما تراه ليس الشعب.. ما تراه عيناها هو مجموعات تخطو وتهتف.. مجموعات من الحمقى ، الذين سيعودون بعد ساعات إلى جحورهم؛ بحثًا عن الطعام والشراب.. سيعودون بعد أن يصيبهم الإعياء من طول نباحهم وطول وقوفهم.. لكنها سعيدة ، ولا تعلم لماذا هي سعيدة؟.. كل ما فعلته أنها أمسكت بهاتفها ، وصاحت بعد لحظات تقول:

- ناس كتير في الميدان.. خرجوا يا يمنى خرجوا..

يمنى أيضًا صاحت في فرحة ، تستحلفها إن كان ماترويه حقيقة ، وعندما أخبرتها أنهم أعداد كثيرة ، وأنهم يحملون لافتات ، ويصيحون في هدوء بكلمة "سلمية.. سلمية" ، صاحت يمنى تخبرها أنها قادمة إليها..

لوزة كانت تراقب في ذهول تجمع الرجال والشباب ، وزحفهم نحو الميدان.. كانت تشعر أنها سعيدة بهم.. كانت تتمنى لو تقبل كل رجل منهم.. هي لا تعلم سر سعادتها .. لكن ما تعلمه أنها سعيدة بتجمعهم.. هي تعلم أنهم سيفرِّقون ، وأن كوردون الأمن الكبير الذي بدأ يتقدم ليحيط بهم يخيفها.. كان يخيفها حقًّا أن ترى كل مجندي الأمن المركزي ، الذين ظهروا فجأة مختبئين خلف خوذاتهم السميكة ، يحيطون بهم ، كأنهم يحاصرون لصوصًا أو قتلة .. لكن هم أبدًا لن يؤذوهم.. لن تمتد إحدى هذه الهراوات الخشبية السميكة التي في أيديهم ؛ لتضرب رجلًا أو امرأة أو طفلًا ، ممن زحفوا يرددون "سلمية.. سلمية"..

هؤلاء المجندون يؤدون عملهم.. لوزة تشعر أن خلف كل خوذة من هذه الخوذ ابتسامة سعيدة ، كالتي ارتسمت على وجهها.. في لحظة ، شعرت لوزة أن عساكر الأمن المركزي المقدرين بالآلاف وضباطه ، هم جزء من هذه المسيرات.. قطعة منها.. ليت محمود كان معهم.. بل ربما كان عادل خطيبها السابق معهم يحمل ابنته ، التي أنجبها من امرأة سواها.. نعم.. عادل هنا.. ليته يشعر أنها ترقبه وتدعو له ، ولكل من يقف معه وحوله..

في أقل من ساعة ، كانت يمنى معها في الشرفة ، وفي أقل من ساعة

أخرى حضرت الفتاتان الأخريان .. لم يدعهما أحد ، ولم يكن لهما مواعيد عمل .. والسهرة المسائية لا تبدأ إلا في التاسعة .. لكن الفتيات حضرن ووقفن إلى جوار لوزة في الشرفة ، وعندما نظرت إلى وجوههن ، وجدت على كل وجه ابتسامة كابتسامتها ، وعادت تستدير إلى جموع المتظاهرين في امتنان كبير..

منذ متى لم تشعر بهذه السعادة.. ولم تشعر أنها قوية رغم ضعفها.. نقية رغم تلوثها.. سعيدة رغم مأساتها ، وبلا وعي صاحت لوزة تقول:

- والله رجالة.. رجالة..

استلقت وداد على الأريكة الخشبية ، تمسك كتابًا في يدها ، بعد أن أطفأت جهاز التليفزيون.. في الغد ، يجب أن تقوم بتسليم البحث الذي أعدته لأستاذها.. لم يصدقها أبدًا حين أخبرته أنها منذ دخولها أروقة كلية الطب ، وهي تقضي ثلاث ساعات يوميًا في المكتبة والمعامل ، تدرس الجين الوراثي، المسئول عن الكشف المبكر لمرض "بن فيجاس" ، الذي يصيب جهاز المناعة.. أستاذها ابتسم في هدوء ، يخبرها أنها مازالت في إعدادي الطب ، وأن بحثًا كهذا يستلزم أن تكون طبيبة في المعامل ، منذ عشرات الأعوام.

لا أحد يشجعها.. كل الأساتذة يعلمون أنها متفوقة.. لكن زملاءها أخبروها أنها يجب أن تكتم أمر أحلامها وأبحاثها بداخلها ، وإلا أصبح

أكبر أعدائها ، في كلية الطب ، هم أساتذتها أنفسهم.

تفوق وداد.. ذكاؤها.. أبحاثها ودراساتها هي ناقوس خطر ، يدق في وجه أبنائهم الذين ألصقوهم بمقاعد الكلية ، ويخططون لإقحامهم هيئة التدريس .. كل طالب يتفوق.. كل طالب يعمل بأمانة وشرف ، هو عدو يجب أن يحاربه كل أستاذ ، له ابن أو ابنة ، يريدها أن تصبح مثله أستاذاً في القسم ..

جاءها صوت نجية ، من مطبخهم الصغير ، تقول:

- النهاردة الطريق كان وحش قوي وأنا راجعة.. بيقولوا في مظاهرات كتير..

نهضت وداد .. تلتقط من أمها صحني الطعام ، اللذين خرجت بهما من المطبخ ، وهي تقول:

- ولا كتير ولا حاجة.. أنا من شوية فتحت التليفزيون ، قالوا إنهم كام واحد، وروحوا بيوتهم خلاص..

وجلست نجية إلى جوارها ، وهي تقطع قطعة من رغيف الخبز الأسمر الصغير ، المرشوق بقطع الخشب وبرادة الحديد ، ككل أرغفة الفقر والفقراء، وهي تقول:

- ربنا يسترها.. يوم السبت في زيارة لمحمود..

عادت وداد ترجوها أن تذهب معها إلى السجن في حوار ، لا تملّه

إحداهما أبدًا .. لكن نجية ، ككل مرة ، أقسمت عليها برحمة جابر ألا تفعل.. سيحزنه كثيرًا أن تدخل أخته إلى السجن ، وأخبرتها أن لوزة ستمر عليها لاصطحابها.. وابتسمت وداد في حنان.. محمود الصغير له فتاة تحبه ، وتحرص على زيارته في السجن ، وقالت كأنها تداعب نجية:

- حلوة لوزة .. بس كبيرة شوية على ابنك.. هي بتشتغل إيه؟!

والتقطت نجية بعضًا من حبات اللوبيا البيضاء ، لتضعها في فمها قائلة:

- ما اعرفش.. مرة سألتها قالت في مستوصف .. ربنا يسعدها ويجعلها من نصيب أخوك..

قبل أن تفتح وداد فمها بكلمة ، كانت نجية تنتفض واقفة عن مكانها في ذعر كبير ، بعد صوت طرقات عنيفة على بابهم الخشبي القديم.. كان هناك صوت صرخات وبكاء ، انتفضت لها وداد ، وهي تركض نحو الباب تصيح:

- دا صوت رشا..

ألقت رشا بجسدها بين ذراعي وداد ، وهي تبكي في جنون ، ونجية تستوضحها القصة..

كانت رشا تصيح قائلة:

- قتلوه.. قتلوه يا وداد.. قتلوا عماد.. قتلوه..

ولطمت نجية وجهها بكفيها ، وهي تصيح:

- عماد ابن خالتك!!

سقطت رشا بين ذراعي صديقتها غائبة عن وعيها.. وداد تعلم أن عماد هو حبيب رشا.. تعلم أن عماد هو وحيد والدته ، التي مات زوجها ، وهو ثمرة صغيرة في أحشائها ؛ لتقوم وحدها بتنشئته ، حتى تخرج من معهد اللاسلكي في العام الماضي.. تعلم أنه شاب مهذب ، لا شيء في أيامه سوى والدته ورشا.. من على الأرض يقتل عماد؟! أي شيء على الأرض يجعل والدته تحتمل موته؟!

كانت وداد تحاول إفاقة رشا ، وهي تبكي في ألم .. بينما خرجت نجية من غرفتها ، بعد أن ارتدت جلبابها ووضعت طرحتها السوداء على رأسها؛ لتذهب إلى عبير والدة رشا .. لكنها وجدتها على باب البيت تنتحب هي الأخرى ، وهي تبحث عن ابنتها.. احتضنت عبير رشا من بين ذراعي وداد، وصاحت تقول:

- والله ما قادرة أروح لاختي ولا أشوفها.. أشوفها إزاي.. دي اتكفت عليه خمسة وعشرين سنة تربية .. قتلوه الظلمة.. قتلوه..

وصاحت وداد تسألها في ألم عمن قتله..

وعادت عبير تقول:

- خرج مع شباب شبرا.. جيرانه.. خرج في النيلة المظاهرات.. البوليس طلع عليهم في الدوران .. ضربوا عليهم نار.. شوية هربوا وشوية لموهم على

الأقسام ، وقتلوا أربعة .. منهم عماد..

ونظرت إليها وداد في ذهول ، وهي تقول:

- هي وصلت لكدا.. دا التليفزيون بيقول مافيش حاجة..

وصاحت عبير ، وهي تحاول إفاقة رشا ، قائلة:

- تليفزيون إيه يا وداد !! الدنيا مقلوبة.. الدنيا مولّعة .. روحي شوفي الجزيرة ولا العربية.. البلد قايدة نار.. حسبي الله ونعم الوكيل.. حسبي الله ونعم الوكيل.

مراد لا يصدق عينيه أو أذنيه.. ليس عدد المتظاهرين أو كثرتهم أو خروجهم ، في كل مدن وقرى مصر وشوارعها ، ما تنكره عيناه.. وإنما تنكر عيناه وأذناه التعليمات ، التي صدرت له ولكل زملائه.. القسوة التي يجب أن يتعاملوا بها مع الموقف.. حتى القنابل المسيلة للدموع التي يستعملونها ، يشعر أن في استخدامها وحشية.. إنها قنابل قديمة منتهية الصلاحية.. إنهم يستخدمونها بغرض أذى المتظاهرين لا تفرقتهم..

هو يرى نفسه وزملاءه يندفعون في قسوة نحو جموع المتظاهرين ، ويعتدون عليهم بالضرب ، ويأخذون منهم من استطاعوا إلى سيارات الشرطة ، ليكملوا سحق رجولتهم في سجون الأقسام.. إنه معهم ، لكنه لا يعلم

لماذا يفعل ما يفعله؟! هو يحاول ألا يفعل لكنها أوامر.. إنها فوضى يجب أن تلملم.. غوغاء يجب أن تنتهي.. يجب أن يعود إلى بيته ، ويعود هؤلاء المجانين إلى ديارهم.. يحزنه أن يفجروا في وجوههم القنابل.. يثير جنونه أن يرى زملاءه ، يطلقون الرصاص المطاطي عليهم في وحشية ، بل ويتعمدون إطلاقه على وجوههم وأعينهم.

مراد وزملاؤه ، من خلف مجندي الأمن ، يطلقون عليهم الرصاص المطاطي .. وإن أفلت بعضهم من الحصار طاردوه.. ماذا يريدون.. ماذا يقولون؟! لم لا يحاول أن يسمعهم.. أن يفهم؟! هو ليس آلة تعذيب أو مدفعية لإطلاق النيران فحسب .. إنه منهم.. إنه مثلهم.. هم يصيحون "سلمية"، وهو يعلم أنهم لا يحملون في يدهم سلاحًا ، ولا يملكون أن يفعلوا .. إنهم يقولون "العدل".. ما العيب في العدل.. أليس هو أداة من أدواته؟!

إنهم يشجبون الفساد والظلم والفقر.. أليست هذه هي الحقيقة ؟!

استدار مراد ينظر حوله في ذهول ، كأنه يحاول أن يرى بعينيه لا بسلاحه.. رأى وجوهًا كثيرة تركض في ذعر ، ووجوهًا أكثر تصيح في ثبات من مكانها.. كأنهم من اليأس قرروا الموت.. كأنهم يعلنون أنهم باقون ، ولو قتلوهم.. باقون وإن أبادوهم.. كيف أصبحوا طرفين.. كيف أصبحوا غريمين ، وهم جميعهم أبناء أرض واحدة ووطن واحد..

صاح عميد الشرطة ، الواقف إلى جواره ، يقول:

- سامعني.. اضرب في المليان.. اضرب عشان تقتل..

صاح مراد يسأل:

- اضرب مين؟! أقتل مين؟! مين؟!

لم تكن لوزة وحدها في الشرفة مع الفتيات ، في أواخر اليوم الأول للثورة المصرية.. الأهواني جاء في موعده ، ولكنه لم يأخذ لوزة إلى المريوطية.. وقف إلى جوارهم في الشرفة ، يلعن تلك الجموع التي أصبحت تغطي أرض الشوارع ، على مرمى البصر.. كان يلعنهم ، ويصرخ مطالبًا بإلقاء قنبلة ذرية تفترسهم جميعًا.. إنهم فضلات أفرزتها مصر ، واحتملتها أعوامًا طويلة.. إنهم حشرات يجب أن تسحقها الشرطة بعجلات سياراتها ، ويحطمون رؤوسهم الدنيئة برصاصات لا يستحقون ثمنها.

كانت لوزة تشعر بالغيظ والألم ، كلما سمعته يردد ما يقول.. كانت تشعر أنها تتمنى لو تصفعه .. لكنها بقيت صامتة ، ترقبهم مع يمنى والبنات في هدوء .. كانت تصيح كلما ألقت قوات الشرطة عليهم قنبلة مسيلة للدموع، وكانت تهلل رغمًا عنها ، كلما التقط شاب منهم إحدى القنابل ، وأعاد قذفها على رجال الأمن المركزي.. كانت كل حين وآخر.. ترى مجموعة تحمل مصابًا، تنساب قطرات دمه على أسفلت شوارع وسط المدينة ، وهم يركضون به باحثين عن سيارة إسعاف ، أو أي سيارة صغيرة ، تحمله إلى مستشفى قريب.

وفي لحظة ، شعرت بالأهواني يمسك بذراعها في عصبية ، قائلًا:

- تعالي يا لوزة ندخل.. تعالي نعدل مزاجنا ونبعد عن منظر الكلاب دول.. شوية وحيلموهم..

نفضت ذراعه في غضب.. لا تريد أبدًا أن تدخل معه.. لا تريد أن تتركهم ولا تريده أن يصفهم بأنهم كلاب.. إنهم رجال .. لوزة تشهد أنها ترى رجالا، بعد أن ظنت أنها شهدت موت رجال العرب أجمعين.

حاولت أن تعتذر له في أدب ، كما علمتها يمنى ، بل همست في أذنيه أنها في أيام لا تسمح لها بممارسة الجنس .. لكن الأهواني قال في عصبية:

- يمنى .. خشوا جوا كلكم ، واقفلوا البلكونة دي.. شغلوا مزيكا.. ارقصوا .. بلاش مسخرة.. الكلاب دول حيلموهم جثث كمان شوية.

صرخت لوزة ، كأنه فاض بها الكيل ، قائلة:

- دول مش كلاب سعادتك.. دول مصريين.. زيك وزي والدتك وأبوك.

رفع الأهواني كفه ؛ ليصفع به لوزة في قسوة ، قائلًا:

- دول زيك إنت..

* * *

حينما خرج الأهواني ، وصفق خلفه باب البيت ، خيم السكون لحظات

على الفتيات الأربع الواقفات في الشرفة ، لتقول يمنى بعد لحظات:

- روّحوا يا بنات.. روحوا لغاية الأمور ما تهدا..

خرجت ميمي وصفاء .. لكن لوزة ما تحركت من مكانها ، بل بقيت ترقب خيوط الدخان ، المتصاعد من ميدان عبد المنعم رياض ، وخطوط دخان أخرى كثيفة قادمة من كل مكان..

تحسست مكان صفعة الأهواني على وجهها ، في هدوء ، وقالت:

- والله رجالة.. والله مش كلاب .. ومش زينا أبدًا..

رأت لوزة دمعة صغيرة ، تفارق عيني يمنى الجميلة ، لتسمعها تقول:

- الحكاية حتخلص يا لوزة.. مش حيقدروا يعملوا حاجة.. غايته حيموت منهم مية ولا ميتين وتخلص .. عارفة إحنا بنشتغل عند مين؟ عارفة الشقة دي وييجي عشرين تلاتين واحدة تانية ، غير الڤيلات والاستراحات ، مين بيديرهم؟!

اتسعت عينا لوزة في جنون.. يمنى أخبرتها يومًا أن هذه الشقة هي ملك لجدتها ، وأنها تقيم فيها وحدها منذ خمسة أعوام ، بعد رحيل والديها في حادث سيارة..

عادت يمنى تكمل كلماتها ، وهي تحاول أن تسكت صوت الأمل في داخلها.. عادت تخبرها أنها تعمل لدى "ميمي هانم" ، وأن القضية أكبر من أن تفهمها لوزة.. القضية ليست الأجرة التي يأخذنها نظير أجسادهن..

القضية ليست الأهواني.. بل هو من صغار الكبار الدائمين في شبكة "ميمي هانم".. هناك صفقات تبرم وعمولات تؤخذ.. هناك تسجيلات وأفلام تصور لرجال ، يتم الإيقاع بهم ، بأمر مباشر ، منها .. أخبرتها أن هناك «ڤيلّات»، فيها زوجات وفنانات ، تصل إليهم ميمي هانم ، بل وتحاول الكثيرات الوصول والانضمام إليها ؛ لتقدمهم إلى بعض كبار رجال الأعمال .. وقد تقوم بتصويرهم وابتزازهم ، إن لزم الأمر لصالحها ، أو لصالح منافسين‌لهم.

لطمت لوزة وجهها في جنون.. وفي ذهول سألتها من هي ميمي هانم.. من تكون؟!

انحنت يمنى على أذنيها تخبرها أنها زوجة أحد كبار الأسماء ، التي تتردد في صفحات الجرائد وشاشات التليفزيون..

وعادت لوزة تصيح ، وهي تسأل:

- وهي دي محتاجة فلوس ولا عمولات ولا مشاريع.. دا جوزها..

وابتسمت يمنى ابتسامة صغيرة مريرة ، تخبرها فيها أنها هي وزوجها يقبضون الثمن.. "ميمي هانم" تنظم ولا تشارك.. ميمي هانم ليست غانية.. لكنها ، من أجساد الغانيات ، تضمن أن تبقى الهانم زوجة البيه!!

نكست يمنى رأسها في ألم ، وهي تقول:

- عشان كدا أنا عارفة أنهم مش حيقدروا يعملوا حاجة.. لأن الفساد والدعارة في كل مكان.. خلاص إحنا انتهينا من زمان.. تعالي يا لوزة ندخل

جوّا .. ولّا أقولك روحي لأختك .. ماحدش عارف كمان شوية حيحصل إيه؟! يمكن يرموا عليهم صواريخ ولا قنابل ذرية.. مالناش قيمة كلنا.. ميمي هانم والكبار بس هما اللي لازم يعيشوا!!

* * *

كان الطريق إلى المنزل صعبًا.. ولكنه كان مليئًا بالقصص والحكايات.. لوزة سمعت ألف هتاف وألف قصة.. سمعت عن قتلى وقعوا في مدينة السويس.. سمعت عن ضباط شرطة ، كانوا يقتلون الشباب برصاص حي، دون رحمة ولا ضمير.. كانت هتافات عبد المنعم رياض تدوي في أذنيها.. كان دخان القنابل المسيلة للدموع يحجب عنها الرؤية ، حتى وهي بالقرب من باب بيتها ، كأنه أصبح لصيق جفنيها..

"ميمي هانم".. أسماء كثيرة ، بدأت تستعيدها وتراها بلا أقنعة .. هل أصبح حال البلاد كحال لوزة ويمنى.. هل حقًّا يقتلون كل هؤلاء ؛ لتحيا ميمي هانم وأمثالها.. كانت كل مشاعرها تتلاطم في صدرها ، ولهيب صفعة الأهواني مازال مشتعلًا على وجنتيها. وقبل أن تصل باب البيت ، رأت منة تقف على المقهى الواقع على رأس شارعهم..

رأت منة الصغيرة ، تنظر إلى شاشة التليفزيون المنقولة عن قنوات فضائية، وهي تصيح كأنها تهتف معهم ، وانتفض قلبها في ذعر.. لماذا عادت لوزة ولماذا تركتهم ، بعد أن كانت إلى جوارهم؟! وفي لحظة صاحت تنادي منة ، التي جاءتها في خطوات ثقيلة ؛ لتسمعها تقول في صوت هادر:

- بتتفرجي عليهم في التليفزيون يا منة.. واقفين في القهوة يا رجالة زي الأجانب والخواجات تتفرجوا على رجالتنا.. يلّا يا منة .. يلّا نروحلهم .

وبدهشة كبيرة ، سألتها منة :

- إلى أين..

لوزة لم تجب.. بل اختطفت كف منة بين أصابعها ، وركضت وهي تصيح :

- الميدان!!

وداد لا تصدق ما سمعته ، من مراد ، على الهاتف منذ لحظات.. كان صوته ممزوجًا بالخوف والبكاء.. أخبرها أن الوضع أصبح خطرًا ، وأن غدًا يوم صعب وفارق ..صرخت وهي تسأله هل يشارك في قتل المتظاهرين.. هل يفعل مثلما ترى على شاشة تليفزيون عبير؟!

بكت وهي تخبره أن ضابطًا مثله قتل عماد.. قتل شابًّا ، ليس لأمه على الأرض أحد سواه.. شاب أعزل ، لا يحمل حتى شفرة موسى صغيرة.. شاب خرج يطالب بالعدل .. بفرصة عمل.. بلحظة كرامة.. مات عماد ، ولكن هل قتل مراد غيره؟!

هو أيضًا كان يصرخ في عصبية ، يحذرها ويستحلفها برحمة أبيها ألا

تخرج إلى المظاهرات.. أخبرها أنه في الغد قد لا يستطيع أبدًا أن يصل إليها.. أخبرها أنه لم يذهب إلى بيته ، ولن يذهب.. سيبقى في الشارع على قدميه.. رجاها أن ترحم قلبه وأعصابه من الخوف عليها.. كاد يبكي ، وهو يطلب منها أن تعده بالبقاء في البيت إلى جوار أمها..

لم تستطع أن تعده بشيء ، وأيضًا لم تستطع أبدًا أن تصل منه إلى معرفة شيء يساعدها على فهم ما يدور.. مراد بدا في عينيها مثلها.. جميعهم أدوات يحركها الظلم.. الفارق الوحيد أنها أداة سلبية صامتة ، وهو أداة تعذيب وقتل..

حاولت أن تنام.. أن تهدأ.. ربما في الصباح تجد كل شيء قد عاد إلى حاله.. في الصباح قد تخرج نجية إلى البيت ، الذي تعمل فيه .. وقد تحمل هي كتبها، وتذهب إلى طب قصر العيني.. تجمع أوراقًا وتكتب معادلات وتنقب كتبًا خلف جينات هندستها الوراثية ، التي تعلم أن أحدًا لن يهتم بها.. حاولت كثيرًا وطويلًاحتى سقطت في إغفاءة صغيرة.

مع ظهور خيوط الفجر .. استيقظت وداد على صوت نجية ، يصيح في حوار لا تفهمه.. عندما خرجت وداد من غرفتها ، وجدت أمها تغلق باب البيت في ذهول ؛ لتنظر إليها تخبرها أن إحدى جاراتهم ، جاءت تحذرها من الخروج إلى العمل ، أو إرسال وداد إلى الجامعة..

الوضع أصبح أصعب.. حكومة البلاد تحاصرهم.. قطعت عنهم خدمة الهواتف الجوالة ، حتى الهواتف الأرضية.. شبكات الإنترنت تم وقف عملها .. أغلقوا مكاتب قنوات الجزيرة ، وقطعوا إرسالها.. حكومة البلاد وراعيها

قرروا حصارهم وربما قتلهم .. كانت نجية تردد ما سمعته ، كأنها تستجدي وداد شرحًا أكثر بساطة ، تفهم معه مصيرها ومصير ابنتها.. كانت ترتجف ، وهي تبكي وتنتحب ، وتسأل هل يموتوا ومحمود وحده في السجن ؟! لماذا تقتلهم الحكومة كما قالت الجارة؟! وما خطورة انقطاع الهواتف أو الإنترنت..

وداد كانت تستمع ، وهي مازالت تحمل بين جفونها آثار نومها المتأخر.. كانت تستمع ، وهي تستعيد كلمات مراد في أواخر الليل على هاتفها.

سقطت أمها على أريكة الخشب القديمة ، وهي تسأل ماذا يريد هؤلاء الناس.. لماذا يثيرون غضب الحكومة.. لماذا؟!

بعد لحظات رفعت نجية عينيها لتجد وداد أمامها ، وقد ارتدت ملابسها كاملة.. كان على وجهها شيء نادرًا ما رأته.. شيء تخشاه نجية.. شيء تعرف أن نهايته دائمة حزينة..وفي هدوء تقدمت وداد نحوها قائلة:

- أنا رايحة يا أمي.. رايحة معاهم..

صاحت الأم في ذعر ليخرج صوتها مبحوحًا:

- مع مين؟ رايحة فين؟!

نظرت وداد إلى وجهها في حزن كبير ، وهي تخبرها أنها ذاهبة إلى الميدان.. نجية صرخت وبكت ، وكادت تمزق وجنتيها من كثرة ما لطمتهما بخوفها وكفيها.. كانت دموعها تتطاير ، وهي تمنع ابنتها عن الخروج ، بعد أن وقفت تستند بجسدها على الباب قائلة:

- يا مصيبتي.. دول بيقتلوهم.. دانا ماليش غيرك.. أخوك في السجن ، وأنا مترمطة في خدمة اللي يسوى واللي ما يسواش عشانك.. حرام عليك.. عايزة إيه.. عايزة إيه منهم؟!

ابتعدت نجية عن الباب ، لتمسك بعنق وداد بين كفيها ، وهي تصيح من جديد:

- أنت خلاص حتبقي دكتورة.. دكتورة.. أنا طافحة السم عشان تكملي.. دول مجانين.

رغم أن نجية كادت حقًّا تزهق روح وداد بين أصابعها ، إلا أن «وداد» أحاطتها بذراعيها ، وقالت باكية:

- عارفة إنك طافحة السم عشاني.. بس اللي أنت ما تعرفهوش إنك حتفضلي تعملي كدا ، حتى بعد ما اتخرج.. لأني حابقى دكتورة في مستشفى مافيهوش طب ولا دوا.. ماهيتي ميتين جنيه.. عمري حتى ما حاكون أستاذة في القصر العيني.. عارفة ليه! عشان أنا بنتك.. عشان محمود أخويا.. أبويا عامل محارة ، اللي حتى يوم ما مات.. مات فطيس من غير تمن.. عشان دي بقت بلدنا.. اسمعي يا أمي.. دي ثورة.. دا الظلم لما خلاص بقى مافيش منه خلاص..

يمكن الثورة دي تعمل حاجة.. تخلي قيمتي في شغلي ، مش في اسمي وعيلتي.. يمكن تخليك إنت كمان ترفعي راسك ، وتقولي أنا اشتغلت خدامة ، بس ما سرقتش من شعبي وولادي.. يمكن تخليك تقولي إنك أحسن

وأنضف من أكبر راس ، شرب دمنا وداس على كرامتنا ، ونهب حقوقنا وقتل عماد.. عماد حبيب رشا.. حيلة أمه وفرحة عمرها.. قتله مش عشان حرامي ولا جاسوس ولا قاتل.. قتلوه يا أمي عشان عايز حقه.. حقه وحقك وحق أبويا وحق أخويا اللي اتسجن ، عشان سيجارة بانجو ، واللي بيأكلونا قمح مسرطن وفراخ ميتة وسمك ملوث .. بنوطي نبوس إيديهم ونخدم في بيوتهم.

كانت نجية تبكي ، وهي ترجوها أن تبقى ، وكانت وداد تبكي .. وهي ترجوها أن تذهب.. حين تعبت نجية من بكائها وسقطت يدها حول جسدها .. استدارت وداد ، تنظر إليها كأنها تودعها قائلة:

- أنا رايحة آخد رشا معايا .. آخدها تاخد بحق حبيبها .. ما تحزنيش يا أمي .. أوعي تحزني .. أنا عايزاكي تغضبي .. في فرق بين الحزن والغضب .. اغضبي يا أمي بس ما تحزنيش!! الغضب قوة .. لكن الحزن ضعف وذل ومهانة .. كفانا بقى !!

لوزة نامت في الميدان .. نامت ساعات ، وهي تحتضن منة بين ذراعيها .. وفي الصباح ، حين علم الجميع أن الاتصالات قطعت تمامًا عن شعب مصر وأبنائه ، كأنهم عبيد وجوارٍ ، قرر أسيادهم إذلالهم وحرمانهم حتى من خدمات ، يدفعون ثمنها من قوتهم وعرق فقرهم ومهانتهم.. عندما علم الجميع أن الأمر أصبح مواجهة ، لا خلاص منها ، اشتد الغضب وعلا صوت الهتافات ، وزاد التحدي مع زيادة عدد أفراد الشرطة ، وزيادة توحشهم في الاعتداء على المتظاهرين العزل..

لوزة كانت معهم تصرخ وتهتف وتسمع ، وتحكي قصصًا كثيرة ، حتى أنها في النهاية وقفت هي ، ومجموعة كبيرة حولها ، تصيح تطالب بسقوط "ميمي هانم".. كانت تركض عندما يركضون من شلالات المياه ، التي تفتحها عليهم قوات الأمن المركزي .. وكانت تنتفض عندما تراهم ، يحملون ثائرًا فقأوا عينيه أو اردوه قتيلًا..

أصبحت لوزة فجأة زعيمة لمجموعة لا تعرفها .. أصبحت تهتف ، ويهتفون معها وخلفها ، وشعرت أنها سعيدة .. شعرت أنها حقًّا إنسان !!

كان هناك أشخاص يمنحونها بعضًا من طعامهم ، وآخرون رأتهم يحضرون ؛ لتوزيع قناني الماء على صفوف المحاصرين.. أخرجت من حقيبتها كل ما فيها من نقود ، ووضعتها في كف منة ، وهي تخبرها أنها شابة صغيرة ، وأن قوات الأمن ستتركها تمر.. أخبرتها أن تذهب لشراء كل ما تستطع حمله من ساندويتشات ، تعود بها اليها ، أو حتى تقوم بتوزيعها على من تلقاه.

حين غابت منة عنها ، عادت لوزة تصرخ من جديد ، ورأت شابًّا يقع إلى جوارها.. رأته يسقط رغم أنه لم يلمسه أحد ، وصاحت في جنون ، وهي تنحني عليه.. كانت رأسه ملطخة بدماء غزيرة ، وصاح حولها الرجال يسألون كيف مات ومن أطلق عليه الرصاص.. وسمعتهم يصيحون وهم يحملونه بعيدًا أن هناك رصاصات تأتي من بعيد.. رصاصات تأتي من أعلى المباني ، يصوبها قناصة مدربون ، ورفعت عينيها تحاول أن ترى شيئًا .. لكن البنايات بعيدة ، ويصعب رؤية من عليها..

رغم الهرج ورغم سقوط آخرين ، إلا أن أحدًا لم يحاول الفرار.. أحدًا لم يحن رأسه أو ينبطح أرضًا.. الجميع يحاولون إنقاذ من يسقط ، والجميع يعلو صوتهم في جنون وتحدٍ ، جعلاها تشعر أنها قوية ، وأن رصاص الأرض لن يخترق جسدها ، إن صوبوه نحوها..

إلى جوارها ، رأت رجلًا عجوزا يبكي.. ذهبت إليه وسألته إن كانت رصاصة أصابته .. لكنها وجدته يحمل لافتة صغيرة بين أصابعه .. كتب عليها :

"ليه يا ريس"؟!

لوزة ابتسمت في مرارة ، وهي تخبره أن الرئيس بعيد ، ولن يراه بل هو ربما لا يرى ، ولا يريد أن يرى شيئًا مما يدور.. العجوز بكى ، وأخبرها أنه يوم وفاة حفيد الرئيس ، ذهب يحمل لافتة صغيرة ، كهذه ، عليها تعازيه؛ ليقف بها أمام القصر الجمهوري ساعات طويلة ، وفي نهاية اليوم خرج إليه أحد ضباط الحرس الجمهوري ، ثم أخذ منه اللافتة وشكره ، واعدًا إياه بتسليمها إلى الرئيس.

العجوز أخبرها أنهم سألوه عن اسمه .. ولكنه رفض أن يخبرهم اسمه .. قال لهم يومها فليخبروا الرئيس أنه كان معه في حرب أكتوبر.. طلب منهم أن يخبروه أنها تعزية من قلب مصري يحب رئيسه..

لكن بعد عام ، عاد العجوز بلافتة أخرى ، وقف بها أمام القصر الجمهوري.. لافتة كتب عليها أن حفيده الصغير أصابه سرطان الدم، ولا يملك

أن يعالجه.. أخبرها أنه كتب على اللافتة عبارة ، تقول "انقذ حفيدك الآخر من الموت".. اقتادوه إلى السجن وعذبوه .. وعندما تأكدوا من أنه لا يعني حفيد الرئيس الثاني ، بل يعني حفيده هو شخصيًا تركوه.. ألقوا به إلى الشارع ، وتهددوه بالقتل ، إن جاء أو وقف أمام قصر الرئيس.

لماذا بكى العجوز من قلبه يوم وفاة حفيد الرئيس؟ لماذا بكى وذهب يقدم العزاء ، واعتبر الصغير حفيده هو شخصيًّا؟! ولماذا لم يبك الرئيس يوم أصاب السرطان جسد حفيد بطل من أبطال أكتوبر ، جاء يستجدي المعونة..

العجوز نظر في عيني لوزة ، التي كانت تبكي في ذهول ، وهي تتذكر هبة الصغيرة ، التي ماتت ، وضاعت لوزة وشرفها ونقاءها على علاجها .. أليسوا جميعًا في عنق الرئيس.. أليسوا جميعًا مسئوليته.. لماذا بكينا جميعًا حفيد الرئيس ، ولا يبكي الرئيس أحدًا فينا ، وهو راعينا والمسئول عنا.

ضمت لوزة العجوز إلى صدرها في ألم ، وهي تترحم على حفيده .. وعلى هبة وعلى حفيد الرئيس.. رحمهم الله جميعا.. أسعدهم الله بالموت ، قبل أن يكبروا في بلد ، لا يبكي رئيسه فيه حال أبنائه .. وأمسكت لوزة باللافتة الصغيرة التي في يد العجوز ، ورفعتها عاليًا وصاحت تقول:

- ليه.. ليه يا ريس؟!

كان يركض في جنون مع قادته وزملائه.. أخبره أحد زملائه أن الأوامر صدرت إليهم باطلاق المزيد من الرصاص الحي.. كان يطلق الرصاص ..

لكنه كان يطلقه .. في السماء.. على أقدام المتظاهرين في بعض المناوشات ، التي أصبح لا حصر لها أو عدد..

مراد ، من موقعه ، رأى سيارة من سيارات الشرطة التي يعرفها تقتحم الميدان في سرعة مجنونة ، ورآها تقتحم جموع المتظاهرين ، الذين أخذوا يركضون في جنون للهرب منها .. كل شيء كان يحدث بسرعة أكبر من أن يفهمها عقله..

مجموعة من الشباب والنساء قررت الوقوف أمام السيارة ؛ لتمنعها من التقدم وإثارة الرعب .. لكن السيارة كانت تصدمهم في جنون ، رأى مراد أكثر من جثة تسقط تحت عجلاتها ، وركض وهو يحمل سلاحه إلى السيارة في جنون.. ركض ، وهو يطلق رصاصاته على عجلات السيارة حتى يوقفها، وعندما رآه قائد السيارة .. انطلق بسرعة كبيرة إلى الخلف ؛ لتسقط تحت عجلاته امرأة شابة ، كانت تحاول مساعدة رجل عجوز على الهرب.. أثار سقوطها جنون مراد ؛ ليطلق جميع رصاصاته على عجلات السيارة ، وجسمها المصفح .

التف حوله مجموعة من المتظاهرين ؛ ليتقدم مراد في ثبات نحو السيارة، التي تمزقت عجلاتها تمامًا ، وصاح فيه من رآه يفعل ما فعل أن يتوخى الحذر .. فلابد وأن قائد السيارة مسلح .. لكن مراد لم يكن يرى شيئًا.. كان يخطو فوق بقع الدم الواسعة ، وهو يشهر سلاحه في يديه ؛ ليفتح باب السيارة .. ويخرج قائدها ، ممسكًا بعنقه في جنون ، ويلقي به بين جموع المتظاهرين ، كأنه يطلب منهم أن يفعلوا به ما شاءوا.

رأى شابة صغيرة تركض نحو آخر جثة ، سقطت تحت عجلات السيارة وسمعها تصرخ في ألم:

- أبلة لوزة ؟!

وانحنى مراد يحملها من على الأرض.. كانت مازالت تتنفس وتعي ما يحدث حولها ، وحين بكت منة في جنون .. قالت لوزة في صوت ضعيف، وهي تشعر أنها تموت:

- ماتخافيش ، أنا موتي نضافة للبلد..

كان مراد يبكي ، وهو يركض بها بحثًا عن سيارة إسعاف .. لكن عيناه كانتا ترى جثثًا أخرى كثيرة ، منها ما سقط تحت عجلات السيارة ، ومنها ما سقط من رصاص زملائه الحي .. لكنه بقي يحملها هي ، والصغيرة تركض إلى جواره ، وهي تتمزق في بكائها ، وتخبره ألا أحد لها في الدنيا سواها..

وسمع صوت لوزة ، خافتًا ، يقول:

- وداد.. وداد يا منة.. دوري عليها.. أنا شفتها في الميدان.. قوليلها أنا أخت لوزة.. لأ.. أخت سلوى .. أنا سلوى ..

وانتفض جسد مراد ليقول في ذهول:

- وداد مين؟ وداد جابر..

وفي ضعف هزت لوزة رأسها ؛ لتسمعه يصيح من جديد:

- بنت نجية؟!

وابتسمت لوزة في صفاء.. سيأخذ منة إليها.. منة لن تضيع ، وهمست:

- وأخت محمود.. حبيبي..

وبكى مراد ، وهو يسألها:

- فين.. وداد فين؟!

رفعت لوزة أصبعها تشير إليه .. وعندما استدار ينظر إلى حيث أشارت لم ير سوى ملايين ، بدوا جميعهم في عينيه «وداد» .. وشعر بجسدها ينتفض على ذراعيه .. شعر بها وروحها تغادر جسدها ، وتوقف عن الركض بها وانحنى يضعها على أسفلت الطريق ؛ ليرفع رأسه إلى السماء يستغيث بها، وشعر بالشابة الصغيرة ، وهي تلقي بنفسها على الجسد الضئيل ، الملقى تحت أقدامها ، وركع إلى جوارها لتسأله:

- ماتت.. ميتة خلاص؟!

خلع مراد زيه العسكري عن جسده ، وألقى بالكاب الذي يحمل صورة نسر يوم افترس.. افترس أبناءه وسفك دماءهم ، وضم الصغيرة إلى صدره قائلًا:

- لأ مش ميتة.. دي شهيدة!!

وعلى البعد رأى العجوز الذي أنقذته لوزة بعمرها.. رآه ينحني ليلتقط

لافتة سقطت من يده.. لافتة اختلطت بدم لوزة.. رآه يرفعها ، وعندما حدق فيها ، وجد عليها كلمتين:

"ليه يا ريس"؟!

قد تحيا أعوامًا دون هاتف أرضي أو هاتف جوال .. بل قد تمر عليك أيام طويلة ، تتمنى فيها لو تجد وسيلة ، تخرس بها هواتفك جميعًا.. قد تمضي شهور لا تفتح فيها جهاز كمبيوتر ، أو تبحث عن شيء على شبكة الإنترنت.. ولكن أن تشعر أن أحدًا ما يستغل نفوذه وسلطته ، ويقطع عنك كل هذا .. فهذا هو القهر بعينه.

في لحظة ، قد تدفع كل ما تملك نظير رنة صغيرة من هاتفك ، تأتيك محملة بخبر تنتظره.. في لحظة قد يموت كثيرون ؛ لأنهم لم يجدوا هاتفًا يطلقون منه استغاثة ..آه من الظلم .. وآه من القهر .. وآه من الاستبداد..

لو يعلم جمال الحسيني كيف يصل إلى مراد.. لو يعلم كيف يسمع صوته، ولو في كلمة واحدة ، لما شعر بكل هذا الكره ، الذي يجتاح روحه على كل مسئول ، اتضح أنه مسئول فقط عن إفساد حياته وحياة المصريين بأكملهم.

أغمض عينيه في ألم ، وهو يقلب القنوات الفضائية ، وقفز إلى ذهنه سؤال:

هل الإرسال مقطوع عن هاتف وزير الداخلية ، وعن هاتف زوجته

الشابة.. ماذا لو سقط ابنه الصغير "شريف" ، كما يسقط كل الأطفال ، وأصابه مثلا كسر أو شرخ في ذراعه أو ساقه.. كيف تستغيث الأم ، وكيف يعلم الأب ، وكيف يسعفون الطفل؟!

أليس الوزير أبًا مثله؟! أليس الرئيس أبًا مثله؟!

وابتسم ساخرًا .. لا أحد مثل جمال الحسيني ، سوى المصريين.. الحكومة بأكملها ليست مصرية.. جمال الحسيني يقسم أن هناك قسمًا آخر يؤديه الوزراء أمام الرئيس.. قسم غير معلن.. يقسمون فيه جميعًا بأن الإله الأكبر هو الرئيس ، وأن الشعب ، كل الشعب ، هو العدو الذي تحل سرقته وسفك دمه وسحق كرامته.. وتقديم رفاته قرابين تحت أقدام الإله الأكبر!!!

مراد من رجاله.. مراد من أبناء هذا الوزير ، وهذا الجهاز.. كلما جاءت قناة بصورة شباب مصر يسقطون ، وصورة ضباطها وجنودها يصوبون نيرانهم إلى المصريين ، يغمض جمال الحسيني عينيه ؛ خشية أن يرى وحيده يفعلها.. هل يشارك مراد في قتلهم؟! هل يشارك في سحلهم ، كما يرى على شاشات التليفزيون؟! وإلى متى يبقى على مقعده يرقب ويصلي ويتخيل ويسأل..

نهض الحسيني عن مقعده ؛ ليخرج هو الآخر.. لن يبقى كالمسمار في مكانه.. سيركض في الشوارع حافي القدمين ، ويصرخ مناديا وحيده.. خرج إلى الشوارع.. لن يقول هل أنت بخير يا مراد .. لكنه سيقول: "لا تقتل يا مراد .. لا تقتل أحدًا".. قد يكون الشعب عدوًّا للرئيس والحكومة .. لكن مراد ما كان يومًا رئيسًا ، ولا يجب أن يكون من حكومة رئيس ، يقطع عن شعبه

وسائل الاتصال ليحاصرهم كالفئران!!

كان الحسيني يصيح ويركض ، ودمعاته تركض على خديه.. إن قطعوا الهواتف .. وإن أحرقوا جسور الاتصالات كلها .. فهناك عروق بالحب والغضب بين أبناء الشعب الواحد ، إن اشتعلت ، لا يخمد الطغاة حرائقها أبدًا !!

عاد إلى الميدان.. عاد وبصحبته منة تطبق كفها على أصابعه.. تركوا جثة سلوى مع جثث كثيرة أخرى ، التهمتها السيارة اللعينة ، أو حصدها رصاص رجال الأمن.. شباب في عمر الزهور.. زهور تم حصادها ، بعد طول ظمئها إلى قطرات عدل ورحمة وحرية..

ترك مراد جثة سلوى في مشرحة زينهم ، وعاد إلى الميدان.. رفضت منة أن يأخذها إلى بيتها ؛ حتى يجد وداد ويأخذها إليها.. أخبرته ألا أقرباء أو أصدقاء لهما.. أخبرته أنها هنا في الميدان ؛ تشعر بالأمن والأمان!

في لحظة رآها وداد أخرى ، عندما مسحت دمعاتها ، عند خروجه من المشرحة لتمسك بكفه ، وتخبره أنها ستذهب إلى الميدان ؛ لتكمل ما بدأته أختها.. أخبرته أنها لن تترك الميدان ، إلا بخروج آخر مصري ومصرية منه.

عاد بها بعد أن نقش عنوانها في رأسه ، وبعد أن جعلها تردد رقم هاتفه وهاتف وداد عشرات المرات.. أخبرها أنها ستبقى إلى جواره .. ولكن إن حدث ما يفرقهما ومات هو ، كما ماتت سلوى ، فيجب أن تحادث وداد عند عودة الاتصالات ؛ لتنفذ وصية أختها.. تحرك معها في جموع

المتظاهرين.. صاح وندد وبكى ، وطالب كما يطالبون جميعًا ، ومع كل صرخة أطلقها ، ومع كل خطوة خطتها قدماه ، كان يبحث عن وداد..

كيف رأتها سلوى قبل أن تموت.. كيف وجدتها ، ثم ماتت بين ذراعي مراد .. وكيف لا يستطيع هو الوصول إليها ، لأن الله أراد أن يهدي الشهيدة شيئًا قبل رحيلها.. أرادها أن تطمئن على مصير أختها الصغيرة.. جعلها الله ترى وداد ، وتنطق باسمها على ذراعي مراد وحده ، دون ملايين متظاهري الميدان.

يا رب اجمعه بوداد.. اجعله هو الآخر يراها ويصل إليها .. يريد أن يأخذها بين ذراعيه.. يريد أن ينطلق بها ومعها ومع منة ، ويخبرها أنه كان مخطئًا .. يريد أن تراه وداد ، وقد خلع زي العار الذي كان يرتديه ، وارتدى زي الحق والعدل.. فقط لو تعمل قطعة الحديد السوداء التي في جيبه.. فقط لو يعيدون الاتصالات.. تعب مراد.. كان يحاول أن يسكت صرخات الغضب.. يومان لم يستطع أن يهرب فيهما من صيحات روحه وقلبه..

بالأمس كان ضدهم ، واليوم يفديهم ويحميهم بروحه.. بالأمس كان يمتثل لأوامر الباشا المأمور ، واليوم يتمنى لو يظهر أمامه المأمور ، ويطلب منه أن يطلق الرصاص الحي عليهم.. يتمنى أن يفعلها ؛ ليطلق على قلبه ما بقي من ذخيرته.

الأمس كان يومًا ، واليوم هو يوم آخر!! بالأمس كان عبدًا للمأمور .. لكنه تحرر اليوم.. مصر أيضًا ستتحرر.. هذه الجموع يزداد غضبها.. هذه الجموع يعلو صياحها.. ما أصبح من الممكن إخماد حرائق غضبها.. غباء

ما فعلوه.. قطع الاتصالات غباء كبير.. حتى زملائه .. حتى قادته يراهم الآن يتخبطون ، ولا يعلم أحدهم ماذا يدور في الغرف المغلقة.

سيذهب ويقف على أطراف الميدان.. قرر أن يكون على الأطراف مع مجموعات الحماية.. طلب من منة أن تدخل إلى قلب الميدان.. هناك أكثر أمانا.. ولكنه منهك ، وبحاجة إلى لحظات من الراحة..

لو يعلم فقط كيف يطمئن على وداد.. إلى متى يستمر هذا الهدير .. وإلى متى هذا الصمت والتعالي.. ألا يخرج الرئيس.. ألا يخرج ليقول كلمة ، يعلن بها أسفه على هذه الأرواح ، التي تم حصدها بالعشرات.. ألا يعلم؟!

فقط لو يعلم الرئيس كيف عاهد مراد نفسه يومًا على الوقوف أمامه مرة أخرى ، بعد أن يجعله به فخورًا.. لو يعلم الرئيس أن مراد جمال الحسيني يتمنى الآن أن يقف أمام الموت ، ولا يسمع أو يرى وجهه الذي رآه مرة أخرى!!

حقًّا الأمس يبقى يوما .. واليوم دومًا يوم آخر!!

ضمتها رشا في حنان وبكت وداد على كتفيها في ألم.. مراد حادثها هذا الصباح بعد عودة الهواتف للعمل.. أخبرها باستشهاد سلوى .. لم تعرف في البداية من هي سلوى .. لكنها عرفتها عندما أخبرها أنها قالت حبيبة محمود ..

صاحت تسأله إن كان هو من قتلها أو أحد مجنديه .. لكن مراد أخبرها أنه مزق عن جسده زيه العسكري.. أخبرها أنه يشعر بالعار ؛ لأنه وقف يومًا في وجه الثائرين لكنه اليوم منهم ومعهم.. أخبرها أنه لا يستطيع أن يترك أطراف الميدان ، فهو يقف في كوردون الحماية.. استحلفها أن تبقى في قلب الميدان ، فذاك أكثر أمانا لها.. أخبرته أنها ستدور حول كوردون الحماية حتى تجده .. لكنهما اتفقا على اللقاء بعد ساعات ثلاث.. أخبرها أنه سيبحث عن منة لتنضم إليها ويعود هو إلى مكانه..

ماتت لوزة!!

وعلا نحيبها على كتف رشا.. لم يمنحها القدر الفرصة لتعرفها جيدًا.. كانت فقط تلقي عليها التحية في تلك المرات القليلة ، التي يتصادف فيها خروج وداد مع نجية ، عندما تكون لوزة في انتظارها في سيارة التاكسي للذهاب إلى زيارة محمود..

كانت جميلة رقيقة ، وكانت وداد ترى دومًا في عينيها نظرة خوف ورجاء يثيران دهشتها.. كان واضحًا أنها ليست ثرية .. ولكن كان واضحًا أيضًا أنها أفضل حالًامنهم.. هي التي أحضرت محامي محمود ، وهي التي كانت تستقل تاكسي ، تأتي به ، لنجية وأيضًا تعيدها به إلى بيتها.. فلمَ كانت تبدو خائفة حائرة .. كأنها تستجدي رضا وداد ونجية عنها وعن حبها لمحمود.

استشهدت حبيبة محمود ، كما استشهد حبيب رشا .. وكما يسقط كل لحظة حبيب امرأة أو حبيبة رجل ؛ فقط من أجل أن يبقى رجل واحد على

مقعد .. يرفض أن يتركه ، وما استطاع يومًا أن يملأه..

إنه اليوم الثالث لها في الميدان.. اليوم الثالث لها في تعلم الحقيقة وإدراك الأمور.. أعوام عمرها السابقة كلها.. كتبها الدراسية ، التي ما تركت فيها حرفًا دون أن تقرأه.. قراءاتها من كتب أبلة تهاني والمكتبات العامة ، ومكتبة الجامعة وكتب الطب ، لم يعلموها حرفًا مما تعلمته في الأيام الثلاثة ، التي أمضتها في الميدان.. وداد رأت وسمعت وتعلمت ما ولدت وماتت أجيال ، دون أن تعيه أو تعرفه ، أو حتى تتخيل قسوته وبشاعته!!

ستبقى ولن تعود.. ستبقى حتى تثأر لحبيب رشا وحبيبة محمود ، وتثأر لحبيبة قلوب كل من هم حولها.. تثأر لحبيبة تم اغتصابها.. تمت سرقتها وتشويهها.. حبيبة تم امتصاص دمها ، وهي حية في شراهة ووحشية.. وداد لن تترك هذا المكان ؛ حتى تقتص من كل من اغتصبوا حبيبتها ، وشوهوا وجهها ، الذي كان يومًا جميلًا..

فليثأروا لمصر!!

منذ أخبرتها عبير بالأمس أن رشا ووداد بخير .. ومنذ أن حادثت عبير رشا ، ومنحت نجية الهاتف الصغير ؛ لتحادث ابنتها ، وهي في ذهول كبير.. منذ بكت وداد على سماعة الهاتف بالأمس ، وهي تخبرها باستشهاد لوزة ، وهي لا تفهم شيئًا ، سوى ما يتردد حولها من كل سكان صفط اللبن ، عن أن اليوم هو جمعة الغضب.. الغضب!! أليست هذه آخر كلمات وداد لها ، قبل أن تخرج ، وتصفق خلفها باب الخشب هذا؟!

طلبت منها وداد أن تغضب ، وها هي مصر بأكملها تعلن أن هذا اليوم اسمه "جمعة الغضب"!! هل أقنعتهم وداد بهذا.. أم أنهم هم من زرعوا بداخلها هذا الغضب الكبير ، الذي يجعلها لا تعود إلى بيتها ، ولا تنوي العودة إليه ، كما أخبرتها على الهاتف ، قبل أن يرحل رئيس البلاد.. ولطمت نجية وجهها في ذهول..

رحيل الرئيس.. الرئيس؟!

ما الذي يحدث .. ستموت وداد هي الأخرى ، وستموت رشا.. لكن حتى عبير ذاهبة إلى رشا .. أخبرتها أن زوجها سيأخذها لصلاة الجمعة في الميدان ، وسيبقى هو هناك مع ابنته .. عبير أخبرتها أن بإمكانها أن تصاحبهم.. بل بإمكان نجية أن تبقى هناك إلى جوار وداد .. لكنها رفضت ..

ما رأته على شاشة تليفزيون عبير نقلًا عن تلك القناة ، التي لا تذكر اسمها يخيفها.. سيقتلون وداد؟! هل يتركون فتاة حمقاء ، ابنة خادمة في منزل رجل شرطة ، وأخت سجين أن تكون السبب في رحيل الرئيس .. كما كانت السبب في إطلاق الغضب على كل هؤلاء..

عادت نجية تنفض رأسها.. لا يمكن لوداد أن تفعل.. هي صدفة أن تقول كلمة الغضب ، وأن تصبح الجمعة جمعة غضب .. ولكن الشرطة لن تصدق أنها صدفة.. سيمدون أصابعهم ، ويخرجون وداد من وسط هذه الملايين ، ويفتتونها قطعًا صغيرة.. الرئيس يرحل؟! أين يرحل ؟! وكيف يرحل ؟!

إنها أرضه.. إنها بلاده..

ماتت لوزة؟! لا.. قتلوها.. أخبرتها وداد أن الشرطة قتلتها ، كما تقتل المئات كل ساعة.. الشرطة على حق.. إنهم مجانين.. الرئيس يرحل؟!

وعادت نجية تحدق حولها في ذهول ثم سألت نفسها..

ولمَ لا يرحل الرئيس؟! بل هو إن رحل ، فهو يملك طائرة خاصة يستقلها.. رئيس أمريكا كما كانت تسمع يحبه.. الرئيس يمكنه أن يذهب إلى أمريكا.. إلى الهند .. إلى إسرائيل.. إلى أي مكان .. لكن نجية وأبناءها ليس لديهم مكان آخر يحيون فيه..

أين تذهب وداد إن كانت لا تستطيع أن تحقق حلمها في بلدها؟!

أين يذهب محمود إن لم يستطع أن يعمل في بلده؟! أين يذهب إن سجنوه في بلاده ؛ من أجل سيجارة حشيش وجدوها في جيبه ، وخميس مازال حرًّا طليقا ، رغم أنه كان معه في القضية نفسها ؟! محمود ووداد ، وحتى خميس، ليس لهم مكان آخر.. يهربون إليه ، من البلاد التي تحاصر أعناقهم وعنقها كل يوم.. ربما كانت وداد على حق.. ربما كان يجب على الرئيس أن يرحل .. وربما كان على نجية أن تغضب.. هناك فرق ، كما أخبرتها وداد ، بين الحزن والغضب.. لكنها حزينة.. حزينة على موت لوزة وعماد.. حزينة على سجن محمود وحرية خميس.. حزينة على انكسار ابنتها ، رغم ذكائها وتفوقها..

وفي لحظة ، شعرت أن من كسر وداد وسجن محمود ، وترك خميس

طليقًا، وقتل عماد ولوزة هو رجل واحد.. رجل واحد أباح سرقة الأحلام ووأد الطموح ، وتغييب العدل والقانون.. لوزة لم تمت.. لوزة وعماد قتلوا.. وداد لم تقصر يومًا.. وداد بعثرت صباها وروحها على الأوراق والكتب .. ورغم هذا لن تلقى شيئًا ، كما أخبرتها ؛ لأنها فقيرة وابنة خادمة!!

محمود لم يجد مدرسة بها معلمون يجيدون أداء مهمتهم ، حتى يستطيع أن يفهم وينجح ، فكره كل شيء.. محمود يوم أحضرت له لوزة محام أخطأت ؛ لأن ما أنقذ خميس من السجن ليس المحامي أو القانون ، بل أنقذته الألعاب القذرة والحيل الملتوية ، التي هرب بها من حكم الإدانة كما أخبرها.

أبناؤها وجيرانها وسكان مصر كلها ضحايا.. كلهم غاضبون .. لكن هي مازالت لا تشعر بالغضب.. هي فقط حزينة وخائفة!!

وداد على حق.. الرئيس يجب أن يرحل..

وبلا وعي تلفتت نجية تنظر حولها ، وتنهدت في خوف .. هل يمكن أن يسمعها أحد؟! ثم عادت تنظر إلى شاشة التليفزيون ، في وجوه الملايين، الذين وقفوا يؤدون صلاة الجمعة في جمعة الغضب ، وقالت في صوت خفيض :

- أيوه هو السبب.. لازم يرحل!!

عندما سجد المصلون على أسفلت ميادين القاهرة والإسكندرية

والسويس، في صلاة الجمعة ، كانوا يدعون الله أن يقف معهم.. أن يرحمهم.. أن يزيح عنهم ظلمًا وقهرًا ، استمر ثلاثين عامًا.

من بين كل هؤلاء الملايين .. كان هناك وجه ساجد على أسفلت ميدان من ميادين القاهرة ، تسقط دموعه في سخاء كان يدعو.. كان يصرخ ويتوسل إلى الله .. لكنه أيضًا كان يشكره.. جمال الحسيني كان يشكر الله كثيرًا.. ما خذله الله أبدًا!!

أحياه الله حتى رأى هذه الثورة العظيمة.. أحياه بعد أن أصابه عمله مع التلاميذ والتلميذات بالخيبة والإحباط.. كان يرى مصر تسقط ، وهو يرى بناتها وأبناءها ومعلميها ، لا هم لهم سوى أحاديث الجنس والمال..

أحياه الله ليراهم يُبعثون من قبور همومهم.. ليعلم أن الأجيال التي ظن أن مدرسته ومدارس البلاد أخفقت في تربيتها ، أفاقوا ونهضوا ، وها هو يقف في صفوفهم كتلميذ صغير ، يتعلم ما لم يكن يظن أنه سيحيا يومًا ، ويتعلمه على أيدي تلاميذ وأبناء وشباب صغار!!

الصمت والقهر لا يقتلان أحدًا..

الصمت والقهر لابد وأن يأتي يوم ، يتحرران فيه من قيود الخوف ، ويخرجان من رحمها ثورة ، كالتي أكرمه الله بأن يكون فيها وفي صفوفها.. كيف إذًا لا يطول سجوده على أسفلت ، ارتوى بدماء وأحلام وشباب أبنائه !!

لكن هو سيرفع رأسه عن سجوده.. جمال الحسيني يجب أن يشارك في هذه القصة الكبيرة ، التي يراها بعينيه.. أخبره مراد أن رؤساءه

حادثوه.. وطلبوا منه العودة إلى رشده.. طلبوا منه أن يصوب رصاصه الحي إلى صدور المتظاهرين من جديد.. أخبروه أن كل شيء ، سينتهي بانتهاء هذا اليوم.. مراد أخبره أنه أخبر رئيسه أنه لن يعود ، وأنه سيقوم بدفع كل مليم أنفقته وزارة الداخلية عليه .. ولكنه لن يبقى معهم.. أخبره أن رئيسه يهدده بأنه سيتعرض لمحاكمة عسكرية .. لكن جمال الحسيني احتضنه إلى صدره ، وأخبره أن شعب مصر ، بأكمله ، سيقف صفًّا واحدًا يوم محاكمته.

الحسيني أخبره أن ما فعله مراد ، يوم أطلق رصاصاته على سيارة الشرطة، التي تقتل المتظاهرين تم تصويره ، ويتم عرضه على الـ"يوتيوب" ، وأن كل من رآه أو سيراه يخلع زي عمله ، ويحمل تلك الصبية الشابة على ذراعيه سيقف يوم محاكمته لمساندته.. رفع الحسيني رأسه ، وأتم صلاة الجمعة ، ونظر حوله.. كيف اجتمعت هذه الملايين.. كيف صحا فجأة أبناء مصر.. وكيف مازال رجال شرطتها وجنودها مغيبين في صلفهم وغرورهم .. يقاتلون ويفتحون خراطيم المياه ، ويلقون قنابل المولوتوف ، على من يحاربون من أجلهم وأجل أبنائهم!!

القهر أيقظ المصريين والسلطة ، والجبروت مازال يسري في عروق الرئيس وأعوانه.. لكن آن الأوان أن يعود كلٌّ إلى مقعده! وبعد انتهاء الصلاة صاح الحسيني قائلًا:

- «الشعب يريد إسقاط النظام»!!

منذ متى وهو يركض .. منذ متى وهو يتعثر ويسقط ، ثم ينهض

ويركض حتى استقر به الأمر في سيارة النقل هذه.. لا يعلم.. محمود لا يعلم.. إنه لا يفهم شيئًا.. كل ما يشعر به أنه يجب أن يركض .. لا يريد أن يرى رجل شرطة واحدًا.. أين ذهبوا من كانوا معه؟!

لا يعلم.. بل هو لا يتذكر.. ما الذي حدث .. وما الذي يحدث على أرض مصر.. هو لا يفهم.. هذا الصباح ، كان هناك هرج غير طبيعي في السجن.. هذا الصباح ما أخرجوه ولا أخرجوا المساجين من زنزاناتهم .. صاح المساجين في غضب ، يسألون عن سر إبقائهم في الزنازين.. هم حتى لم يمنحوهم صحون إفطارهم داخلها.. لم يشاركهم محمود الصياح.. بقي هادئًا قابعًا في زنزانته.. لا يريد إثارة مشكلات .. لا يريد أن يحرم زيارة السبت.. لوزة ستحضر إلى رؤيته.. نجية ستحضر معها.

بقيت شهور قليلة ، ويغادر السجن إلى الأبد .. لهذا لن يرفع صوته ، وإن أبقوه في الزنزانة جائعًا أيامًا طويلة.. علمته حياة السجن ألا يثير المشكلات.. علمته صفعات الضباط وشتائم العساكر أن يقبل قدمي نجية ، ويرضى بأي عمل ؛ شرط ألا يضعه في درب القانون والسجون مرة أخرى .. لكن فجأة رأى أبواب الزنازين تفتح.. فجأة رأى كل من معه يخرجون ويصيحون في جنون.. السجن أبوابه مفتوحة ، ورغم هذا لم يتحرك محمود من ركن زنزانته.. هو سيبقى فيها.. ستتم السيطرة على الموقف ، وسيعيدون من خرج ، ويقبضون على من فتح الأبواب..

هو لا يريد أن يتعرض لمساءلة.. لا يريد أبدًا ليد ضابط أن ترتفع وتهوي على وجهه من جديد.. لا يريد أبدًا لمخبر أن يعلقه من قدميه ؛ ليعاقبه

على محاولة الهرب.. ولماذا يهرب.. إنها شهور بسيطة ويتم الإفراج عنه..

صاح كثير من المساجين في وجهه ، يستحثونه على مغادرة زنزانته .. لكنه رفض .. عبد التواب جذبه من كفه إلى خارج الزنزانة ، وهو يخبره أن الباب الكبير مفتوح ، وأنه سيحميه لكنه رفض.. عبد التواب يحبه كثيرًا .. لكن محمود يحب حريته القادمة أكثر ، ولا يريد أن يفقدها.. عبد التواب ضرب كفًّا بكف ، وهو ينعته بالجنون ، ثم اختفى عن عينيه ، وبقي هو قابعًا في ركن زنزانته.. بعد أقل من ساعة ، سمع صوت طلقات رصاص من جديد.. طلقات كثيرة كثيفة.. ترى هل قتلوا عبد التواب؟! الأحمق.. ظنها لإعادة من هربوا .. لكن بعد لحظات رأى أمامه "محمد باشا" ، أحد أصغر ضباط السجن.. رآه يتجول في ممرات الزنازين ، وحين رأى محمود قابعًا في ركن زنزانته ، صاح قائلًا:"بتعمل إيه هنا يا روح أمك".. انتفض محمود واقفًا ، يخبره أن المساجين هربوا ، وأنه باق في مكانه.. محمد باشا أمسك بعنقه ، وهو يكيل له السباب ، مختصًّا أمه بأكثر السباب قذارة ودناءة.. كان يسأله لماذا إذًا بقي هو؟!

لم يفهم .. ولم يع .. ولم يصدق .. لكن محمد باشا أخرج سلاحه من جيبه، وأخبره أن أمامه ثلاث دقائق ، إن لم يختف خلالها من أمام عينيه ، بل إن لم يختف من مبنى السجن بأكمله سيقتله ، ويقول إنه قتله عندما حاول الهرب.. لقد تخبط في أفكاره لحظة .. لكن طلقة من سلاح محمد باشا أفاقته.. جعلته يركض كالمجنون.. "الباشا لا يمزح".. يعني كل كلمة قالها.. هو في عيني الباشا لا شيء ، سوى جرو صغير.. ركض في جنون.. وهو

ينتظر أن تصيبه رصاصة ، في أي لحظة من عساكر السجن أو ضباطه .. لكن لا شيء..

ركض كثيرًا واختبأ كثيرًا.. خلع جاكيت السجن ، وبقي يركض بصدره العاري وبنطلون السجن على الطرقات.. رأى كثيرًا من زملاء السجن مثله يركضون.. ولكنه لم يستطع الانضمام إليهم.. بقي كالمجنون يركض ، حتى رأى سيارة النقل هذه تمر على أحد الطرق.. وقف أمامها بجسده.. لوح بذراعيه ، وصاح السائق يكيل له السباب .. لكن محمود ابتسم ..

لماذا ابتسم؟ لأنه شعر أن سباب السائق لا يهينه .. سباب السائق كسباب أخ أو صديق.. لكن سباب "الباشا" وأعوانه كسوط جلاد إسرائيلي ، يتعمد تمزيق عروق الكرامة والرجولة.. عندما ابتسم محمود في وجه السائق ، ظنه مجنونًا عاريًا .. ولكنه أخبره أن سجينًا استوقفه وأخذ ملابسه كلها تحت تهديد السلاح ، ولم يجد أمامه سوى أن يرتدي بنطلون السجين..

ابتسامة محمود.. وجهه الرقيق الشاب ، وانكسار صوته المتهدج ، من الركض والخوف والذعر ، جعلا السائق العجوز يقبل ركوبه إلى جواره.. السائق خلع قميصه ثم منحه "فانلته" الداخلية وطلب منه أن يرتديها .. بينما ارتدى هو قميصه مرة أخرى.. السائق أخذ يثرثر كثيرًا ، ويتحدث كثيرًا ، وهو يفترض أن محمود مثله يعلم ما يدور.. محمود كان يستمع في ذهول.. المصريون في الميادين.. الشرطة تطلق عليهم زجاجات المولوتوف.. القتلى في السويس وبورسعيد بالمئات.. ما الذي يحدث؟ المساجين هربوا من كل السجون.. يحاول أن يلتقط أطراف الحديث ، وأن يتظاهر بأنه يعلم..

وصاح السائق يقول إنها ثورة حقيقية.. الحكومة أطلقت المساجين والمجرمين ؛ ليثيروا الرعب والفزع في قلوب المصريين.. أخبره أنها خطة دنيئة من حكام، أكثر دناءة من اليهود والنازيين.

محمود لم يستطع أن يقاوم ابتسامة صغيرة ، طفت على وجهه الباهت ، وهو يسأل السائق من هم النازيون؟! السائق أخبره أنه طفل لا يعلم من هم النازيون؟! النازيون هم من أحرقوا اليهود.. أحرقوهم لأنهم يهود قتلة.. لكن حكام مصر يقتلون أبناءها وشعبها ؛ لأنهم أكثر قسوة ودناءة من النازيين أنفسهم.. يقتلونهم ؛ لأنهم ما عادوا يستطيعون كتم أنينهم ، من الألم والجوع والذل ، الذي أحاطوهم به..

استدار السائق العجوز فجأة ينظر إلى محمود في قسوة أفزعته ، ثم ضحك قائلًا:

- أديك أهو فندي وبتاع مدارس .. لكن ما تعرفش النازي.. أنا بقى سواق رحت من ستين سنة الكُتاب في البلد .. لكن أعرف النازي ، وأعرف حكاية الحرب العالمية كمان .. عارف ليه؟! عارف ليه يا أفندي؟!

عندما ابتسم محمود ابتسامة أخرى صغيرة ، ربت السائق العجوز على كتفه ، ثم قال:

- عشان أنا كبرت في عهد غير العهد ، اللي إنت كبرت واتعلمت فيه..

عندما هبط محمود من السيارة ، ألقى إليه السائق بقميصه من النافذة ، وهو يصيح:

- حاقولَّك حاجة كمان ، عشان تعرف أن كل جيلك غلبان.. أنت هربان من السجن لكن أنا مبسوط.. خلي الشعب يتسرق ويتقتل.. خلي الشعب يعرف حقيقة اللي كان بيبوس جزمهم..

انحنى محمود يلتقط القميص من على الأسفلت ، وعندما انتصب .. حاول أن يخبر السائق أنه حقًّا هرب من السجن .. لكنهم أرغموه على الهرب .. حاول أن يخبره أنه لم يسرق ولم يقتل ، وأن كل جريمته أن باشا آخر ، وجد في جيبه سيجارة بانجو ومطواة صغيرة ، أيضًا ما أراد أن يحملها .. لكنه وجد السائق قد انطلق بسيارته ، وهو يقهقه في صخب.

محمود لم يرد يومًا أن يكمل في الدبلوم..

لم يرد يومًا أن يموت جابر ، ويحيا مكسور القلب والخاطر ، أو تعمل نجية خادمة..

لم يرد أبدًا أن يرشق مطواة في أمعاء عم مرزوق الحلوجي..

وفي لحظة وهو يتخبط في خطاه ، بحثًا عن طريقه إلى صفط اللبن ، علم محمود أنه ما اختار شيئًا.. منذ ولد على أرض هذه البلاد ، وكل شيء يفرض عليه.. وعاد يركض من جديد.. ربما لو اختار هذا الشعب قائده وحكومته ، لاختلفت أقداره ومصائره!! كل شيء فرض عليه بالعصا والنفوذ والقمع.. السائق العجوز على حق.. النازي ، الذين لا يعرفهم ، كانوا أكثر رحمة ونقاء!!

عندما ضمته نجية إلى صدرها .. بكى كطفل صغير ، وقال كلمة واحدة.. قال «أمي»!! منذ متى لم تضمه إلى صدرها.. لم تأخذه بين ذراعيها .. ومنذ متى لم يقل كلمة أمي..

منذ أعوام طويلة.. منذ بدأت وبدأ هو في الركض.. منذ سكن الخوف أعينهم.. منذ أصبحت لقيمات الخبز وأوراق النقود ، ذات الفئات الصغيرة هي شغلهم الشاغل.. منذ مات جابر.. منذ قاربت الأسرة على الضياع.. منذ رحل والده ، وهم في صراع وخوف .. جعل الأم تنسى أن تضم وحيدها ، وجعل الابن ينسى أن له أمًّا بإمكانه أن يناديها.. ضمته إلى صدرها في جنون، وصاحت قائلة:

- شفت اللي بيحصل يا محمود في مصر؟! هربت ليه معاهم؟!

وألقى الهارب بجسده على أريكة الخشب القديمة ، وحكى لها.. حكى لها، للمرة الأولى في حياته ، بهدوء وحنان.. عن كل ما كان وحدث معه.. وحكت له عن كل ما يحدث ويصل إلى علمها ، وتستطيع أن تدركه برأسها وعقلها.. أخبرته أن الحي بأكمله غادره رجاله.. حتى النساء خرجن إلى الميادين .. وأن عبير ورشا ، وحتى وداد ، مع هذه الجموع التي يراها على التليفزيون .. ألقى محمود رأسه المجهد على فخذها ، وهو يخبرها أنه سعيد ؛ لأن وداد لن تصبح طبيبة فحسب ، بل ستبقى العمر تذكر أنها بطلة كهؤلاء الأبطال.. سقط في النوم على فخذي أمه ، وهو يخبرها أنه سيذهب إلى الميدان ..

وقبل أن يسقط أحد جفنيه فوق الآخر ، ابتسم ابتسامة صغيرة ، وهو يرى وجه لوزة.. لوزة لن تكون عاهرة بعد اليوم.. سيأخذها إلى الميدان.. سيأخذها معه ؛ لتكون بطلة هي الأخرى.. الأوفياء مثلها هم الأبطال الحقيقيون!!

نام محمود ولوزة بين جفنيه.. نام الابن ، وبقيت الأم تمسح على رأس النائم ، ودموعها تسقط.. لا هي حزينة ولا هي سعيدة بعودته.. مازالت خائفة ومازالت لا تفهم.. وشردت بخيالها بعيدًا ، وكفها مازال يتجول على شعر محمود القصير.. وجهه جميل وقسماته ، رغم الإجهاد تبدو مسترخية.. هل حقًّا ما يردده سكان الحي.. هل حقًّا ما تخبرها به عبير.. هل حقًّا سيتغير كل شيء ، وتصبح مصر أجمل ، إن رحل رئيسها؟! ولكن حتى في عصور الملوك ، كان هناك دومًا خادمات وفقراء..

الفقر في كل العصور وفي كل الأحكام والقوانين... الفقر مذكور في القرآن.. لكن الرجال والشباب ، الذين يصيحون ، لا يعترضون على الفقر.. هم ينادون بالعدل والكرامة.. الفقر بالعدل مقبول.. قطعة الخبز الجافة الصغيرة بالكرامة أيضًا مقبولة.. لماذا لا يرحل الرئيس إذًا ؟!

وفجأة ، رفعت نجية رأسها كأنها علمت السر.. كأنها حقًّا حضرها ما غاب عن كل هذه الملايين ، التي تراها على شاشة التليفزيون.. لو دخلت نجية ذات صباح إلى منزل جمال الحسيني ، وأخبرها في هدوء أنه ما عاد يريدها .. ستخرج من بيته .. بل لو أخبرها مرزوق الحلوجي يومًا أنه لا يريدها أن تمرّض أمه ، لامتنعت عن الذهاب إلى منزلهم.. هذه الملايين تظن

نفسها جمال الحسيني أو مرزوق الحلوجي.. وتظن أنها سادة الرئيس ، وأنه يجب أن ينصاع لأوامرهم.. خطأ.. خطأ كبير..

الشعب ليس سيدًا.. الشعب ليس سيد الرئيس أو سيد الحكومة.. للرئيس سيد آخر.. للرئيس سيد ، إن قال له ارحل ، سيرحل..

وتنهدت نجية وهي تطرق برأسها من جديد ، تنظر إلى وجه النائم على فخذها .. آه لو تعلم نجية من هو سيد الرئيس؟!

* * *

نجية لا تصدق.. شيء غريب يحدث حولها.. شيء لا تفهمه.. هناك زغاريد تنطلق في المنزل الذي تسكنه.. هناك صيحات تهنئة ، وأناس تركض في كل مكان ، ووقفت تنظر إلى جهاز التليفزيون الصغير ، الذي أغلقته بعد سقوط محمود في النوم ، وقبل أن تفهم شيئًا سمعت دقات على بابها ، وركضت لتفتح في خوف.. ربما جاءوا يبحثون عن محمود.. ولكنها وجدت عبير تصيح ، قائلة:

- من ساعة الكلاب بتوع البوليس ما هربوا.. والجيش بقى في كل مكان..

وسكتت الكلمات فجأة على لسان عبير ، وهي تلمح محمود يرفع رأسه من على الأريكة في ذهول..

كانت الأنباء قد بدأت تتناقلها الألسن والأخبار عن هروب المساجين ،

بعد فتح السجون لهم ؛ لإشاعة الفوضى والذعر في البلاد ..لكن عبير تمالكت نفسها قائلة:

- حمدا لله على السلامة يا محمود..

واستدارت تنظر إلى نجية ، وهي ترى الذعر ، يسكن وجهها ، لتطمئنها أنها أبدًا لن تخبر أحدًا ، إلا أن محمود نهض قائلًا:

- والله ما هربت.. ضربوا نار.. قالولي الموت أو الهرب.. أنا رايح الميدان..

ونكست عبير رأسها قائلة:

- خربوا البلد.. منهم لله.. البلطجية بيكسروا المحلات والبنوك يا خالتي.. بس الحمد لله.. الجيش خلاص مادام نزل .. كل حاجة حتبقى كويسة..

وصاح محمود قبل خروج عبير قائلًا:

- ممكن أتكلم من المحمول بتاعك..

واستدار ينظر إلى نجية ؛ ليكمل موضحًا:

- عايز أكلم لوزة.. مش واجب برضة؟!

لماذا يحب المصريون الجيش؟ لماذا أطلقوا الزغاريد ، وتبادلوا العناق والقبلات مع رجاله؟

لأن الجيش رغم كل شيء ورغم أي شيء يحدث أو يدور ، لم ينس أبدًا أنه "الجيش المصري".. المصريون كرهوا الشرطة ورجالها ، كما كرهوا الحكومة ورجالها ؛ لأن رجال الشرطة هم رجال النظام ، والنظام عدو الشعب .. الشرطة قتلت شبابًا كثيرين ، خرجوا إلى الميادين ، لا يحملون في أيديهم سوى لافتات من ورق ، كتبوا عليها ما طال سجنه في صدورهم وعروقهم .. الشرطة تعلم أن هؤلاء مصريون .. وأن المصريين .. كل المصريين هم أعداء النظام.. كل مصري هو عدو شخصي للنظام ورئيسه وحكومته.. عدو إن لم تستطع الشرطة قتله ، فيجب على الأقل أن تبقيه مكسور العنق ذليل النفس ، يرتجف خوفًا ورعبًا.. إن لم يقم بجريمة.. إن لم يسرق.. فهو يجب أن يبقى دومًا خائفًا ، من أن يتهم بجريمة لا يعرفها..

النظام ابتدع قانونًا للطوارئ ، ظل يحكم البلاد ثلاثين عامًا.. قانونًا يبيح لرجال النظام أن يقتحموا أي مكان ، ويجردوا أي إنسان من إنسانيته .. ويمزقوا كرامته ؛ بحجة خدمة جهاز آخر أكثر بشاعة.. جهاز أطلق عليه النظام "أمن الدولة".. أمن الدولة هو ذعر المواطنين.. قتلهم.. اختفاؤهم وتعذيبهم حتى الموت.. إلقاؤهم في قبور ، تم بناؤها في قبو كل مبنى لهذا الجهاز.. كل شيء مباح.. كل شيء حلال ، مادام يضمن إسكات هذا العدو الآثم.. كل شيء من أجل النظام ورجاله.. كل شيء من أجل أن يسقط ويذل هذا العدو الغاشم ، الذي اسمه "الشعب"!!

لكن الشعب اكتفى.. الشعب خرج من قبور الصمت ، وحطم وهمًا كبيرًا اسمه جهاز الشرطة..الشرطة بانسحابها من أمام الثوار في مساء

التاسع والعشرين من يناير المجيد .. هذا جعلت الجميع يدرك أنه نظام هش ضعيف .. أوهم الشعب زمنًا بقوته ، وهو - في حقيقة الأمر - أكثر ضعفًا من خيوط عنكبوت، يمكنك أن تمحوها بحفنة تراب أو زخات ماء نقي..

هكذا وصف أحد الثوار حقيقة انسحاب الشرطة وحقيقة الحكم ، الذي يجب أن يسقط لا لظلمه فحسب .. بل لفساده وتسوس جذوره..

صفق مراد ، وهو يستمع إلى ما قال ، ثم صاح وهو يرمق أحد أعضاء كوردون الحماية ينشغل عن بعض من يحاولون دخول الميدان دون تفتيش.. اختار مراد جمال الحسيني أن يكون من رجال الكوردون الأمني المحيط بالميدان ، والذي يتأكد من دخول أو خروج أحد إليه .. العمل في الميدان منظم بينهم وبين رجال الجيش الذين بالمكان.. ورغم فرحة الجميع بتزايد أعداد قوات الجيش ؛ لتأخذ مكان قوات الأمن التي انسحبت ، دون سبب واضح .. إلا أن مراد وحده كان يشعر أن الأمر لم ينته.

مراد يعلم أن انسحاب زملائه ورؤسائه ، بهذا الشكل ، ليس معناه أبدًا تعاطفهم مع الشعب ، ولا الاعتراف بالهزيمة.. مراد يعلم أن شيئًا ما يدور على الصعيد القيادي.. شيء لا يخرج أبدًا عن أمرين.. الأول تنحي الرئيس، وتولي الجيش إدارة أمور البلاد ، وهذا مرفوض لأنه لم يتم الإعلان عنه .. وبالتالي فلا يبقى سوى إعداد أمر ما.. إعداد خفي ودنيء ، تشحذ فيه قوات الأمن قوتها من جديد ؛ للخروج على عدوها الغاشم من جديد..

هو مطمئن على وداد ومنة ، وكل من هم في قلب الميدان.. حتى جمال الحسيني عاد إلى بيته ؛ امتثالًا لأمر حظر التجول ، الذي فرضه الجيش ..

لكنه مازال يشعر أن معركة قوية ستدور.. معركة هدفها الإطاحة بهذه الجموع النقية ، التي يشعر أنه منها ، وأنه مثلها أيضًا مسئول عن حمايتها.. لم يعد التراجع ممكنًا ، بل إن سقوط هذه الثورة وفشلها هو نهاية مراد.. يعلم أنه إن سيطر النظام على الثورة ، فمراد لن يُرحَم .. سيحاكم محاكمة عسكرية، قد يكون قرارها سجنه أو إعدامه..

لقد تخلى عن أداء واجبه.. لقد خرج عن طوع قادته .. لقد عصاهم.. بل لقد أطلق النار على أحد رجالهم في تلك السيارة ، التي قتلت الشهيدة سلوى .. نجاح الثورة ليس نجاحًا لأحلام وكرامة المصريين فحسب ، بل هو أيضًا نجاة له من تهمة وعقوبة ونهاية ، يعلم أنه لا يستحقها ، ويفضل الموت عن أن ينعت بها.. تهمة اسمها "الخيانة"!!

مسح جمال الحسيني دمعة صغيرة ، سقطت على أطراف وجنتيه ، بعد أن استمع إلى الكلمة القصيرة ، التي خرج بها الرئيس مبارك على شعبه في الثلاثاء 1 من فبراير لعام 2011 .. الرئيس في رنة صوته حزن ، لم يكن موجودًا في كلمته السابقة ، التي اتسمت بالتعالي والصلف..

الرئيس يذكّر المصريين بأنه خدم الوطن في السلام والحرب.. الرئيس في أعوامه التي جاوزت الثمانين يعلن ، في ألم ، أنه سيحيا ويموت على أرض بلاده.. تغير صوته كثيرًا .. في عينيه ألم واضح.. ما قدمه يكفي.. ما

قدمه وإن جاء متأخرًا بعض الشيء .. إلا أن الحسيني شعر أنه حقًّا يكفي..

رئيس مصر ، الذي انحنى له الشرق والغرب ، يعلن أنه لن يرشح نفسه من جديد.. الرئيس يؤكد أنه سيعفي البلاد من شبح توريث ابنه ، الذي جثم على صدور ورئة المصريين أعوامًا.. الرئيس في شيخوخته يعلن ، كأنه يطلب السماح له بأنه يريد فقط الموت على أرض وطنه.

هذا يكفي.. الثورة ليست إذلالًا للرئيس.. الثورة تغيير.. الثورة توضيح لحقوق ، أراد النظام أن يغتصبها ، وها هو رئيس البلاد يقف ويعلن ، في هدوء، أنه راحل بعد شهور.. هذا يكفي..إن كان الحكم والنظام أذلوا المصريين ثلاثين عامًا ، فاليوم تحرروا .. وتحررهم لا يعني أبدًا إذلال الرئيس!!

وأمسك الحسيني بهاتفه الصغير ، وحادث مراد في ألم كبير على رجل ، يجب أن تُحترم رغبته وتقدر عروضه ، التي هي - في الأصل - ما يطلبه الشعب.. مراد على الهاتف أخبره أن كل من معه تأثروا كثيرًا لكلمة الرئيس.. وأن كثيرًا من الثوار حقًّا بدأوا يفكرون في الانسحاب ، والعودة إلى أعمالهم ومنازلهم.. لكن هناك أيضًا البعض ، ممن يحذرون ويرفضون الاستسلام لرقة .. يرونها فخًا أو شراكًا ، لا يجب أبدا الوقوع فيه.

مراد على الهاتف لاحت على صوته دمعة ، وهو يسأل والده.. لماذا تأخر الرئيس؟ لماذا خرج منذ ثلاثة أيام يقول في كبرياء أنه لن يترك مقعده ، وأنه سيضرب بيد من حديد على هذه الشرذمة؟!

سأل الحسيني ألم ير الرئيس صور أبناء هذه الشرذمة ، وهي تسقط قتلى بيد رجاله ، وكيف في أيام أصبح لصوته هذه الرقة ، وأصبح كل ما يريده أن يموت على أرض وطن ، كان نظامه هو السبب في موت كل أبنائه ، وسيراهم على تراب الوطن ، وهم موتى ، نزعت منهم الكرامة وحق القرار.. أخبر مراد أباه أن الناس بحاجة إلى وقت ؛ ليصدقوا وليثقوا في كلمات ، جاءت مغسولة بدم المئات من شهداء مصر.

أغلق الحسيني هاتفه ، بعد وعد من مراد بالحضور لتناول العشاء معه ، واستكمال الحوار بعد أن تتضح الرؤية في الأعين.

عاد الحسيني يتابع ما ينشر على القنوات ، وهو يدعو الله أن ينتهي الأمر.. كل شيء في البلاد توقف.. حتى نجية ما عادت تحضر إلى العمل.. ما حققه المتظاهرون يكفي ، وما سقط منهم أيضًا يكفي..

لكن هل تكفي كلمات الرئيس الرقيقة ، لأن ينسوا من مات .. لأن ينسوا فتح السجون وانتشار المساجين ، ومن أسموهم "البلطجية" في كل مكان.. هل ينسون الغازات المسيلة للدموع ، والتي استخدموا الفاسد منها ، كأنهم يشعرون أن الشعب لا يستحق ، حتى قنابل مازالت لها صلاحية ؟!

هل ينسى الناس يوم قطعوا عنهم كل وسائل الاتصالات وحرموهم ، حتى أن يخطوا حرفًا على شبكات الإنترنت.. هل يكفي أن يقول الرئيس إنه يريد أن يحيا ويموت على أرض مصر ؛ لينسى سكان مصر أن نظامه بقي يميتهم كل يوم ألف ألف مرة ولثلاثين عامًا؟! شيء في قلبه يرفض .. وشيء آخر يتمنى لو يصفحون .. لو يتصالحون ويقبلون العرض ، ويعود كل إلى

بيته ، ولكن القرار صعب.

إشعال النار استغرق أعوامًا.. كسر القيود التهم أجيالًا .. فهل من الممكن أن ينسوا كل ذلك ، ويتصالحوا لمجرد أن رجلًاخرج يقول إنه مثلهم ، يريد أن يحيا ويموت على أرض ، ظن أنه وحده يملكها؟!!

نجية لم تنم طوال الليل.. لم تنم أبدًا من خوفها وذعرها.. صوت طلقات الرصاص يقتحم أذنيها ، ويجعل جسدها ينتفض في ذعر.. حادثت وداد.. توسلت إليها أن تعود.. ولكنها أخبرتها بأنها لن تعود حتى يرحل الرئيس.. أخبرتها أمها أن طلقات الرصاص في كل مكان .. لكن وداد صاحت على الهاتف ، تخبرها أن اللصوص يطلقون الرصاص من أجل السرقة ، ونجية لا يجب أن تخشاهم ؛ فهي لا تملك شيئًا يسرقونه .. وتخبرها كذلك أن رشا معها .. محمود معها.. مصر بأكملها تقف حولها .. فلماذا تبقى نجية وحدها في صفط اللبن..

حاولت نجية أن تحادث الحسيني أيضًا ؛ لتسأله إن كان يريد ذهابها .. لكنها ما استطاعت.. شيء في صدرها لا يريدها أن تذهب ، وترى وجه مراد.. شيء في قلبها يخبرها أنها إن رأته قد تصرخ في وجهه.. قد تصيح .. وربما قد تبصق في وجهه أيضًا.. شيء في عروقها ، يريدها أن تمسك بعنق رجل شرطة وتمزقه قطعًا..

لماذا قتلوا لوزة؟!

حين أخبرت محمود باستشهاد لوزة ، لم يقل حرفًا.. لم تسقط من عينيه دمعة.. حاولت أن تمسك بذراعه .. حاولت أن تلطم وجهها ، وتبكي متوسلة إليه أن يبقى معها.. إنه هارب من السجن.. رجال الجيش قد يمسكون به ، وقد يوقعون عليه عقوبة أكبر .. لكنه لم ينبس بحرف.. محمود مضى وتركها.. وحدها وداد أخبرتها أنها التقته في الميدان..

لماذا قتلوا لوزة؟! ولكن لماذا قتلوا عماد أيضًا ؟! ولماذا قتلوا كل هؤلاء الشباب ، الذين ترى وجوههم على شاشة التليفزيون.. من أجل الرئيس؟! لكن الرئيس نفسه قال بالأمس إنه سيترك الحكم.. لماذا إذًا لا يعود من بقي، قبل أن يقتلوهم؟!

أرخت رأسها .. لا أحد سيقتلهم.. رجال الشرطة اختفت في جحور لا أحد يعرفها.. رجال الجيش لن يقتلوهم.. هم بخير إذًا.. إذًا لماذا أيضًا لا يعودون ؟! وعادت ترقب شاشة التليفزيون .. وفي لحظة رأت شيئاً لا تفهمه.. رأت رجالًا يركبون جمالًا ، وآخرين على ظهور جياد ، يحملون شيئًا كالسيوف ، ويضربون من هم في الميدان .. ونهضت نجية عن مكانها في ذعر لتركض خارج بيتها في جنون.. لابد أن تجد من يشرح لها ما تراه.. وعلى أطراف حارة الرحمة ، سمعت كل من بقي فيها يصيح بأن كلاب الشرطة والنظام ذهبوا ، إلى الميدان ، على ظهور الجمال والحمير ؛ ليقتلوا الثوار بالأسلحة البيضاء..

في لحظة ، شعرت نجية برياح سوداء ، تجتاح صدرها وروحها..

الرئيس كان يكذب.. لا يريد أن يموت.. رجال الشرطة ومنهم مراد ، الذي غسلت له ثيابًا ، وأعدت له ألوانًا من الطعام ، خرجوا على جمال وجياد ؛ ليقتلوا وداد ومحمود ورشا.. هم لا يأتمنون أبدًا.. هم لا يُصدِّقون أبدًا..

وركضت وسمعت صوته من بعيد ، يسألها إلى أين ، واستدارت لتراه أمامها.. إنه خميس عبد العال.. الذي تكرهه .. لكنه في عينيها الآن أكثر طهارةً ونقاءً من كل رجال الدولة ، وأخبرته أنها ستذهب إلى الميدان، وصاح يخبرها أن تركب معه سيارته.. نجية لم تتردد.. قفزت في الميكروباص، لتجد فيه مجموعة من الرجال ، بيد كل منهم عصا أو سنجة أو سيف ، وقال خميس ضاحكًا:

- فرصة يا أم محمود.. نمسك مرة السلاح على حق.. مرة واحدة في حياتنا نضرب الكلاب اللي ياما ضربونا..

ونكست نجية رأسها في هدوء.. مازالت الرياح السوداء تجتاح صدرها.. مازالت تعلم أنها لا تملك عصا أو «كرباج» أو سنجة .. لكنها تريد الذهاب إلى الميدان.. تريد أن تمسك بأحدهم ، وتمزقه بأظفارها وأسنانها.

ومن نافذة سيارة خميس ، رأت وجهه وابتسمت.. حمار مسعود .. ليس أبدًا كوجهها .. هي غاضبة وحمار مسعود ، الذي رأته من النافذة لا يعلم كيف يغضب ..

ابنتها على حق.. الأحرار هم من يغضبون.. نجية أصبحت حرة ،

عندما غضبت!! وداد على حق.. الحزن يبقيك مكانك .. الغضب وحده يركض بك..

الآن فقط .. علمت نجية الفرق بين الحزن والغضب!!

مراد لا يصدق عينيه.. لا يفهم.. من أين أتت هذه الجمال.. من عليها ليسوا من الشرطة .. لكنه يعلم أنه هجوم منظم مدفوع الأجر.. كان يركض في جنون مع الثوار ، الذين لم يهرب أحدهم من كرابيج وسيوف المأجورين..

أطاح برجلين من ظهر جوادين ، وتركهما للثوار ليفتكوا بهما تمامًا ، كما فعل مع قائد تلك السيارة.. لا يهمه أن يضرب أحدًا .. لكن يهمه أن ينقذ أحدًا.. يهمه ألا يفشل كما فشل في إنقاذ سلوى وسواها ذاك اليوم.. كان يركض ويبحث بعينيه البوليسيتين في الاتجاهات ، التي يخبره حدسه الشرطي أنهم سيتوجهون إليها ، أو يحاولون اقتحامها..

المعركة لم تطل كثيرًا.. الجياد والجمال لم تعتد أبدًا أن تتحرك في وسط هذه الكتل البشرية.. هناك جياد رآها بعينيه ، تُسقط من يركبها من ذعرها وخوفها.. شباب كثيرون رآهم يسقطون قتلى ، وانتفض قلبه وهو يتذكر وداد .. هل يفقدها؟ هل تموت؟ إنه حتى لا يملك لحظة يحادثها فيها.. وعاد ينظر حوله لا يصدق.. هناك متظاهرون يلقون بأجسادهم على المأجورين ، غير مبالين بضربات ما يحملون من أسلحة .. وتحسس جيبه

مازال في سلاحه رصاصة أخيرة .. لكنه لا يريد أن يطلقها إلا في أقصى ضرورة تواجهه.. يشعر أنه يختزنها من أجل لحظة لا اختيار فيها.. وركض مراد يحارب وهو سعيد.. إنها المرة الأولى ، التي يضرب فيها من يستحق ، ويهاجم فيها من يحاول أن يشيع الذعر والموت ، بين أفراد شعب ، خرج يطالب بالحياة..

وعلى البعد ، ومن خلف دخان قنابل المولوتوف ولمعة نِصال السيوف، التي يحملها المأجورون .. كان هناك شاب ، يركض مع مراد في جنون وغضب كبيرين.. كان يصيح ويلقي بنفسه على أي جواد ، يلقاه في جرأة ليمسك بعنقه ويلقيه أرضًا.. مراد رآه يتلقى أكثر من ضربة أسقطته أرضا.. ولكنه ينهض بعدها في جنون أكبر.. أصبح يركض إلى جواره ، كأنهما أصبحا فريقًا ، يحذر أحدهما الآخر ويحمي أحدهما ظهر الآخر.. لم يكونا وحدهما.. شباب الميدان بأكمله كانوا معهما ، لكن بقيا يشعران أن أحدهما يساند الآخر.. في أقل من ساعة بدأت الأمور تهدأ.. جمال سقطت وجياد ركضت وحدها بعيدًا .. وفي نهاية المعركة الغريبة ، رآه مراد يتلقى ضربة قوية على رأسه، وقبل أن يخطو عليه المأجور بحوافر جواده ، كان مراد يسحبه بعيدًا.. هرب المأجور بعد أن ترك الجواد ، ومراد لم يلحقه .. بل بقي يمسك بذراع المصاب الذي في يده..

صاح الشاب في صوت ممزق ، يخبره أنه بخير .. وتركه مراد مع بعض الشباب ، وعاد يحاول إنقاذ آخرين .. وقبل أن يمضي ، ابتسم في وجهه ابتسامة صغيرة ، كأنه يعلن له شكره وفخره بالعمل معه ، في ذاك

الفريق الذي ما اتفقا على تكوينه.. ووضع محمود يده على رأسه ، يتحسس جرحه الغائر ، والدم الغزير الذي يتصبب منه ، وهو يتابع مراد بعينيه.. كان يتمنى لو يذهب معه ؛ لكنه حتى لا يستطيع أن يرى بوضوح.. وسار به الشباب بحثا عن سيارة ، تحمله إلى مستشفى.. كانوا يحملونه على أذرعهم ، وكان يشعر أنه بدأ يغيب عن وعيه.

هل يموت ويلحق بلوزة؟! هل يموت؟! لا شيء في حياته يستبقيه.. وعاد يحاول أن يفتح عينيه في إصرار.. هناك شيء واحد.. شيء اسمه الأمل.. نعم الأمل في أن يصبح وطنه أمًّا تحتضنه بذراعيها.. الأمل في كل هؤلاء ، الذين يحملونه ويركضون به لإنقاذ حياته.. وابتسم ابتسامة مريرة صغيرة.. هو لا يفهم مصر ، ولا يفهم المصريين..

يوم كانت لوزة عاهرة ، كانوا يركضون حولها ويصفقون لها .. ويوم تطهرت وانضمت إلى أنقى أبنائها وثوارها.. قتلوها لأنها ، كما أخبرته منة ، حاولت مساعدة رجل عجوز ما فعل شيئًا ، سوى أنه كان يسأل:

"ليه يا ريس"؟!

سقطت جفون محمود جابر على عينيه ، وهو محمول على أذرع الثوار ، وغاب عن وعيه!!

* * *

انتهت المعركة التي أطلقوا عليها «موقعة الجمل» .. انتهت بسقوط

مئات القتلى.. انتهت وسط دموع ومرارة وألم وندم كبير ، من جانب كل من تعاطف مع كلمات الرئيس.. «موقعة الجمل» فشلت في تفريق المتظاهرين ، تمامًا كما فشل فتح أبواب السجون ، وانتشار أعمال السطو والاعتداء على المواطنين في السيطرة على الثوار.. فشلت في أهدافها .. لكنها نجحت في خلق وعي كبير بمراوغة النظام ودناءته.. وفي خلق غضب أكبر وتصميم ، لا حدود له على رحيل الرئيس..

تحرر الجميع من تعاطفهم وترددهم.. ومن شعور ضئيل اعترى بعض القلوب الطيبة بإمكانية التراجع نظير العروض ، التي قدمتها الحكومة الجديدة ، والاعتذار الذي خرج به رئيس الوزراء الجديد.. تحرر الجميع بوصولهم إلى اليأس الكامل من صدق ونزاهة النظام برمته.. الملايين أعدادها تتضاعف ، والحناجر جميعها اجتمعت على مطلب واحد ، لا تراجع عنه..

الرحيل..

كل هذا بعد معركة صغيرة ، دامت أقل من ساعة أو أكثر قليلًا.. لكنها ساعة ، محت من قلوب أبناء مصر جميعهم كلمة الصفح والتنازل.. الميدان عاد إلى نظامه ، وكوردون الحماية والاستكشاف أصبح أكثر قوة وحيطة وترقبًا.. مراد رغم الإنهاك ورغم التعب .. أصبح أكثر هدوءًا واستقرارًا.. وداد ، ومن معها بخير..

الميدان عاد في المساء إلى هدوئه ، ورأى مراد أن من حقه أن ينال ساعات من الراحة.. وقرر أن يذهب إلى المنزل.. حظر التجول رغم فرضه والتشديد عليه .. إلا أنه ليس مطبقًا بدقة ، بالإضافة إلى أن جيب مراد

مازالت فيه بطاقة الشرطة ، التي تسمح له بحرية الحركة.

صافحه الشيخ عبد العزيز في حب كبير ، وعاد يكرر عليه ما قاله له مرات عديدة .. ليس أبدًا هذا وقتًا مناسبًا للسفر ، ورغم هذا سيبقى في انتظار عودته ، في أي وقت .. وفي كل وقت.

أخبره الشيخ عبد العزيز ، وهو يخطو معه نحو باب سكنه الكبير ، وحيث السيارة التي ستحمله إلى المطار تقف بانتظاره..

أخبره أن شركة المقاولات التي بدأت معه وكبرت به لن يشغل مقعد مديرها سواه ، وأن بإمكانه أن يحضر معه عند عودته من يشاء ، ممن يعلم أن لهم أمانته وكفاءته، وعلى باب السيارة ..

ضمه إلى صدره ، كأنه صديق ليسأله هل حقًّا يعود مرة أخرى؟!

وابتسم الزائر ، ودمعة ترقص بين جفنيه ، وأجابه كيف لا يعود ، وأمه في هذا البلد .. وكيف لا يذهب وأمه ، وأم كل المصريين ، يدور على أرضها ما يدور؟!

عندما دخل مبنى المطار ، ووقف على مكتب مصر للطيران ، قال في هدوء :

- في مكان على طيارة مصر اللي طالعة الساعة خمسة !!

وبألم شديد ، أجابه الموظف:

- الطيارات كلها فاضية يافندم..

وأخرج مرزوق الحلوجي جواز سفره من جيبه ، ليسأله أن يمنحه تذكرة..

الموظف سأله عن موعد العودة إلى أرض الرياض ، فأجاب:

- أنا مش رايح.. أنا راجع.. راجع مصر!

الطائرات جميعها خاوية.. ملك السعودية فتح جسرًا جويًّا لنقل كل رعايا البلاد ، المقيمين في مصر ؛ ليعودوا إلى بلادهم.. أصبح البقاء في مصر أمرًا خطرًا ، لا يعرف أحد عقباه.. كل الطائرات تعود إلى مصر خاوية.. لم يعد أحد يذهب إليها.. لم يعد أحد يأمن زيارتها .. وأغمض مرزوق عينيه ، وهو يجلس وحده في الطائرة ، التي تحمله إلى مصر في ألم..

فلتحيا الثورة .. فليحيا جيل من الشباب ، ظنه الجميع بلا هوية وبلا مبادئ .. شباب مصر ، أو كما أسموهم «شباب الإنترنت» ، أقاموا ثورة لم تشهد مثلها البلاد.. ثورة حقيقية .. ثورة غير منظمة أو مخطط لها.. ثورة بدأت بدعوة على شاشة ما يدعونه "الفيس بوك".

ضحك مرزوق ، عندما استدعاه الشيخ عبد العزيز إلى مكتبه ليخبره عنها.. مرزوق يومها قال إن شباب مصر أصابه الجنون ، بعد معاناته من اليأس والفقر.. لكن مجنون من يظن أن المصريين ماتت فيهم الكرامة ، وخمدت فيهم قوة الفراعنة ، الذين شيدوا أهرامات ، مازالت من عجائب الدنيا..

مرزوق الحلوجي تابع ما يحدث يومًا فيوم.. عندما رأى «موقعة الجمل» بالأمس ، ثارت عروقه ، وقرر أن يعود إلى أمه.. إلى وطنه.. قرر أن يخرج من صمته ويأسه وزهده في مصر والمصريين .. مرزوق الحلوجي أمه الكبرى تناديه..

في هدوء ، مسح دمعة سقطت على أطراف وجنتيه.. أمه ماتت.. سيدة ماتت ، في الغربة.. سيدة ماتت بعد خروجهم من أحضان مصر ، في أقل من عام.. مازال يذكر كيف توجه إلى السفير السعودي ، في مصر ، منذ ثلاثة أعوام.. توجه يومها إلى السفارة السعودية بالجيزة ، وهو يشعر أن حراس الأمن سيطردونه.. هل يذكره السفير؟ هل يذكر السفير مقاولًا قام ببناء وإجراء تشطيبات لأحد منازله ومنازل أقربائه.. أمام مبنى السفارة ، وقف، وهو يلوم نفسه.. كان يشعر أن طرده أو رفض لقائه ، سيضيف إلى جرح صدره من سكين محمود جرحًا جديدًا .. لكن حارس الأمن عاد يخبره أن السفير أمر بإدخاله..

صافحه السفير كأنه يصافح صديقًا قديمًا.. أخبره أنه مازال يدعو له هو وأبناؤه ، كلما زارهم أحد وأشاد بجمال تشطيبات منازلهم.. أخبره أنه

حقًّا يدعو له ، كلما مر عام وخلفه عام ، وكل شيء أشرف على بنائه وتشطيبه مازال .. كأنه فرغ منه للتو منذ أيام أو شهور..

مرزوق شعر أن الرجل الذي منحه أجرًا كبيرًا نظير عمله ، مازال ممتنًا له.. مازال يذكره ويدعو له بالخير.. مرزوق لحظتها كره أبناء صفط اللبن جميعهم.. هو من ساعدهم.. هو من كان لهم صديق وأخ ، ومنقذ في بعض الأحيان .. جرحوه وقبلوا التشكيك فيه ، وفي عفة نفسه ونقائها.. حتى محمود.. محمود جابر الذي كبر بين ذراعيه ، يوم اشتد ساعداه ، أغمد سكينه في قلب مرزوق.

يومها ، أخبر مرزوق السفير أنه يريد الذهاب إلى السعودية.. يريد أن يذهب بأمه المريضة لتزور البيت الحرام.. يريد أن يجد له عملًا هناك.. السفير أخبره أن ابنه الأكبر أنشأ شركة للمقاولات في مدينة الرياض ، ولن يجد من يأتمنه على ولده وعمله ، في بداياته ، أكثر من مرزوق..

كل شيء تيسر.. كل شيء سهل أمره .. بل قبل أن يخرج من مكتب السفير سأله : هل الرياض قريبة من مكة المكرمة ؛ ليأخذ أمه المشلولة إلى زيارتها.. صاح السفير ضاحكًا أنه ليس وقت زيارة بل هو "موسم الحج"، وأخبره أنه لن يدعه يستلم عمله في مدينة الرياض ، قبل أن يؤدي هو وأمه فريضة الحج..

بكت سيدة عندما سمعته يخبرها بما حدث.. بكت وتحسست وجهه بكفها ، تخبره أنها رسالة له من الله.. مرزوق لا يجب أن يندم أبدًا على كل خير صنعه لأبناء صفط يومًا.. هناك دوما من يرد لك الصنيع.. من يمنحك

الخير، مقابل الخير .. وإن كان وجهًا لا تعرفه أو اسمًا لا تذكره.. سيدة حملها مرزوق على كتفه في جبل عرفات ، ووحده طاف بها على مقعدها المتحرك حول الكعبة .. في حرم المدينة المنورة ، أرسل الله له امرأة لا يعرفها، تولت أمر سيدة.. وحدها عرضت عليه أن تفعل ، عندما وجدته حائرًا على باب النساء !

سيدة هدأت دمعاتها وسكنت آلامها بعد أداء فريضة الحج .. وعندما ذهبوا إلى مدينة الرياض ليباشر أعماله في شركة ابن السفير ، وجدوا شقة مكونة من غرفتين مؤثثتين بالكامل ، في دور أرضي ، بانتظارهم.

مرزوق نسي مصر.. نسي صفط اللبن .. نسي جحود سكانها ووجوههم.. ذاب في عمله ، كما لم يذب يومًا على أرض وطنه.. كان يريد أن يرد لسيادة السفير صنيعه.. كان يشعر دومًا أنه يريد للسفير أن يعلم أن أبناء مصر ، هم مرزوق الحلوجي.. الذي إن أكرمته ، منحك روحه وقلبه وجسده.

عندما ماتت سيدة ، فكر أن يدفنها في مصر .. لكن السفير حادثه من مصر يعزيه ، وسأله في دهشة هل يعود بجثمان أمه إلى مصر ، ومكة المكرمة والمدينة المنورة إلى جواره!! كان يعلم أن سيدة تحب المدينة المنورة.. بل أخبرته يومًا أنها تتمنى لو تدفن في البقيع.. في البلد التي دفن بها حبيب الله .. بارك الله له سيادة السفير.. كأن سيدة أميرة من أميرات البلاد.. كم بكاها بعد عودته من المدينة المنورة إلى الرياض .. بكاها كثيرًا ، ومازال يبكيها..

كيف يسأله الشيخ عبد العزيز الابن الأكبر للسفير ، إن كان سيعود

إلى السعودية مرة أخرى أو لا يعود.. سيدة مدفونة في أرضها .. لكن مصر تناديه .. ما رآه مرزوق على شاشة التليفزيون ، منذ الخامس والعشرين من يناير أيقظ ما قتلته سكين محمود بداخله.. وفتح عينيه في ذعر ، وهو يسمعها تناديه ..

المضيفة تضع أمامه الطعام.. ليس صوتها هو ما أفاقه.. لكن ما أفاقه ، بل ما منعه عن الحضور إلى مصر ثلاثة أعوام أو أكثر ، هو صورتها.. هو وجهها.. هو سؤال لا يعلم كيف يجيب عنه.. نجية ستسأله كيف تخلى عنها ولماذا ؟!

من أجل طعنة محمود التي رشقها في أمعائه.. من أجل نظرات سكان صفط اللبن وتشككهم فيه.. من أجل ماذا تخلى عنها؟ من أجل ماذا تركها وهو وحده يعلم أنه سندها وعونها؟! ما ذنبها فيما فعله محمود؟ ما ذنبها في موت جابر؟! وما ذنبها ليتركها وحدها ، تواجه كل هؤلاء ، وهو وحده من أشعل في قلبها وحياتها حلم زواجه منها!! لو لم يخبرها برغبته في الزواج.. لو لم يعلن لها حبه.. لما أخبرت ابنها.. وما طعنه محمود ، ولا طارده سكان صفط بصمتهم وجحودهم ، اللذين أثارا جنونه.. ما ذنبها نجية؟! ما خطيئتها؟!

منذ موت سيدة ، وهو يفكر كل ليلة في العودة إلى مصر.. في كل صباح، كانت شمسه تشرق على عينيه ، كان ينوي العودة إلى مصر ، ولو أسبوعًا واحدًا.. وداد في مرحلة الثانوي.. كيف تنفق عليها نجية؟! هل عملت خادمة في بيت رجل آخر.. كيف يرضاها هو ؟! ولكن كيف يعود ؟! وكيف

يحتمل أن يقف أمامها ، وهو يعلم أنها ستسأله سؤالًاواحدًا:

لمَ تركها؟!

لمَ تطارده هذه المضيفة بصوتها كل حين وآخر.. لأنه لا راكب على الطائرة سواه.. وفتح عينيه من جديد وشكرها.. لا يريد طعامًا.. من يأكل أو يتذوق شيئًا ، إن ذاق يومًا ما تطهوه نجية !! .. مازال يحبها؟!

نعم.. مازال يحبها.. ستحزن لموت سيدة ، وسيحزن كثيرًا إن لم تفهم.. إن لم تغفر.. ما الذي يريدها أن تفهمه ، إن كان هو نفسه لا يفهم.. شعر يومًا أن رجولته وكرامته تبعثرت في لحظة ، أصبحت لا يساويها إلا كلمة الرحيل.. لكنه الآن يعود..

الثورة أعادته.. شباب وضعوا أرواحهم على كف المستحيل ، وخرجوا عزل ؛ ليواجهوا السلطة والأسلحة والظلم .. فكيف يبقى هو مختبئًا ، داخل جرح قديم.. الثورة أعادته.. سيذهب إلى الميدان.. سيقف إلى جوار الثوار ، ويصرخ معهم.. سيتعلم أن الحب أقوى من الكبرياء ، وأن الوفاء أهم من الكرامة ، وأن الجبان وحده من يهرب من مواجهة الظلم والحبيب.

كان جبانًا.. هرب وهو يعلم أنه مظلوم.. لا هو غرَّر بنجية ، ولا خان زوجها يومًا.. مرزوق الحلوجي مصري ، والمصريون جميعهم أفاقوا.. سيعود ، ويعلن أنه يحب مصر .. ويحب صفط .. ويحب سكانها .. ويحب نجية ، ولم يهو يومًا امرأة سواها.. إن سألته لماذا تركها.. إن سألته لماذا تخلى عنها.. إن سألته ما كان ذنبها وما خطيئتها؟! سيقول إنه تركها ليتعلم كيف

يحافظ عليها.. سيخبرها أنه تخلى عنها مرة ؛ ليعود ويدافع عنها بروحه ألف ألف مرة.

مصر هي صفط اللبن.. هي نجية أخرى ، لا ذنب لها ، ولا خطيئة في وجهها الذي تشوه ، وملامحها التي سقطت في القبح والفساد .. لكن كل شيء ، وإن طال سقوطه ، لابد وأن يعود يومًا إلى مكانه..

عادت المضيفة توقظه بصوتها.. لكن صوتها هذه المرة جاء كنغمة ناي أصيل.. هذه المرة قالت إنهم يحلقون الآن على أرض الثورة.. أرض مصر.. ورفع رأسه ، وابتسم رغم جفونه المبتلة.. عاد إلى مصر.. عاد إلى أرض العائدة من نوم طويل!!

منة لا تصدق أبدًا أن نجية بهذا الحماس.. لا تصدق أبدًا أن والدة محمود تركض معها هنا وهناك ، وتنهض بمن يسقط ، وتنام وتصحو معها في الميدان.. وداد اختفت مع زملائها في الجامعة ، وانضمت إليهم رشا .. أما هي .. فقد فضلت البقاء مع نجية ، بعد أن قدمتها لها وداد.

نجية ضمتها إلى صدرها في حب ، وبكت ، وهي تقسم لها أنها لن تترك هذا الميدان ، إلا بعد أن تثأر للوزة.. لم تعلم أبدًا أن هناك من يحب لوزة مثلها ، إلا بعد أن رأت نجية ، التي أصبحت تعرف عنها كل شيء.. أخبرتها منة بهبة ومرضها وموتها.. وعن عملها في محل الكوافير ، الذي

تعمل فيه.. نجية ضمتها وهي تخبرها أنها هنا ، في الميدان ، تشعر بالقوة والفخر ، وهي تعلن أنها عملت خادمة .. لكنها تشعر أنها أكثر نقاء من كل رجال الحكم.. أخبرتها أنها شعرت في هذا الميدان أن مصر كلها رجال، حتى من كانوا أقزامًا ، حولهم الميدان إلى أبطال.. أخبرتها أن خميس عبد العال تحول.. أن محمود ابنها ، هو الآخر ، في الميدان ، ورغم أنها لم تره.. لكنها تشعر به وصوته يهدر مع كل المصريين.. حتى منة تشعر أن لوزة روحها تهيم حولهم.. تصيح معهم.

نجية أخبرتها أنها ستعود معها وتحيا معها.. لوزة تغير اسمها ، وأصبح وداد .. ومحمود هو هبة .. ونجية هي عطيات أمها الراحلة ، وكل هؤلاء الذين يقفون في الميدان ، هم أخوالها وأعمامها.

منة ، في كل يوم يمر عليها في الميدان ، تلتصق بنجية أكثر وتحبها أكثر ، بل هي تشعر أن وداد قد تأخذ بيدها ، وتساعدها على العودة إلى دراستها.. هي تريد أن تكون مثل هؤلاء الأبطال.. جميعهم متعلمون.. الجهل لا يقود إلى ثورة ، والثورة أبطالها دومًا هم المتعلمون .. ومنة تريد أن تكون مثلهم.

ابتسمت منة ، وهي تنظر حولها بحثًا عن نجية..

إنها الجمعة .. الحادي عشر من فبراير.. جمعة أطلق عليها الثوار "جمعة الزحف"! الرئيس لم يرحل في الجمعة الماضية ، التي أطلقوا عليها "جمعة الرحيل" .. الرئيس مازال يراوغ ، والمصريون منذ «موقعة الجمل» قطعوا القرار بألا ينخدعوا بابتسامة أو وعد من رئيس الحكومة ، الذي هو

من أتباع النظام..

المصريون أحرقوا مبنى الحزب الوطني الديمقراطي ، وأحرقوا الكثير من أقسام الشرطة.. البعض يقول إن الثوار هم من فعلوها ..لكن الثوار حول منة يرددون مثلها ، أنهم لا يحرقون شيئًا.. كل مبنى على أرض مصر، هو بيت وسكن وحق لكل فرد منهم.. الثوار يعلمون أن النظام وحده من يحرق .. ووحده من أطلق سراح المساجين .. ووحده من دفع الأجر لكل هؤلاء ، الذين يسرقون المنازل ويقطعون الطرق .. لكن رغم كل هذا لن يبكي أحد نظام الرئيس.. لن يتمنى أحد - ولو للحظة واحدة - أن يعود الفساد والظلم يومًا لا شهورًا ، كما يطلب الرئيس البقاء حتى موعد الانتخابات القادمة.

كل ثوار الميدان وكل سكان مصر .. رجالها ونساؤها وأطفالها .. سيخرجون اليوم في "جمعة الزحف" ، ويتوجهون إلى مقر الرئاسة.. مقر سكن الرئيس.. لن يخافوا رجال الحرس الجمهوري ، وإن أشهروا في وجوههم قنابل ذرية أو آلية أو يدوية.. لن يتوقفوا أبدًا حتى يرحل الرئيس.. أصبح هناك ثأر ودم ، بين كل مصري وبين الرئيس.. كل ثائر من هؤلاء ، إن لم يمت له أخ أو صديق ، فلقد شهد بعينيه استشهاد شاب ، سقط برصاصة أو قنبلة أو سيف الرعاع المرتزقة ، الذين أطلقهم النظام في «موقعة الجمل» .. حتى الذين لم يخرجوا إلى الميادين .. حتى الذين يتابعون في بيوتهم ما يحدث ، يشعرون أن لهم في عنق الرئيس دينًا كبيرًا.

الذعر الذي يعيشونه.. الخوف الذي يحيون فيه.. الرئيس وحده مسئول عنه.. كيف خرج يقول إن أمن وأمان كل مواطن هو مسئوليته ، وكل مجرم

يسرق وكل قاتل يصوب بندقيته نحو الشرفاء ، من رجاله أو أتباع رجاله..

منة علّمها الميدان الكثير..

لوزة كانت تشعر أنها ستموت.. ولهذا أحضرتها إلى الميدان.. أرادتها أن ترى فيها وجهًا آخر ، غير الذي جعلها تبتعد عنها ، وتخرج إلى العمل في محل ثريا.. أرادتها أن ترفع رأسها وتتعلم ، وتكبر على أعوام عمرها أعوامًا.. أرادتها أن ترى أختها ، التي لا تختلف عن أي رجل أو ثائر أو بطل..

لو كان حديث الحي عن أختها صحيحًا.. لو كانت المكالمات التي كانت تجريها وتسمعها حقيقة.. إن كانت لوزة انحرفت يومًا ، فلقد كان هذا أيضًا ذنب النظام.. لو وفر النظام علاجًا لهبة ، أو منح لوزة أجرًا كريمًا عن عملها ، ما أصبحت كما كانت يومًا.. شقيقتها لم تختر ما كانت عليه .. لكن يوم جاءتها الفرصة ، اختارت أجمل نهاية لعمرها وشبابها.. اختارت أن تكون شهيدة..

منة أيضًا يجب أن تكون جديرة بلقب "أخت الشهيدة"!!

ستذهب معهم ، هي ونجية ، سيرًا على الأقدام حتى قصر الرئيس.. ستفعل ما تعلم أن الشهيدة كانت ستفعله...

سيبدأ الزحف نحو قصره.. لن يهدءوا ولن يعودوا حتى يعلن تنحيه.. وصاحت نجية تناديها ؛ لتطلب منها أن تكتب لها لافتة جديدة ، تريد أن تحملها أمام قصره..

ابتسمت منة ، ووقفت تمسك بورقة كرتون بيضاء وقلم أسود عريض ، وكتبت ما تمليه عليها نجية ، التي قالت:

"يا ريس حتروح من ربك فين؟! دم جابر وسلوى وعماد في رقبتك ليوم الدين"! .

خرج نائب الرئيس "عمر سليمان" في المساء ، يعلن على شاشات التليفزيون ، وهو يكاد يبكي ، تخلي رئيس البلاد عن السلطة.

أعلنها في كلمات بسيطة مقتضبة ، واستقبلتها الجموع والشعب بفرحة غامرة ، لا حدود لها.. كل شاب ألقى لافتته واحتضن من يقف إلى جواره.. كل حزين على استشهاد شقيق أو رحيل حبيب شعر أنه اقتص له.. كل ورقة شجر.. كل طائر على أرض البلاد غرد في أعشاشه.. مرزوق الحلوجي سقطت دموعه في جنون ، وهو يحتضن كل من حوله .. كأنهم أبناؤه وأشقاؤه.. مرزوق شعر أنه أصبح قويًّا مثلهم.. أصبح عزيزاً ، لن يقوى على إذلاله أحد..

حادثه عبد العزيز في اللحظة ذاتها ؛ ليهنئه وهو يكاد يبكي.. أخبره أن كل سعودي يضع على وجنة كل مصري قبلة.. أخبره أن العرب جميعهم أصبحوا فخورين بمصر.. الحلوجي ، وللمرة الأولى منذ عودته إلى مصر ، شعر أنه يريد أن يجد نجية.. أخبرته عبير أنها في الميدان مع وداد

ومحمود.. عرف عنهم كل شيء ، وسيفعل من أجلهم كل شيء.. سيطلب من محمود أن يسلم نفسه إلى السلطات.. لن يتركه حتى يفرج عنه.. سيأخذه معه إلى السعودية للعمل هناك إن شاء.. محمود رجل.. بطل.. من انضم إلى الميدان بعد سجنه هو رجل.. هو بطل..

سيقف أمام نجية ، ويعلن أنه كان جبانًا.. سيطلب منها أن تصفح وإن رفضت ، سيبقى العمر يحاول حتى ترضى.. مرزوق يريد أن يجد وداد "الدكتورة" .. سيضمها إلى صدره ويحكي لها.. وحدها قد تفهمه وتساعده .

كان ضجيج الاحتفال عاليًا.. كل حزين عاش في الفقر والفساد زمنًا، ارتسمت على وجهه بسمة أمل.. الغد.. الغد سيكون أجمل.. نجية احتضنت منة ورقصت بها ، ثم حادثوا «وداد» والتقوا جميعًا ؛ ليتبادلوا التهاني والعناق.

قرر الجميع العودة إلى صفط اللبن..

رشا تريد أن تخلع السواد.. ما عادت في حداد على عماد.. نجية تريد أن تجعل منة ترى الحي ، الذي ستحيا فيه ما بقي من العمر..

بحثوا طويلًاعن محمود لكنهم لم يجدوه.. وداد أخبرتهم أنها منحته رقم هاتفها ، عندما التقته في الميدان ، وأنه حتمًا سيحادثهم أو يلقاهم في صفط.. كما أنها حادثت مراد ، الذي طلب رؤيتها .. لكنها طلبت منه أن يلقاها بعد ساعتين ، أمام باب مدرسة الجيزة الثانوية..

لا أحد في مصر سينام.. مصر ستبقى تحتفل حتى الصباح .. والأيام القادمة كلها صباح ، بعد ليل طال ثلاثين عامًا.

وداد انحنت على رشا تقول لها هامسة :

- رشا.. عندك أمانة بتاعتي.. عايزاها!!

بكى الحسيني وضحك على ذراعي مراد ، عندما وجده يفتح باب البيت بعد الغياب.. رقصا وصفقا كالأطفال ، وجلسا - بعد وجبة سريعة - يتبادلان الأحاديث..

سأله مراد كيف يرى الغد.. وضحك الحسيني ضحكة صغيرة لا تخلو من المرارة.. أخبره أنه يرى مصر ، تقف على أبواب مرحلة حرجة وصعبة للغاية.. تنحي الرئيس ليس النهاية الوردية ، رغم كونه إنجازًا لم يحلم به الشرق الأوسط.. أخبره أنه يرى مصر والمصريين ، يمرون بأيام وشهور .. وربما أعوام صعبة دقيقة.. الثوار سيصيبهم الجنون.. كل ثائر.. كل متظاهر لن يهدأ ولن يعي بسهولة أن الحرية والديمقراطة والرخاء ليسوا أبدًا في تنحي الرئيس .. بل في بناء جديد وصعب ، يحتاج وعيًا وصبرًا وأعوامًا لإصلاح ما تم هدمه ، ليس في ثلاثين عامًا ، بل ربما منذ خروج فاروق.

الثوار يحتاجون وقتًا ليفيقوا من نشوة ما صنعوه ، ويحتاجون وقتًا أكبر ؛ ليرفعوا أكفهم عن مصر ، ويتركوها لقادة يعملون ويثقون فيهم.. الحسيني أخبره أنه يعلم أن كل المصريين لن يثقوا في أحد بسهولة.. سيظن

كل منهم أنه وحده من يعلم الحقيقة ، وأنه وحده من يجب أن يصنع القرار.

أخبره أن هناك بابًا أغلقته الثورة .. لكن ثمة أبوابًا كثيرة ستفتح في الغد.. تنحي الرئيس لا يعني توقف المحاولات عن إجهاض الثورة.. ولا يعني أبدًا استسلام من سرقوا البلاد ، ويريدون الإفلات بغنيمتهم.

ليست هذه النهاية الوردية.. هناك أعوام قحاف ، يجب أن يتعامل معها المصريون بكل الحنكة وكل الحذر ، وإلا ضاعوا وضاعت مصرهم إلى الأبد ..

الجيش وحده لن يفعل شيئًا ، وإن فعل سيصبح موضع اتهام .. وعندها قد تكون الطامة الكبرى.. وتتحول مصر إلى طوائف ممزقة ، يتراشق أفرادها الرصاص والكراهية.. مصر تقف على مفترق الطرق ، وإن لم يتنبه المصريون إلى كل ما سيحدث ، ستكون تلك هي النهاية السوداء.

مراد سأل الحسيني ، ورجفة خوف تصبغ صوته :

- "أما من أمل؟!"

الحسيني ربت على كتف وحيده ، وأخبره أن الأمل في الوعي.. في الإدراك.. الأمل في أن يعلم كل مصري متى يقبض بذراعيه على ثورته .. ومتى تتراخى أصابعه عنها ليعود إلى عمله.. إلى ولائه وثقته فيمن يمسكون بزمام الأمور.. إن شعبًا استطاع أن يحقق ثورة كهذه ، لابد وأن يتعلم كيف يحافظ عليها .. شهور أو سنوات من مزيد من الفقر والألم لن تضيرهم.. المصريون تعلموا كيف يتعاملون مع الفقر والألم.. بقي فقط عليهم أن يتعلموا مزيدا من الصبر عليه ؛ حتى تنفرج الضائقة ويتحقق الحلم .. يوما سيصبح

الشرق ، كما أراد الله له أن يكون.. وطن العدل والسلام والحب..

مراد ضم الحسيني إلى صدره ، وهو في طريقه إلى الخروج.. وابتسم والده ، وهو يسأله إلى أين؟!

قال مراد في خجل:

- إلى وداد..

كأن القدر أراد لهما أن يلتقيا في الثانية عشرة.. كأن القدر رسم لهما أن يقف أحدهما أمام الآخر ، في اللحظة الأولى من أول صباح ، بعد تنحي الرئيس .. وشعور النصر الذي اجتاح الصدور..

رأته وداد يقف بسيارته أمام الشجرة العتيقة ، التي شهدت لقاءين لا تنساهما .. لقاءها بمراد وعناقها لمحمود بعد غيابه.. رأته يهبط من سيارته، ويشهق في سعادة ، وهو يراها ترتدي الثوب الذي ما ارتدته أبدًا.. الثوب الذي منحته يومًا لصديقتها لتعيده إليه.. لقد ارتدت ثوب الحرير الوردي ، ووقفت تنظر إليه من خلف دمعات ، رقصت على نبضات روحها وقلبها..

أخذها بين ذراعيه في حنان كبير.. ضمها إلى صدره ، في وقت .. كان كل شعب مصر ، يتبادل فيه العناق والقبلات.. أغمضت عينيها على صدره ، وهمست:

- كل حاجة ليها ميعاد يا مراد.

وضع كفه أسفل وجهها ونظر في عينيها.. يذوب فيها حبًّا .. لكن هناك بينهما جسورًا لا يعلم إن كانا سيعبرانها يومًا أم لا .. بأصابعه أسقط منديل رأسها الحريري .. وسقطت خصلات شعرها الناعم الغزير.. أصوات أبواق السيارات وصيحات المحتفلين تهدر في كل مكان..

إلى جواره ، سارت وداد في هدوء.. مالت برأسها على كتفيه.. لو رأتها نجية.. لو رآها محمود ما خجلت وما خافت.. مراد الحسيني حبيبها بطل .. حاول إنقاذ لوزة وحملها على ذراعيه..

بلا وعي ، قالت في مرح:

- عم مرزوق رجع..

حكت له قصة مرزوق وأمها.. حكت له وسألته هل يعتقد أن أمها تتزوج مرزوق..

ضمها مراد إلى ذراعيه أكثر ، وهو يخطو إلى جوارها ، قائلًا:

- نجية بتحبه؟!

وفتحت وداد عينيها ، في دهشة ، تسأله:

- هي منة قالتلك اسم أمي؟!

وبالحنان ذاته ، وفي صوت ضعيف ، قال:

- أنا أعرف نجية أمك من أكثر من ثلاث سنين..

وضع كفه أسفل وجهها ونظر في عينيها.. يذوب فيها حبًّا .. لكن هناك بينهما جسورًا لا يعلم إن كانا سيعبرانها يومًا أم لا .. بأصابعه أسقط منديل رأسها الحريري .. وسقطت خصلات شعرها الناعم الغزير.. أصوات أبواق السيارات وصيحات المحتفلين تهدر في كل مكان..

إلى جواره ، سارت وداد في هدوء.. مالت برأسها على كتفيه.. لو رأتها نجية.. لو رآها محمود ما خجلت وما خافت.. مراد الحسيني حبيبها بطل .. حاول إنقاذ لوزة وحملها على ذراعيه..

بلا وعي ، قالت في مرح:

- عم مرزوق رجع..

حكت له قصة مرزوق وأمها.. حكت له وسألته هل يعتقد أن أمها تتزوج مرزوق..

ضمها مراد إلى ذراعيه أكثر ، وهو يخطو إلى جوارها ، قائلًا:

- نجية بتحبه؟!

وفتحت وداد عينيها ، في دهشة ، تسأله:

- هي منة قالتلك اسم أمي؟!

وبالحنان ذاته ، وفي صوت ضعيف ، قال:

- أنا أعرف نجية أمك من أكثر من ثلاث سنين..

في قلبها دق شيء .. وفي رأسها دق شيء آخر .. وعندما سألته ، في صوت مبحوح ، كيف يعرف أمها منذ ثلاثة أعوام ، أمسك بيدها قائلًا:

- دي ثورة تانية يا وداد.. ثورة كبيرة وجديدة .. بس أنا وأنت اللي حندخلها.. ممكن نكسبها وممكن نخسرها.. لكن في الحالتين حافضل بحبك..

حاولت أن تستوضحه .. لكنه وضع أصابعه على شفاهها ، وعاد يقول:

- مش لسه من دقائق قلت كل حاجة ليها ميعاد؟!

هزت وداد رأسها.. ربما كان من الأفضل أن تنتظر.. وأن يأتي كل شيء حقًّا في أوانه.. ونظرت حولها إلى وجوه المصريين ، الغارقة في الفرح والأمل ، وقالت كأنها تحاول أن تبتعد عن قصة مراد ونجية.. قالت في بساطة:

- شوف المصريين طيبين قد إيه؟! من ساعات كانوا عايزين يروحوا قصر الريس.. أنا تخيلت أن معركة تانية حتقوم هناك.. وفي ثوان خلصت كل حاجة.

مراد أخبرها أنها ليست ثواني ، تلك التي فصلت بين ثورتهم وفرحتهم.. الفاصل بين الاثنين أسابيع طويلة.. دماء وشهداء ، وحيثيات ، ومصالح سياسية وقومية وضغوط كبيرة ، قد لا يعلم عنها المصريون شيئًا أبدًا.

وفي طفولة سألته:

- تفتكر حينسوا اللي حصل؟! حيسيبوا الريس.. ممكن نسامحه ، ونكتفي بالفرحة دي..

صورة سلوى وهي تسقط ، قفزت إلى رأس مراد.. صورة العجوز المسكين الذي كادت السيارة أن تفتك به ظهرت في رأسه.. صورة العشرات الذين لم يستطع اللحاق بهم ، أو إنقاذهم ، انتصبت أمام عينيه.. دماؤهم التي اختلطت بالأسفلت وأتربة الأحذية رفعت كفها في عيني مراد..

تأوه وهو يذكر الشاب الأسمر الوسيم ، الذي دافع عن الكثيرين يوم موقعة الجمل.. ذاك الشاب ، الذي تمنى لو يسأله عن اسمه.. ذاك الشاب الذي أنقذ الكثيرين معه ، وسقط مضرجًا في دمائه.. ترى هل مات هو الآخر... كم يتمنى لو يجده.. في الغد سيذهب إلى المستشفى القريب ويبحث عنه.. إن وجده حيًّا ، سيسأله هل يصفح.. هل يغفر؟!

أما إن استشهد هو الآخر ، فخيوط دمه ستبقى ملتفة مع خيوط دم سلوى ، وكل من رآهم مراد يموتون في الميدان..

أبدًا في الدم لا تصالح.. لا تسامح!!

واستدار ينظر إلى عينيها بعينيه المغسولتين بالدمع ، وذكريات الألم والدم، وقال:

- مستحيل.. فاكرة يا وداد قصيدة أمل دنقل ، اللي اسمها «لا تصالح» .. فاكراها؟!

أرخت وداد عينيها في حزن ، وهي تهز رأسها بنعم..

جلس بها مراد على أحد المقاعد الخشبية القديمة ، وقال في حنان:

- تعالي نفتكرها سوا ..

ومالت برأسها على صدره ؛ ليضمها في حنان ، وأخذا يرددان معًا كلمات أمل دنقل قائلين:

على الدم.. حتى بدم لا تصالح!

ولو قيل رأس برأس..

أكلُّ الرؤوس سواء؟!

أقلب الغريب كقلب أخيك؟!

أعيناه عينا أخيك؟!

وهل تتساوي يد سيفها كان لك بيد سيفها أثكلك([1]) ؟

لا تصالح!

ولو منحوك الذهب

أترى حين أفقأ عينيك

ثم أثبت جوهرتين مكانهما ..

هل ترى..؟

هي أشياء لا تشترى..!!

"تمت"

إصدارات سابقة

1 - ديوان "وعادت سندريلا حافية القدمين"!!

2 - رواية "الحرمان الكبير".. الدار العربية للعلوم

3 - رواية "نساء ولكن".. الدار العربية للعلوم

4 - رواية "رغم الفراق".. مكتبة الدار العربية للكتاب

5 - رواية "أريد رجلًا".. دار الساقي

للتواصل:

1 -Facebook:noorabdulmajeed.com

2 - www. noorabdulmajeed.com

[1]() رحم الله كل شهيد ، اشترى لنا بدمه العدل والحق والحرية ...